في ظلال السيرة النبوية

كتاب يجمع بين دفتيه سيرة النبي ﷺ من الميلاد إلى الوفاة، وما يتعلق بذلك من الشمائل والخصائص واللطائف مع تتبّع لمواطن القدوة، واستلال لأروع مواقف التأثير..



تأليف
مشعل عبد العزيز الفلاحي




في ظلال
السيرة النبوية

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٤٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

الدار الشامية - بيروت هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١) ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

www.alkalam-sy.com

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

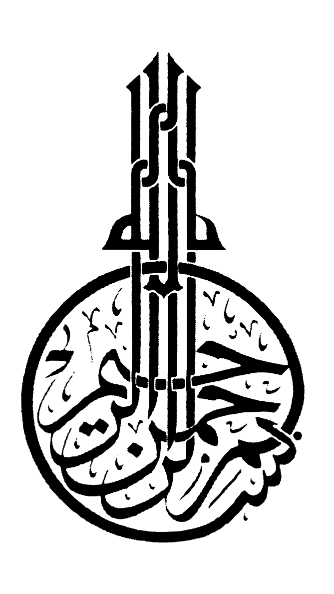
دار البشير - جدّة: ٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١



كتاب يجمع بين دفتيه سيرة النبي ﷺ من الميلاد إلى الوفاة، وما يتعلّق بذلك من الشمائل والخصائص واللطائف مع تتبّع لمواطن القدوة، واستلال لأروع مواقف التأثير..

تأليف
مشعل عبد العزيز الفلاحي




بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

تلميذ في رحاب معلم سامق الطول، وطالب في مدرسة لا تحدُّها أركان ولا فصول، هكذا أجدني أمام سيرة كسيرة الرسول العظيم محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه.. كيف يمكن لأمثالي أن يعلّق على سيرة عظيم كتب الله أن تكون منهجاً للحياة، ومدرسة للأجيال، وتاريخاً حييت به أمم على وجه الأرض، لتكتب أعظم رسالة مرّت على وجه الحياة؟!..

غير أنّي كنت محبّاً لشخصه ﷺ، مولعاً بذكره، متيّماً في هواه، فأردت أن أدوّن ذكريات تبقى رسوماً شاهدة حين ألقاه ـ بإذن الله تعالى ـ على حوضه ﷺ في مواقف العرصات...

إنَّ ما دعاني لأكتب في ظلال هذه السيرة هو ذلك البون الشاسع اليوم بين الأمة وتراث نبيها، ليس هذا على مستوى العامة فحسب، فقد يكون الجهل عذراً، لكن على مستوى طلاب العلم، وأصحاب المنهج، والقادة... وسبب ذلك ـ والله تعالى أعلم ـ أن سيرة هذا النبي الكريم اختصرت في جهاده ومغازيه، وحتى هذه لم تستوف دروسها التربوية بعد!.. ولم تكتمل منظومة القدوة فيها بحق!..

فصار هناك فصلٌ كبيرٌ بين أحوال النبي ﷺ في تعامله مع أزواجه وأصحابه وأعدائه، والتي هي منهج في حدِّ ذاتها للمتأسين، وبين أحوال الأزمات التي كتب فيها كذلك أروع أنواع القدوة... فعُني بالحال

الثانية على حساب الحال الأولى، أو قُل: فُصل بعضها عن بعض، فلم تتسق في منظومة واحدة لتُحدث تصوّراً كاملاً لعَلَمٍ كهذا النبي الكريم ﷺ. .

فكتب قلمي في ظلال هذه المساحة ليردم الهوة بين الحالين، وليقرّب الصورة، ويجمع شتات فرقتها بأسلوب جامع مختصر، عمدتُ فيه إلى سرد أحداث السيرة كلها حتى لا أحدث خللاً آخر، متقصّداً الوقوف على ما صحَّ من ذلك فقط، تاركاً أشياء كثيرة وردت في كتب السير، أحداثها عجيبة، لكن رصيدها من الصحة ضعيف، متتبعاً في الأصل آثار الدكتور أكرم ضياء العمري في كتابه (**صحيح السيرة النبوية**)، محاولاً الاستفادة من كل من خط قلمه متتبعاً لسيرة نبيه ﷺ. . وخطَّ قلمي في ثنايا ذلك كله دروساً أردْت أن تكون منهجاً للمتأسين، ونوراً للمقتبسين، وطريقاً للراغبين.

وختاماً: هذه **محاولة لاستنباط مواقع القدوة والتأثير في حياة هذا النبي القدوة** ﷺ أحسَب أنها قد تكون زاداً لمن أراد التأسي، وحسبي أنني ما أردت إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله تعالى، وأحسب أنني بهذه الأسطر قرّبت للمؤتسين هذه السيرة، في صورة متكاملة، ورصدت لهم كل ما يتعلّق بهذه السيرة المباركة، في ثوب أرجو أن يكون جميلاً. . ولا أعدم منك نصيحةً أو توجيهاً أو تعقيباً، جمع الله لك شملك وجمعك بنبيك ﷺ.

والشكر أولاً لله تعالى صاحب الفضل في هذه العطايا، والشكر موصول لأبي سعود أحمد بن حسن الصابطي، ولأبي أحمد شائع بن محمد الغبيشي، وأبي عبد الله علي بن عبد الله الزبيدي على عنايتهم بهذا الكتاب تصحيحاً، وتهذيباً.

والله المسؤول أن يرزقنا حُبَّ نبيه ﷺ، وإجلاله، واقتفاء أثره.. إنه ولي ذلك والقادر عليه.

مشعل بن عبد العزيز الفلاحي
المملكة العربية السعودية
محافظة القنفذة ـ حلي
جوال: ٠٥٠٤٦١٤٨١٧
مساء الإثنين ـ ربيع الثاني من عام ١٤٣٠هـ
Mashal001@hotmail.com



يا شريداً ملأ الدنيا اسْمُهُ　　وغدا لَحْناً على كلِّ الشفاهْ
وغَدَتْ سيرَتُه أُنشودةً　　يتلقاها رُواةٌ عن رواهْ
ليت شعري هل دَرى من طاردوا　　عابدُو اللات وأتباعُ مَنَاهْ
هل درى من طاردته أُمَّةٌ　　هُبَلُ معبودُها شاهَتْ وشاهْ
طاردت في الغار من بوَّأها　　سؤدداً لم يبلغِ النجمُ مداهْ
طاردت في البيد من شاد لها　　دينُه في الأرض جاهاً أي جاهْ
سؤدداً عالي الذرا ما شاده　　قيصر يوماً ولا كسرى بناهْ



الفصل الأول

مولد النبي ﷺ ونشأته

العظماء لا يختلفون في ميلادهم عن ميلاد الآخرين، والأرحام التي تقذف العظماء هي كذلك تقذف غيرهم، لا فرق في تلك البداية لكل إنسان على وجه الأرض، والفرق يكمن حقيقةً في العمر الفاصل بين الميلاد والوفاة.

أولاً ـ مولد النبي ﷺ:

ولد نبينا محمد ﷺ في يوم الإثنين، وفي الصحيح: أنه سئل ﷺ عن صوم يوم الإثنين فقال: «**ذلك يوم ولدتُ فيه**»[1]، والروايات الصحيحة تقتصر على هذا القدر من ذكر الميلاد فقط.

وكانت ولادته ﷺ بعد وفاة والده حيث كان حملاً في بطن أمه.. وكل ما ذكر في صفة حمل أمه به، والإرهاصات التي رافقت تلك الولادة لا يثبت منها شيء من طريق صحيح، وأقوى ما ذكر في هذا الباب ما جوّد إسناده ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أن أمَّه رأت حين وضعته نوراً خرج منها أضاءت منه قصور بُصرى من أرض الشام»..

ولا يهمنا ذلك في شيء البتة، وأيّاً كان ميلاده سواء ظهرت فيه تلك النبوءات أم لم يظهر من ذلك شيء، فنبينا أعظم من وطأت قدَمه الأرض، وأشرف رجل مرَّ في ذاكرة التاريخ، وأعظم قائد سطّر على ظهر

---

(١) رواه مسلم.

هذه الحياة معاني الإنسانية.. وعظيمٌ بمثل هذه المكارم لا يهمنا ما الذي صاحب ميلاده.

لقد أراد الله تعالى بهذا الميلاد أن يجعل هذه الأمة المتأخّرة في ميلادها سابقة إلى الخيرات والمكارم! والأمم على ظهر الأرض لا يمكن أن يحول بينها وبين الشياطين سوى مصلحين من هذا الطراز النادر على مستوى الأمة!.

إن كرامة الإنسان لا تأتي من ركام من لحم ودم، كلا! بل تأتي من اعتناقها لقيم دين تتعبّد به لخالقها تعالى! لذا كانت الحاجة ماسَّة جدّاً لمصلحين من أمثال محمد ﷺ.

وهل وُلد ﷺ مختوناً أو خُتن كما خُتن غيره؟ فيه خلاف، والأصل أنه خُتن كما خُتن غيره، إذ لم يثبت خلاف ذلك، ولا يتعلّق بعلم ذلك فائدة تُذكر؛ إذ لا يترتّب عليها عمل، وقد بلَّغنا سنته ﷺ في ذلك من قوله، فلا حاجة إلى تتبّع ذلك، والضرب فيه بالظنون والأوهام، ومع جلالة كل ما يمكن أن نعرفه عن سيرة هذا النبي العظيم ﷺ، إلا أن هذا من المكاثرة المنهي عنها، وما وهنت الأمة اليوم، وثقل ظهرها، وغابت غاياتها إلا حين انشغلت بركام من العلم لا يترتّب عليه عمل! والله المستعان..

ثانياً ـ نشأته ﷺ:

نشأ رسول الله ﷺ بعد ولادته كما ينشأ الآخرون من بني آدم على وجه الأرض، بل نشأ يتيماً كما تعلم!.. ولقد أراد الله تعالى أن يولد ثم لا يجد أباً يوجهه أو يرعاه أو يرسم في حياته شيئاً من معاني الجاهلية العمياء.. فتولى الله تعالى رعايته، وتربيته، حتى يكون محمد ﷺ ذلك

الرجل الذي يكتب تاريخاً في حياة أمته، وهذا أحد أسرار اليتم التي عاش رسول الله ﷺ مرارتها.

إن اليتم في حياة أي إنسان مرحلة لا تقوى الأيام على مسحها من الذاكرة، لأن فيها من اللأواء ما لا يستطيع التاريخ تجاوزه، غير أن محمداً ﷺ أراد الله تعالى له أن ينشأ يتيماً ليتولاه بالتربية والتهيئة لتلك الرسالة العظيمة.

وتولَّت أم أيمن رضي الله عنها حضانته حتى كبر رسول الله ﷺ فأعتقها عليه الصلاة والسلام ردّاً لجميلها، وحفظاً لحقِّها..

وأصل رضاعته ﷺ عند حليمة السعدية في ديار بني سعد صحيح، وما صاحب ذلك من البركة في ذهابهم إلى مكة وعودهم إلى ديار بني سعد خبر مستفيض في كتب السيرة قديمها وحديثها، غير أنه خبر لا يصححه المحدثون لعلل إسنادية[١].

ثالثاً ـ رعيه للغنم:

نشأ رسول الله محمد ﷺ وعاش كما يعيش الآخرون، حين كانوا يعيشون على الرعي، وجاء في زمرتهم سواء بسواء؛ فرعى رسول الله ﷺ الغنم في مكة قبل البعثة؛ رعاها لأهل مكة على قراريط[٢].

إن نُقلة الأمة النوعية لا تبنى على ظنون أو أوهام كاذبة، كلا، ولا تُبنى كذلك على أقوال يتفكَّه بها المربُّون وهم على أرائكهم، وإنما تتم وفق سنن كونية مقننة.. لو شاء الله تعالى أن يخلق محمداً ﷺ كاملاً من حين ولادته، ثم يخرج على الناس يبلغهم رسالة الله تعالى في الأرض

(١) ذكر ذلك الدكتور أكرم ضياء العمري في كتابه: السيرة النبوية الصحيحة.
(٢) رواه البخاري.

لـكـان كـمـا أراد، إلا أن ذلـك يـخـالـف نـظـام الـخـلـق، ولا يـتـأتّى الناس للخوارق في العادة، فعُني بنبيه ﷺ ضمن سنن واضحة بيّنة لتهتدي الأمة إلى صنع قادتها عبر هذا الإطار البيّن الواضح، فخلقه الله تعالى يتيماً، ونقله للرضاعة في ديار بني سعد، وأعاده إلى أرض مكة ليرعى الغنم.

لا يمكن أن تجد قائداً على وجه الأرض لا يلبس رداء الرحمة البتة، واليُتْم طريق للتعريف بها من بداية الطريق.. وكذلك: الفصاحة مطلب لتبليغ دين الله تعالى؛ فلا بد لمحمد ﷺ أن يَرضعها من نساء البادية، **وقيادة الناس لا تأتي إلا بالتدريب والمراس والتجربة الحية،** ورعي الغنم ميدان تلك التجربة القادمة، فهل نعي هذا الدرس جيداً معاشر المصلحين لنبدأ في إعداد قادة المستقبل، وبُناة الأمم، ورجال التاريخ؟!.

ودعني أتساءل مرة أخرى: هل يمكن أن يرعى الدعاة والمصلحون الغنم؟ هل يمكن للدعاة والمصلحين أن ينزفوا عرقهم من أجل حصولهم على لقمة العيش؟ هل يمكن ذلك؟ إن في رعي النبي ﷺ للغنم في مكة درس بليغ لمعاشر الدعاة والمصلحين، الذين يتكففون الناس صباح مساء!..

إن الدعوة درس شاق من العناء والتضحية، وكذلك الرزق، ولا تستقيم دعوة نبي أو مصلح يقف في الصباح الباكر يتكفّف الناس لملء بطنه من الجوع، وفي المساء يقف موجهاً وداعياً، كلا! ما رأيت في حياتي دعوة تستقيم على هذا المنهج البتة!.. وأرجو ألا أراها في يوم من الأيام، لذا كانت أكبر كلمة رددها الأنبياء والمرسلون لأقوامهم: «**يا قوم لا أسألكم عليه أجراً**».. وفي المقابل كم من حق ضاع؟ وكم من فضيلة

سُلبت؟ وكم من جهود تهدّمت؟ لمّا كان الدعاة والمصلحون ينظرون إلى عطاء مستمر يأتيهم، يطمعون فيه، ويتلهّون به، ثم ما يلبث في كثير من الأحيان أن يكسر قوّتهم أو يدوس كرامتهم، أو يلجمهم عن كلمة حق، والله المستعان!.

العمل الحر شرف، وفضيلة، وعز ورفعة، ويد عليا، وليس فيه لمخلوق منّة؛ بشرط أن يكون وسيلة لغايات الآخرة، وتبليغ دين الله تعالى في الأرض.

رابعاً ـ شق صدره ﷺ، وحمايته من أوضار الجاهلية:

عوداً إلى حياة نبينا ﷺ، لقد استمر النبي ﷺ يمارس حياته كما يمارسها شُبّان مكة دون فرق بينه وبين غيره، لكن لمّا كان هناك حادث جلل ينتظر هذا الغلام صارت عناية الله تعالى به كبيرة عن بقية الناس، فحماه الله تعالى من أوضار الجاهلية، وكان من صور هذه الرعاية أنه شُق صدره ﷺ مرتين:

الأولى: في ديار بني سعد قبل البعثة؛ وفيها: أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك.. ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (ظئره)، فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون[1].. على اختلاف في عمر النبي ﷺ وقت وقوع هذه الحادثة ما بين ثلاث إلى أربع سنوات.

والمرة الثانية: التي شُق فيها صدره ﷺ في بيته بمكة بعد البعثة زمن

(١) رواه مسلم.

الإسراء والمعراج، وفي حال اليقظة، قال ﷺ حاكياً ما حدث له: «**فُرج سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً فأفرغه في صدري ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا**».. وفي رواية أخرى: «**وأُتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار (البراق) فانطلقت مع جبريل حتى أتينا السماء الدنيا**».. وفي رواية أخرى: أنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم، فتولاه منهم جبريل، فشق جبريل ما بين نحره إلى لبَّته، حتى فرغ من صدره وجوفه فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه، ثم أُتي بطست من ذهب فيه تور من ذهب محشوّاً إيماناً وحكمة، فحشا به صدره ولغاديده ـ يعني عروق حلقه ـ ثم أطبقه، ثم عرج به إلى السماء الدنيا[١]، وهذه بعض عناية الله تعالى برسوله، وإعداده للمستقبل القريب.

وفي هذا الإطار ما ورد في البخاري: من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: (لما بُنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ والعباس ينقلان الحجارة، فقال العباس للنبي ﷺ: «اجعل إزارك عل رقبتك يقيك من الحجارة» فخرّ على الأرض وطمحت عيناه إلى السماء ثم أفاق فقال: «**إزاري إزاري**».. فشد عليه إزاره)[٢].

إن صفاء القدوات أبلغ أثراً في تحقيق معاني القدوة في حياة الناس، وعلى قدر هذا الصفاء يتعلّق الناس بالقدوة تعلّق المحبين.. وأنت ترى فيما مرَّ بك من هذه الأخبار أن الله تعالى أراد لنبيه ﷺ أن يكون عالَماً من القدوة التي لا تخدشها هنّات البشر البتة، وكان كما

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

أراد، والدعاة والمصلحون في كل زمان ومكان مع أنهم بشر من الناس، كتب الله تعالى عليهم أن يذوقوا بعض مرارة الخطيئة، وآثار المعصية، إلا أنهم يمكنهم وفي مقدورهم أن يسموا إلى عالم من القدوة عظيم.

القدوة كبيرة ومضنية وشاقة، لكن آثارها العاجلة تدعو إلى استلذاذ المشاق في سبيل تحصيل آثارها العظيمة.. والله المستعان.

خامساً ـ بحيرا الراهب:

ظل النبي ﷺ يرافق عمَّه في سفرياته، فسافر ﷺ في إحدى رحلاته إلى الشام مع عمَّه في تلك الفترة، فلما نزل الركب بُصرى من أرض الشام كان بها راهب يقال له: بَحيرا، وكان إليه علم النصرانية، وتعرّف على النبي ﷺ من خلال صفاته وأحواله، ثم قال لعمه: «ارجع بابن أخيك، واحذر عليه يهود، فإنه كائن لابن أخيك شأن عظيم»[(١)].

سادساً ـ صناعة القائد:

وهنا يمكن أن يقال: **إن القادة يُصنعون لا يولدون**، وقد عني الله تعالى بنبيه ﷺ، وأعده لهذه المهمة الكبيرة بشق صدره، وغسله بماء زمزم، وحشو لغاديده، وإخراج حظ الشيطان، ويمكن أن يتعرّف على الكبار والعناية بهم في سن مبكرة.

❁ ❁ ❁

(١) القصة حسنها الترمذي، وصححها الحاكم.

الفصل الثاني

أسماؤه ﷺ

أولاً ـ تعددت أسماء نبينا ﷺ:

وقد قال ابن القيّم رحمه الله: «وكلها نعوت ليست أعلاماً محضة لمجرد التعريف، بل أسماء مشتقة من صفات قائمة به توجب له المدح والكمال». اهـ.

فمنها: محمد، وأحمد، والماحي الذي يمحو الله به الكفر، والحاشر الذي يُحشر الناس على قدميه، والعاقب الذي ليس بعده نبي.

ومن أسمائه كذلك: الرؤوف، والرحيم، ونبي التوبة، ونبي الرحمة، ونبي الملحمة، والفاتح، والأمين.

ومنها: الشاهد، والمبشِّر، والبشير، والنذير، والقاسم، والضَّحوك، والقتّال، وعبد الله، والسراج المنير، وسيد ولد آدم، وصاحب لواء الحمد، وصاحب المقام المحمود.

وأسماؤه ﷺ على نوعين:

النوع الأول: خاص لا يشاركه فيه غيره من الرسل: كمحمد، وأحمد، والعاقب، والحاشر، والمقفّي، ونبي الملحمة.

النوع الثاني: ما يشاركه في معناه غيره من الرسل، ولكن له منه كماله؛ فهو مختص بكماله دون أصله: كرسول الله، ونبيه، وعبده، والشاهد، والمبشر، والنذير، ونبي الرحمة، ونبي التوبة.

ثانياً ـ معاني أسمائه ﷺ:

وهذه الأسماء لها معانٍ معلومة:

فأما **أحمد**: فمعناه: أحمد الناس لربه على قول، وعلى قول آخر: أحق الناس وأولاهم بأن يُحمد ﷺ؛ فيكون **كمحمد** في هذا المعنى؛ إلا أن الفرق بينهما: أن محمداً كثير الخصال التي يُحمد عليها، وأحمد هو الذي يُحمد أفضل مما يُحْمد غيره، فمحمد في الكثرة والكمية، وأحمد في الصفة والكيفية. قاله ابن القيّم رَحِمَهُ الله.

والمتوكل: ظاهر لا يحتاج إلى بيان؛ فهو عليه الصلاة والسلام أصدق المتوكلين على ربه.

والماحي: الذي محا الله تعالى به الكفر، فما محي الكفر ما محي بنبي الله ﷺ.

والحاشر: الذي يُحشر الناس على قدميه.

والعاقب: الذي جاء عقب الأنبياء.

والمقفّي: كذلك، وهو الذي قفّى على آثار من تقدَّمه.

ونبي التوبة: أي الذي فتح الله به باب التوبة على أهل الأرض.

ونبي الملحمة: أي الذي بُعث بجهاد أعداء الله تعالى.

ونبي الرحمة: عَلَمٌ لا تحتاج إلى بيان.

والضَّحوك القتَّال: أي هو ضحوك في وجوه المؤمنين، وقتّال لأعداء الله تعالى لا تأخذه فيهم لومة لائم.

وكنيته ﷺ: أبو القاسم.

ثالثاً ـ الأسماء دلائل على الأرواح:

قد علمت أن الأسماء دلائل على الأرواح، فهذه الأسماء تراها دلائل على ما كان عليه محمد ﷺ من أخبار محمودة، وغايات رفيعة، أراد الله تعالى أن يتحلّى بها نبيه ﷺ لتكون نبراساً لغيره، وعلامات يهتدي بها الكرام في أثره، وقد علمت في شرع الله تعالى أن الواجب على الوالد أن يرعى مثل هذه الحقوق في حق ابنه، وأن يُحسن اسمه؛ فإن الأسماء دلائل على الأرواح. والله المستعان.





الفصل الثالث

نسبه ﷺ

أولاً ـ النسب الأصيل:

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وهذا القدر من النسب متفق عليه بين العلماء، وما زاد عن ذلك فمختلف فيه.

ولد ﷺ كريم المعدن، أصيل النسب، نبيل الصفات، من جذور غائرة في أعماق الأرض أصالة ورفعة، قال ﷺ عن نفسه: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»(١). . وقال ﷺ: «**بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً، حتى كنت من القرن الذي كنت فيه**»(٢).

ثانياً ـ الحياة الكريمة من صنع الرجال:

إن أصالة النسب، وجذور عروقه مهما بلغت في الأرض لا تصنع للرجال تاريخاً، ولا تخلّد لهم ذكراً، ولا تكتب منهم عمالقة على عالم الأرض، وإنما تبقى الحياة الكريمة من صنع أيديهم بعد توفيق الله تعالى

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

لهم. . لكن الله تعالى حين بعث نبيه بعثه في أمة قامت على العصبيات القبلية، وتنازع النسب، وتفاخر الأحساب، ومثل هذه الأمة لا يصلح فيها داعية ما لم يكن على أصالة في النسب يعرفونه، فيقرُّون له بذلك، وهذه بعض مقومات النجاح التي أرادها الله تعالى لنبيه ﷺ على وجه الأرض.

إن القبيلة في ذلك الماضي ظلت مصدر فخر وعون في تحقيق غايات رجالاتها عبر التاريخ، وإلى تاريخنا الحاضر ما زالت هكذا.

إن القبيلة هي التي دفعت نبي الله لوط عليه السلام أن يقول: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]، وكانت قبل ذلك مصدر قوة لخطيب الأنبياء شعيب عليه السلام حين قال له المعاندون: ﴿يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

ورسول الله محمد ﷺ عاش كذلك كريم النسب، وظلت قريش كلها تعجز أن توصل شيئاً من الأذى إليه ﷺ رغم ما يصنعه في تسفيه آلهتهم، وتقبيح أحلامهم؛ لأن أبا طالب عريق النسب في قريش كان يحميه، ويذود عنه، ويستره أن تلحق به تفاهات القوم على أرض مكة.

ولك أن تتأمّل ما بين رسول الله ﷺ بإسلامه، وبين عمه أبي طالب بكفره؛ لم تستطع عقيدة الكفر أن توهن حبال النسب فيتخلى الكافر عن قرابته، ويترك نسيبه لتنال منه أيدي القرشيين. . **والقبيلة اليوم تتنامى في أعراف القانون، ويقوم في أحيان كثيرة وجلاً لها، خائفاً منها، وعلى الدعاة أن يدركوا أنها مصدر عز ونماء وفخر، وآصرة تناصر وقوة في أيام الشدة والعُصْبَة، لكن ذلك كله وفق ما أراد الله تعالى، وتحت لواء**

شـرعـه، وهـذه وصـيـة الله تـعـالـى لـنـبـيـه ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

إن إدراك المصلحين لذلك واجب لا يُعفى منه أحد أراد لدين الله تعالى التمكين، فالعناية بهم والحرص على جمع كلمتهم، وإيصال رسالة الحق إليهم هو منهج الأنبياء والمرسلين. . والله المستعان.

❁ ❁ ❁



الفصل الرابع

صفاته ﷺ الخَلْقية

أولاً ـ جمال الخلق والصورة:

كان ﷺ أروع الناس خلْقاً، وأجملهم سيرة، وأروعهم حالاً وكمالاً، وصفاته الخلقية تبيّن لك عن شيء من ذلك، ففي حديث أنس رضي الله عنه قال: «كان ﷺ ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير، ولا بالأبيض الأمهق، ولا بالآدم، ولا بالجَعْدِ القَطِطِ، ولا بالسَّبِط، ليس في لحيته ورأسه عشرون شعرة بيضاء»(١).

وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «كان ﷺ رجلاً مربوعاً، بُعيْد ما بين المنكبين، عظيم الجُمّة إلى شحمة أذنيه»(٢).

وكان ﷺ يسدل شعره، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم، وإنما كان يسدل شعره موافقة لأهل الكتاب فإنهم كانوا يسدلون، فإن متابعة أهل الكتاب أولى من متابعة غيرهم، ثم بعد ذلك فرق رأسه ﷺ(٣).

وكان يرجّل رأسه ﷺ، تقول زوجه عائشة رضي الله عنها: «كنت أرجّل رأس رسول الله ﷺ وأنا حائض، وكان يحب التيمّن في تنعُّله، وترجُّله، وطهره، وفي شأنه كله»(٤).

---

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

(٤) متفق عليه.

وقد ورد في حديث ابن مغفّل قال: «نهى ﷺ عن الترجّل إلا غبّاً»[١].

وفي حديث أنس رضي الله عنه قال: «ما عددت في رأس رسول الله ﷺ ولحيته إلا أربع عشرة شعرة بيضاء»[٢].

وقد سئل جابر بن سمرة رضي الله عنه عن شيب النبي ﷺ، فقال: «كان إذا دهن رأسه لم يُر منه شيب، وإذا لم يدهن رؤي منه شيء».

وفي رواية: «لم يكن في رأس رسول الله ﷺ شيب إلا شعرات في مفرق رأسه إذا ادهن، وأراهن بالدهن»[٣].

وقد سئل أنس بن مالك رضي الله عنه: هل خضب رسول الله ﷺ؟ قال: «لم يبلغ ذلك، إنما كان شيئاً في صدغيه، ولكن أبا بكر رضي الله عنه خضب بالحناء والكَتَم».

وفي حديث أنس رضي الله عنه قال: «رأيت شعر رسول الله ﷺ مخضوباً»[٤].

وفي حديث عبد الله بن محمد بن عقيل قال: «رأيت شعر رسول الله ﷺ عند أنس بن مالك مخضوباً»[٥].

---

(١) رواه أبو داود والنسائي، وصححه الألباني، ووجه الجمع كما تعلم أن النهي محمول على المبالغة في ذلك؛ لحديث نهي النبي ﷺ عن كثير من الإرفاه.

(٢) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني، وعند البخاري في الفضائل عن أنس: ليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه الترمذي، وصححه الألباني.

(٥) رواه الترمذي، وحسّنه الألباني.

وقد جاء في أحاديث أخر أن رسول الله ﷺ لم يخضب قط، وإنما كان البياض في مقدم لحيته في العنفقة قليلاً، وفي الرأس نبذة يسيرة لا تكاد تُرى(١).

والجمع بين هذه الأحاديث في مسألة خضابه ﷺ ما قاله النووي: والمختار أنه ﷺ خضب في وقت، دلَّ عليه حديث ابن عمر رضي الله عنهما في الصحيحين، وتركه في معظم الأوقات، فأخبر كلٌّ بما رأى وهو صادق، والله أعلم. اهـ.

ولم يأتِ في حديث صحيح: أن النبي ﷺ كان يكتحل، وإنما جاءت الوصية بالكحل في قوله ﷺ: «**اكتحلوا بالإثمد، فإنه يجلو البصر ويُنبت الشعر**»(٢).

ومن صفاته ﷺ ما ورد في حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «كان ﷺ شَثن الكفين والقدمين ـ أي: غليظ أصابع الراحة ـ، ضخم الرأس، ضخم الكراديس ـ أي: رؤوس الأصابع ـ، طويل المسربة ـ أي: الشعر الذي يبدأ من الصدر وينتهي بالسرّة».

وفي حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه: «كان ﷺ: أشكل العين ـ أي: طويل شق العين ـ، منهوس العقب ـ أي: قليل لحم العقب»(٣).

وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه: أن وجهه ﷺ كالقمر(٤).

---

(١) رواه أحمد، وصححه الحافظ ابن حجر.

(٢) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني: **والإثمد**: حجر الكحل الأسود المعروف عند الناس.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه البخاري.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ أبيض، كأنما صيغ من فضة»[١].

وفي حديث أبي الطفيل رضي الله عنه قال: «كان أبيض، مليحاً مقصّداً»[٢].

ثانياً ـ خاتم النبوة:

وقد ورد في وصف خاتمه حديث السائب بن يزيد رضي الله عنه قال: «فقمت خلف ظهر النبي ﷺ فنظرت إلى الخاتم بين كتفيه، فإذا هو مثل زرّ الحجلة»[٣].

وحديث جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: «رأيت الخاتم بين كتفي رسول الله ﷺ غُدّة حمراء مثل بيضة الحمامة»[٤].

وفي حديث عمرو بن أخطب الأنصاري رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا أبا يزيد، ادنُ مني فامسح ظهري**» فمسحت ظهره، فوقعت أصابعي على الخاتم، قلت: وما الخاتم؟ قال: شعرات مجتمعات[٥].

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في حديثه عن الخاتم، قال: «كان في ظهره بَضْعة ناشزة»[٦].

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني.

(٢) رواه مسلم.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه الترمذي، وصححه الألباني.

(٦) رواه الترمذي، وجوّد إسناده الألباني، أي: كقطعة اللحم الظاهرة.

وفي حديث عبد الله بن سرجس ﷺ قال: «فرأيت موضع الخاتم على كتفيه مثل الجُمْع، حولها خيلان كأنها ثآليل»[(١)].

ثالثاً ـ الكمال البشري:

هذه صفات نبيك ﷺ، أفضل صفات ظهرت على مخلوق، **والعظماء لا ينبلون بجمالهم، وتناسق صفاتهم، ولكن بآثارهم، وجميل فعالهم، والدهماء من الناس هم الذين يلوون عنقاً للجمال والزينة الظاهرة، ناسين أو متناسين صفات الرجال الحقيقية على وجه الأرض.. غير أن الله تعالى أراد لنبيه ﷺ الكمال البشري فزيَّنه بهذه الحلل، واعتنى به في مثل هذه الخصال**، والله المستعان..



(١) رواه مسلم.



الفصل الخامس

الدوحة النبوية المباركة

أولاً ـ أمهاته وحواضنه ﷺ:

● **أمه**: آمنة بنت وهب، وقد توفيت بالأبواء وعمره ﷺ ست سنوات.

● **أمهاته من الرضاعة**: ثويبة مولاة أبي لهب، وحليمة السعدية.

● **حواضنه**: أم أيمن، وبَرَكة الحبشية.

ثانياً ـ زوجاته وسراريه ﷺ:

● قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«**أولى زوجاته ﷺ: خديجة بنت خويلد** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، تزوجها قبل النبوة، ولها أربعون سنة، ولم يتزوّج عليها حتى ماتت، وأولاده كُلّهم منها إلا إبراهيم، وهي المرأة التي وقفت عَضُداً في مؤازرة نبي الله ﷺ، ماتت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قبل الهجرة بثلاث سنين.

ثم تزوّج بعد موتها بأيام **سودة بنت زمعة القرشية**، وهي التي وهبت يومها لعائشة حين أراد طلاقها رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

ثم تزوج بعدها **بعائشة الصديقة بنت الصديق** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، أحب زوجاته إليه، وأسكنهن إلى قلبه، وأعلمهن بالسنَّة، وهي التي عرضها الملَك قبل نكاحها في سَرَقَة من حرير وقال: هذه زوجتك.. تزوج بها ﷺ وهي بنت

ست سنين، وبنى بها في السنة الأولى من الهجرة وعمرها تسع سنين، ولم يتزوّج بكراً غيرها، وما نزل عليه الوحي في لحاف امرأة غيرها، وكانت أحب الخلق إلى قلبه، ونزل عُذرها من السماء، واتفقت الأمة على كفر قاذفها، وهي أفقه نسائه وأعلمهن، بل أفقه نساء الأمة وأعلمهن على الإطلاق، وكان الأكابر من أصحاب النبي ﷺ يرجعون إلى قولها ويستفتونها.

ثم تزوّج **حفصة بنت عمر بن الخطاب** رضي الله عنها.

ثم تزوّج **زينب بنت خزيمة بن الحارث القيسية** من بني هلال بن عامر، وتوفيت عنده بعد ضمه لها بشهرين.

ثم تزوّج **أم سلمة هند بنت أبي أمية القرشية المخزومية**، وهي آخر نسائه موتاً.

ثم تزوّج **زينب بنت جحش** رضي الله عنها؛ وفيها نزل قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وكانت تفتخر بذلك على بقية النساء وتقول: «زوّجكن أهاليكن، وزوّجني الله من فوق سبع سموات». وتوفيت في أول خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكانت أولاً عند زيد بن حارثة رضي الله عنه، فلما طلقها زيد زوّجه الله تعالى إياها.

وتزوّج **جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار المصطلقية** رضي الله عنها، وكانت من سبايا بني المصطلق، فجاءته تستعين به على كتابتها، فأدَّى عنها كتابتها وتزوجها.

ثم تزوّج **أم حبيبة** رضي الله عنها، واسمها **رملة بنت أبي سفيان**، وقيل: اسمها هند، وتزوّجها وهي ببلاد الحبشة مهاجرة، وأصدقها عنه النجاشي أربعمئة دينار، وسيقت إليه من هناك، وماتت في أيام أخيها معاوية.

وتزوّج ﷺ **صفية بنت حُيي بن أخطب** رضي الله عنها، وكانت من أجمل نساء العالمين، وكانت قد صارت له من السبي فأعتقها، وجعل عتقها صداقها.

ثم تزوّج **ميمونة بنت الحارث الهلالية** رضي الله عنها؛ وهي آخر من تزوّج بها في عمرة القضاء بعد أن حلَّ من عمرته.

فهذه إحدى عشرة امرأة تزوّج بها نبي الهدى ﷺ، وأربع إلى خمس هن من خطبهن النبي ﷺ أو وهبت نفسها له ولم يتزوجهن.

ولا خلاف بين أهل العلم رحمهم الله تعالى أنه توفي عن تسع منهن، وكان يقسم لثمانٍ، وأول نسائه لحوقاً به بعد وفاته ﷺ: زينب بنت جحش سنة عشرين، وآخرهن موتاً أم سلمة سنة اثنتين وستين في خلافة يزيد». اهـ.

وأنت تعلم ـ لا حرمك الله التوفيق ـ: أن الزواج سنَّة من سنن الله تعالى في الأرض؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨]، وهذا هو الأصل المطّرد في حياة الصالحين، والتنسّك بترك الزواج بدعة مكروهة دخيلة على الإسلام، بعيدة عن معانيه وأسراره، وكم من زوجة كتب الله تعالى بها نصراً للإسلام وأهله، وعوناً على تبليغ رسالة الله تعالى في الأرض.

● لقد كانت **خديجة** زوج رسول الله ﷺ سبباً عظيماً في نجاح هذه الرسالة، ولك أن تتخيّل حين ولج عليها البيت خائفاً وجلاً من آثار الملَك الذي نزل عليه لأول وهلة في غار حراء؛ حين قالت: «**كلا، والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق**».. ولم تقف عند هذا الحد،

بل ذهبت تطوف به على آثار السابقين من أمثال ورقة بن نوفل وغيره من الصالحين. . وكانت عوناً لزوجها بمالها، ومكانتها، وكرامتها عند قومها، فهي أحد أسباب النصر والنجاح والتوفيق التي رافقت نبينا ﷺ في بدايات الدعوة الخالدة المباركة.

● **وعائشة** نموذج آخر على آثار الصالحات في تحقيق مراد الله تعالى في الأرض، لقد كانت رضي الله عنها نموذجاً لسكن زوجها ﷺ إليها، والبيوت الآمنة المطمئنة تحلّق بالرجال في سماء الناجحين. والله المستعان!. .

● وكذلك **أم سلمة** لو لم يكن لها إلا نصحها ومشورتها يوم الحديبية لكان كافياً في استجلاب صحبة مثل هؤلاء النساء رضي الله تعالى عنهن أجمعين.

وقبل ذلك وبعده كم هي السنن التي حُفظت للأمة عن طريقهن؟! وكم هي الآثار والأخبار التي هي نماذج حية، وشواهد مضيئة على آثارهن في الأرض؟!. .

الزواج راحة، وطمأنينة، وسكن، وإذا وفّق الزوج للزواج من صالحة تقية فلا تسأل عن آثار النجاح في حياة هؤلاء الرجال.

والناعقون اليوم على نبينا ﷺ بالشهوة في كثرة من ارتبط بهن ﷺ هم أحوج إلى حفنات من تراب تملأ أفواههم، ويكفي في الرد على هؤلاء الأقزام: أنه ﷺ لم يتزوّج بكراً غير عائشة، وسائرهن ثيبات كان زواجهن لحِكَم باهرة، وغايات عظيمة، وهذا هو اللائق بحياة الأنبياء. والله المستعان. .

● وكان له ﷺ أربع سراري: **مارية** وهي أم ولده إبراهيم،

وريحانة، **وجارية** أصابها في بعض السبي، **وجارية** أخرى وهبتها له زينب بنت جحش.

فهل يدرك القدوات والمصلحون آثار اختيار الصالحات وتقديمهن على غيرهن؟ كيف لا! وهن وصية رسول الله ﷺ: «... **فاظفر بذات الدين تربت يداك**»(١).

إن الشرع لم يرفض الصفات التي تدعو لزواج المرأة من الجمال والمال والحسب والنسب... كلا! وإنما رفض التعلّق بهذه الصفات وتقديمها على غيرها.

وإنني أحذِّر في هذا المقام ضرورةً من شيوع تفضيل صفة الجمال على بقية الصفات؛ ليس لدى عامة الناس، ولكن لدى الدعاة والمصلحين والقدوات، وقد ولّدت هذه النظرة أمراضاً خطيرة في صفوف المصلحين من الوهن والضعف والركون إلى الدنيا، وبات بعض من اللامعين في صفوف الدعوة في مؤخرة الركب بعد أن كانوا قوّاده وربّانه.. والله المستعان..

ثالثاً ـ أولاده ﷺ:

أول أولاده ﷺ: **زينب** رضي الله عنها.

ثم **القاسم**، وبه كان يكنّى، مات طفلاً، وقيل: عاش إلى أن ركب الدابة..

ثم **رُقيَّة**، **وأم كلثوم**، **وفاطمة**، **وعبد الله**؛ وهؤلاء الأولاد كلهم من خديجة ولم يولد له من زوجة غيرها.

---

(١) رواه البخاري.

ثم ولد له **إبراهيم** بالمدينة من سريّته مارية القبطية سنة ثمانٍ من الهجرة، ومات طفلاً قبل الفطام.

رابعاً ـ أعمامه وعماته ﷺ:

١ ـ **أعمامه: حمزة** بن عبد المطلب، أسد الله تعالى، وأسد رسوله ﷺ، **والعبّاس، وأبو طالب**، واسمه: عبد مناف، **وأبو لهب**، واسمه عبد العزّى، وآخرون.

٢ ـ **وعماته: صفية** أم الزبير بن العوام، **وعاتكة، وبرَّة، وأروى، وأميمة، وأم حكيم** البيضاء، أسلم منهن: صفية، واختلف في إسلام عاتكة وأروى.

ولم يسجّل لنا التاريخ في أعمام النبي ﷺ سوى أربعة ذاع صيتهم، وظهر أثرهم، وغيرهم محاه الزمان بتطاول العهد، وهكذا هو التاريخ: **من لا يحمل نفسه على الركض يضيع في جنبات الطريق**..

أول هؤلاء الأربعة: **حمزة** البطل المغوار، والقائد الشجاع، ما وسع النبي ﷺ لما رآه مجندلاً في أُحد إلا أن ذرف الدمع عليه، ولما سمع بكاء نساء قريش على أقربائهن قال: «**أما حمزة فلا بواكي له**»، والتاريخ لا يتجاهل العظماء البتة، بل يكتب آثارهم، ويدوّن حياتهم، ويحتفل بأسرارهم.

والآخر **العباس** ويكفيه شرف الإسلام معنى ورفعة.

وآخران على رايات الكفر، أما **أبو طالب**: فنازع من أجل نبينا ﷺ، وتحمّل في سبيل ذلك ملامة قريش، وأبى أن يتخلى عن أواصر القرابة والنسب، وظل هكذا حتى فارق الحياة!.

وأما الثاني: **أبو لهب**: فشرق بالدعوة، وغصَّ بها، وظل يناضل من أجل صدها عن طريقها، ولعل زوجه أم جميل لعبت دوراً كبيراً في أزِّه على ذلك العداء.. وكلٌّ رحل..

أما حمزة فذكره تراث تتناقله الأجيال في مثل أزماننا، ومثله العباس يمر ذكره عبر سير الصالحين، وأما أبو طالب فضحضاح النار التي أخبر بها النبي ﷺ لا زالت على كل لسان، وأما أبو لهب فذهب نموذجاً من نماذج الخاسرين على ظهر هذه الأرض، والله المستعان.

خامساً ـ مَواليه ﷺ:

منهم **زيد بن حارثة**؛ حبه ﷺ، أعتقه، **وأسلم**، **وأبو رافع**، **وثوبان**، **ويسار**، وهو قتيل العُرنيين، **ومِدْعَم** أهداه للنبي ﷺ رفاعة بن زيد، وهو الذي غل الشملة يوم خيبر، وقال نبي الله ﷺ: «**إنها لتلتهب عليه ناراً**»، **وكِرْكِرَة**، وكان على عياله ومتاع السفر، وهو الذي غل العباءة كذلك يوم خيبر فقال ﷺ: «**هو في النار**».

ومن مواليه: **أنجشة** الحادي، **وسَفينة** بن فروخ، واسمه مهران، وإنما سماه رسول الله ﷺ سفينة لأنهم كانوا يحمِّلونه في السفر متاعهم، فقال: «**أنت سفينة**».. أعتقته أم سلمة رضي الله عنها.

وأنت ترى في سيرة هؤلاء من سكت عنه التاريخ، ويكفيه شرفاً ذكر اسمه في صحبة نبي الله تعالى، ومنهم من لم ينتفع بملازمة رسول الله ﷺ فصار حطباً لنار جهنّم في خطايا الغلول.

وأنا تركت جموعاً من هؤلاء لم أر مصلحة في تعليقهم بسيرة هذا العظيم، وهؤلاء لولا البيان العام لما ذكرت أحداً منهم. والله المستعان.

سادساً ـ خدّامه ﷺ:

خدمة نبي الله تعالى شرف يتهيأ لها كل صالح، وتشرئب إليها عقول المفلحين، وكيف لا، وهم في صحبة أعظم نبي على وجه الأرض؟!..

تنوّعت خدمة هؤلاء لرسولهم ﷺ، **فأنس بن مالك** كان على حوائجه، و**عبد الله بن مسعود** صاحب نعله وسواكه، و**عُقبة بن عامر** الجهني صاحب بغلته يقود به في الأسفار، و**أسلع بن شُريك** صاحب راحلته، و**بلال بن رباح** المؤذّن، و**سعد**، موليا أبي بكر، و**أبو ذر الغفاري**، و**أيمن بن عبيد**، وأمه **أم أيمن**، وكان أيمن على مطهرته وحاجته.

خدمة المصلحين شرف لكل عاقل، وهي جزء من الأدب الذي تمثله أرواح الصادقين المقبلين على شرف العلم والعلماء... لقد كان الصحابة يتشوّفون إلى خدمة نبيهم ﷺ، ويجهدون في سبيل ذلك جهداً عظيماً بما يدلُّك على عظيم شوقهم ومحبتهم له ﷺ، وفي ذلك المنهج أسوة لكل من أراد أن يتشبه بهم.. فالعلماء ورثة الأنبياء وتقديرهم وخدمتهم من الشرف ما يتمثله كل عاقل. والله المستعان.

وقد كان نبيك ﷺ مثلاً لمعاني العطف والرحمة مع هؤلاء، ألم يتحدّث **أنس بن مالك** رضي الله عنه عن آثار هذه الخدمة؛ فقال: «خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط، ولا قال لي لشيء صنعتُه: لِمَ صنعتَهُ؟ ولا لشيء تركتُهُ: لِمَ تركتَهُ؟»(١).

وهذا **ربيعة بن كعب الأسلمي** رضي الله عنه قال: «كنت أبيت مع رسول الله ﷺ، فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: **سلني**، فقلت: أسألك

---

(١) رواه الترمذي في الشمائل.

مرافقتك في الجنة، قال: **أو غير ذلك؟** قلت: هو ذاك، قال: **فأعنِّي على نفسك بكثرة السجود**»[١].

وأنت ترى في هذين المثالين فقط ما يجعلك تقف حائراً أمام هذا النموذج العظيم؛ عشر سنوات بأيامها ولياليها، وساعاتها ودقائقها، وظروفها وملابساتها كلها لم تغيّر خُلقاً، ولم تستطع مع طولها في خلق أحداث خارجة عن هذا السمو الاجتماعي الرائع في حياة رسول الله ﷺ. . إن هؤلاء بشر مثلهم مثل غيرهم يصيبون ويخطئون، يفرحون ويحزنون، يضحكون ويبكون، ومع ذلك لم يحفظ لنا أنس رضي الله عنه موقفاً واحداً تعرّض فيه هذا النموذج للخطأ البتة، وهل هذه إلا أخلاق الكبار بحق؟! . .

وربيعة هو الآخر يدقّق لنا تعبيره في أسرار هذه العظمة؛ فيقول: فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال: «**سلني!**» حتى تعرف وأنت تقرأ هذه القصص الاجتماعية في حياة نبيك ﷺ أنه أوتي جوامع الأخلاق كما أوتي جوامع الكَلِم. . تأمل هذه الكلمة: «**سلني**»، وتأمل متى طرحها نبيك ﷺ على ربيعة؟! حتى تعلم أن الكرماء أعز رجال في تاريخ أمتهم، وأن القادة بعضٌ من آثار الأنبياء. . «**سلني**» كلمة تأتي على الجراح فتطيب، وتغوص في الأعماق فتكتب مآثر الحب والامتنان.

وتأمل حين سأله تلك الأمنية العظيمة كيف كان جواب نبيك ﷺ: «**فأعنِّي على نفسك بكثرة السجود**»؛ فللَّه درُّ القادة ماذا يكتبون في التاريخ من مآثر؟! حقق لخادمه الفرحة، وسلَّ على تعبه روح المودة، وحرص على مكافأته بأحب ما يريد، ومع كل ذلك علّقه بعمل، وشحذ همَّته لبلوغه، وتحققت له آثار الدعوة في ظل أخلاق لا يحسنها إلا الكبار. .

---

(١) متفق عليه.

فيا ليت شعري من يستطيع وصف هذه المقامات؟! ومن يهتدي بآثارها فيكتب في امتثالها أروع قصص الاقتداء؟!.

سابعاً ـ كُتَّابه ﷺ:

هم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والزبير، وعامر بن فُهيرة، وعمرو بن العاص، وأبيّ بن كعب، وعبد الله بن الأرقم، وثابت بن قيس بن شماس، وحنظلة بن الربيع، والمغيرة بن شُعبة، وعبد الله بن رواحة، وخالد بن الوليد، وخالد بن سعيد بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان، وزيد بن ثابت وكان ألزمهم لهذا الشأن وأخصَّهم به.

ثامناً ـ مؤذِّنوه ﷺ:

وكانوا أربعة: اثنان **بالمدينة**؛ وهما: **بلال بن رباح**، وهو أول من أذّن لرسول الله ﷺ، **وعبد الله بن أم مكتوم** القرشي العامري الأعمى، **وبقباء**: **سعد القرظ** مولى عمّار بن ياسر، **وبمكة**: **أبو محذورة**؛ واسمه: أوس بن مغيرة الجُمحي، وكان أبو محذورة يرجّع في الأذان ـ والترجيع: هو أن يقول الشهادتين مرتين؛ مرة بصوت منخفض، ومرة بصوت مرتفع ـ ويثنّي الإقامة فيجعلها كأذان بلال، وبلال لا يرجّع ويفرد الإقامة، وهي سنّة اندثرت أو كادت!..

تاسعاً ـ أمراؤه ﷺ:

كان له ﷺ عشرة أمراء؛ منهم من أمّره على مدن كاليمن، ومكة.. ومنهم أمراء على الحج، ونحو ذلك.

عاشراً ـ حرسُه ﷺ:

منهم: **سعد بن معاذ** رضي الله عنه: حرسَه يوم بدر حين نام في العريش.

ومحمد بن مسلمة: حرسَه يوم أُحد.

والزبير بن العوام: حرسَه يوم الخندق.

وعبَّاد بن بشر: وهو الذي كان على حرسه.

وحرسَه جماعة آخرون غير هؤلاء، فلما نزل قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧] خرج على الناس فأخبرهم بها وصرف الحرس.

حادي عشر ـ من كان يضرب الأعناق بين يديه ﷺ:

هم: علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، ومحمد بن مسلمة، وعاصم بن ثابت، والضحاك بن سفيان.

وكان قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري منه ﷺ بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير.

ووقف المغيرة بن شُعبة على رأسه بالسيف يوم الحديبية.

ثاني عشر ـ من كان على بعض شؤونه ﷺ:

كان بلال على نفقاته، ومعيقيب بن أبي فاطمة الدوسي على خاتمه، وابن مسعود على سواكه ونعله.

ثالث عشر ـ شعراؤه وخطباؤه ﷺ:

كان من شعرائه الذين يذبُّون عن الإسلام: كعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وحسّان بن ثابت وكان أشدَّهم على الكفار.

وكان خطيبه: ثابت بن قيس بن شمّاس.

رابع عشر ـ حُداته ﷺ:

منهم: عبد الله بن رواحة، وأنجشة، وعامر بن الأكوع، وسلمة بن الأكوع.

خامس عشر ـ سلاحه وأثاثه ﷺ:

كان له ﷺ: تسعة أسياف، وكان له سبعة أدرع، وخمسة رماح، وكان له مِغْفَر من حديد، وكانت له ثلاث جِباب يلبسها في الحرب، وكانت له راية سوداء، وكان له فسطاط، ومِحجن قدر ذراع، وكان له أقداح وأوانٍ لبعض حاجته، وصاع، ومد، وقطيفة، وسرير، وفراش من أدَم حشوه ليف.

وهذه كلها التي ذكرت كانت بأسمائها أعلام معروفة عنده ﷺ، فكان لا يتخذ شيئاً إلا أسماه.

سادس عشر ـ دوابُّه ﷺ:

قال ابن القيّم رحمه الله: «كان له ﷺ سبعة من الخيل، وخمسة من البغال، وثلاثة من الحمير، ومن الإبل: **القصواء** وهي التي هاجر عليها، **والعضباء**، **والجدعاء**(١)، وكانت له خمس وأربعون لِقْحَة(٢)، وكانت له مئة شاة، وكان لا يريد أن تزيد، كلما ولّد له الراعي بهمة ذبح مكانها شاة». اهـ.

لا يعرف التاريخ إلى اليوم قادة يعرفون بمركوباتهم، وإنما بقيت

---

(١) قال صاحب (تاج العروس): هذه ناقة رسول الله ﷺ، ولم تكن عضباء ولا جدعاء ولا قصواء، وإنما هنّ ألقاب لهنّ كما ذكر ذلك أصحاب السير.

(٢) هي الناقة ذات اللبن.

هذه الأخبار ساطعة في حياة نبينا ﷺ؛ **لأنه تاريخ يختلف عن كل الكبار على ظهر الأرض**، لقد ركب النبي ﷺ البغل، والحمار، والإبل، وهذا هو مركوب صحابته رضوان الله تعالى عليهم.. وأوسام القادة نماذج من القيم لا تعترف بالمظاهر، ولا تتمايز بها بين الناس. والله المستعان..

❀ ❀ ❀



الفصل السادس

ما قبل الوحي

أولاً ـ الرؤيا الصادقة:

تعرّض رسول الله ﷺ قبل مبعثه إلى جملة من إرهاصات النبوة، منها: ما قاله ﷺ: «**إني لأعرف حَجراً بمكة كان يسلّم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن**»[١].

ومن هذه الإرهاصات: **الرؤيا الصادقة**؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وهي أول ما بُدي به من الوحي[٢].

ثانياً ـ العزلة:

وحُبّب إليه ﷺ **العزلة**؛ فكان يعتزل في غار حراء، فيمكث فيه الليالي ذوات العدد؛ حتى فجَأه الحق وهو في ذلك الغار[٣].. وقد ورد تقدير ذلك التحنّث بشهر، وليس هناك نص صريح في ما كان يحدث في هذا التحنّث، غير أنَّ من المجزوم به أن تلك الوثنية التي عاش رسول الله ﷺ في جنباتها كان كيرها يؤذيه أشد الأذية، ويخزُّ ضميره بشيء من معاني الأسى على أمة ضائعة ليس لها منهج!..

لقد عاش النبي ﷺ في تلك الفترة وهو يتأمّل تلك الأمة التي

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

تتنازعها الأهواء، ويشاهد تلك الأحوال التي اجتالتها الشياطين فرحلت بها عن عالم الفطرة، وأركستها في تيه الظلمات!.. لذا كان حتماً على نبي الله ﷺ وهو يعيش فطرة الله تعالى في قلبه أن يرحل يستلهم عِبَرَ الكون، ويستلَّ قلبه من عالم الكفر والضلال..

إن القلوب لا تنزل عليها الرحمة في الغالب الأعم ما لم تَسْجُد كثيراً في أوقات الخلوة! والإيمان لا يجد طريقه للقلوب حتى تخلو بربها، وتتعبّد له، وتخرَّ بين يديه لا تسأل غيره، وحين تتهيأ بمثل هذه الدرجة من الذلِّ والرقة تتنزّل عليها رحمات الله تعالى!.. إن مجتمع الوثنية لا يمكن أن يعين قلباً على تدبّر أو يساعد عيناً على دمعة!.. لذا ولّى النبي ﷺ ظهره تلك الجموع إلى غار حراء.

إن الخلوات هي الفجاج الواسعة إلى عالم العبادة الربَّانية، والسكينة الأخلاقية.. ولما أن تهيّأ النبي ﷺ بهذه الخلوات، وتزيّن تماماً بآثار العبادة؛ جاءت الهبة الربَّانية في ذلك المكان، ونزل جبريل وهو يحمل أعظم رسالة هتف بها نبي على وجه الأرض، ولك أن تتصوّر تلك اللحظة التي نزل فيها جبريل إلى الأرض ليبلّغ هذه الرسالة إلى أعظم نبي على وجه الأرض، وكم ترتّب على هذه الرسالة من آثار ربانية لا يدرك آثارها الحقيقية إلا من قرأ تلك الحُقبة من الزمن، وعاش في رحابها حقيقة!..

وإنني أقول: لم ينزل الوحي على النبي ﷺ إلا وهو متهيِّئ تماماً، وقطرات السماء الباردة لا تثمر إلا على أرض طيبة مباركة!.. وعلى الدعاة أن يدركوا أنهم أحوج شيء إلى الخلوات، خلوات تُرَحِّل قلوبهم فيها إلى ربها تبارك وتعالى، وتسجد بين يديه ذليلة مفتقرة.

إن العيش في الكون الهائج يولّد شَعَثاً وفُرقة، والخلوة الهادئة تلم

ذلك الشَّعَث، وتُذهب بتلك الفرقة.. ونحن في أزمان ذهب كيرها إلى مسافات بعيدة وأحرق بعض جوانبها، فكيف بنا ونحن بين يديه وأقرب الناس إليه؟! فهل ندرك آثار الخلوات؟!.

وقد قال سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ: وكان اختياره ﷺ لهذه العزلة طرفاً من تدبير الله له ليعدَّه لما ينتظره من الأمر العظيم... ولا بد لأي روح يُراد لها أن تؤثّر في واقع الحياة البشرية فتحولها وجهة أخرى؛ لا بد لها من خلوة وعزلة بعض الوقت، وانقطاع عن شواغل الأرض، وضجة الحياة، وهموم الناس الصغيرة التي تشغل الحياة.. لا بد من فترة للتأمّل والتدبّر والتعامل مع الكون الكبير وحقائقه الطليقة... إن هذه الخلوة هي التي تؤهِّل الروح الكبير لما هو أكبر، وتدربه على الشعور بتكامل ذاته بدون حاجة إلى عُرف الناس والاستمداد من مصدر آخر غير هذا العرف الشائع! وهكذا دبّر الله تعالى لمحمد ﷺ وهو يعدُّه لحمل الأمانة الكبرى، وتغيير وجه الأرض، وتعديل خط التاريخ.. دبّر له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات. اهـ.

ومن أراد أن يكتب لنفسه تاريخاً شبيهاً بتاريخ نبيه ﷺ فليس له سوى هذا الطريق.. أما كيف؛ فأتركها للقارئ يحددها في ضوء سنَّة نبيه ﷺ وآثار السلف وحياة الصالحين، وحين يحسن ذلك بصدق سيجد في قلبه ما لو عرفه غيره لجالده عليه بالسيف! والله المستعان..

❀ ❀ ❀



الفصل السابع

نزول الوحي وتبليغ الرسالة

أولاً ـ في غار حراء:

نزل جبريل على نبينا ﷺ:

«قال حين نزل: اقرأ، قال: **ما أنا بقارئ**، قال: **فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ**، قال: **فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ**، قال: **فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال**: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

فرجع بها رسول الله ﷺ إلى خديجة يرجف فؤاده فقال: **زمّلوني زمّلوني**، ثم قال لخديجة: **لقد خشيت على نفسي**، فقالت خديجة رضي الله عنها: كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق في الحديث، وتحمل الكَل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

ثم انطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل وهو ابن عم خديجة؛ وكان امرأ تنصّر في الجاهلية، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: اسمع من ابن أخيك، فأخبره النبي ﷺ بما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أُنـزل على موسى، يا ليتني أكون فيها جذعاً حين

يخرجك قومك، فقال ﷺ: **أو مخرجي هم؟** فقال: نعم؛ لم يأتِ رجل قط بما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم ينشب ورقة أن توفي»[1].

إن هذا الدين عظيم، كبير على النفوس، لقد لقي النبي ﷺ منه كرباً وألماً وخوفاً، وعاد ﷺ يرجف فؤاده من آثار هذا الوحي، حتى خاف على نفسه الموت.

إن رسالة الإسلام أعظم من أن تأتي باردة؛ لأن متطلباتها كبيرة عظيمة، وعلى الدعاة أن يدركوا أنهم يحملون هذه الرسالة تبعاً لأنبيائهم، وعليهم أن يدركوا أن لها آثاراً بليغة، وتكاليف كبيرة، ولا يقوم بها إلا أتباع الأنبياء بحق، ولو لم يكن فيها إلا ما أشار إليه ورقة بن نوفل لكان كافياً في المقام: «لم يأتِ رجل قط بما جئت به إلا عودي».

إن سنَّة الله تعالى في الأرض ألّا يمكّن لدعوته فيها حتى يبتلي بها الرجال!.. ومتى أراد الدعاة ثماراً عاجلة فليقعدوا في بيوتهم ينتظرون ذلك!..

من أزمان الأنبياء كلهم لم يمكّن لهذه الدعوة إلا بعد جهود مضنية، ذبحت في الطريق لتحقيقها رقاب، وأسيلت دماء، وظل نجاحها موقوفاً على أزمان طويلة، وهذا ورقة يخبر عن ناموس الكون الذي لا يتغيّر.

صحيح أن دين الله تعالى دين الفطرة، لكنه في نفس الوقت دين يعارض الأهواء، ويخالف الشهوات، ويلوي أعناق الناس من التوافه إلى المعالي، فكان لا بد أن يُعادى ويُطارد!..

وإنني لأعجب من قول خديجة لزوجها: «كلا، والله لا يخزيك الله

(١) متفق عليه.

أبداً! إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق». . لقد قلت وما زلت أقول إلى ساعة هذه الأسطر التي أدوّنها: **الجبناء، البخلاء، الجفاة، الأغلاظ لا يمكن أن يتبؤوا مواطن الكرام النجباء! . . إن الرسالة شرف، وعز، ورفعة، لكنها لم تنزل على قلب رسول الله ﷺ مؤذنة له بهذا اللقب العظيم هكذا دون ثمن، إنه رجل رسالة، عاش الجود صفة تخالط قلبه، وتعلَّم من معاني الطاعة كيف تكون الصلة بربه، وعاش بين الناس عون الضعفاء، ودواء البؤساء المعسرين، وهذه القلوب التي تستطيع أن تحمل هموم الناس الدنيوية بسخاء تستحق أن تحمل هموم الناس الدينية بوفاء! ولا عجب؛ فقد كان ﷺ مثالاً رائعاً للقدوة الحسنة! إن أهل الفضل والمعروف في الدنيا هم أهل الفضل والمعروف في الآخرة، وقلّ أن تجد اليوم في صفوف الدعاة والمصلحين رجلاً كتب الله لسيرته صيتاً في أصقاع الأرض إلا ولديه إرثٌ من آثار الصالحين من أمثال هذه الأخلاق**. والله المستعان. .

وقع الوحي لأول وهلة وعمرُ النبي ﷺ أربعون سنة، وكان هذا النزول في يوم الإثنين. . وسنُّ الأربعين بالذات سنُّ الكمال، ولهذا تُبعث فيه الأنبياء.

وقد كان الوحي شديداً على رسول الله ﷺ حتى قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان النبي ﷺ يعاني من التنزيل شدة»[1].

وتقول عائشة رضي الله عنها: «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصَّد عرقاً»[2].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

وقال عبادة بن الصامت ﷺ: «كان نبي الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي كرب لذلك وتربّد وجهه»(١).

وأخبر زيد بن ثابت ﷺ عن هذه الشدة فقال: «فأنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذي، فثقلت عليّ حتى خفت أن ترضَّ فخذي»(٢).

وفي هذه الأخبار إشارة إلى عِظم هذه الرسالة، وعظيم شأنها، وأنه لا يحملها سوى العظماء من الناس!..

ثم فتر الوحي عنه ﷺ مدة من الزمن اختلف في تحديدها، ولا يوجد نص صريح في ذلك، فتر الوحي حتى عاد إليه مرة أخرى، يمثّل ذلك ما قاله ﷺ: «**فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالساً على كرسي بين السماء والأرض، ففرقت منه فرجعت، فقلت: زملوني زملوني**»، فدثروه فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ١ ـ ٥](٣).

ثم بُعث ﷺ لأربعين سنة(٤)، في شهر رمضان(٥)، من يوم الإثنين(٦)، وقد استغرق نزول الوحي ثلاثاً وعشرين سنة، منها ثلاثة عشر عاماً بمكة على المشهور(٧)، وعشر سنين في المدينة بالاتفاق.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

(٣) متفق عليه.

(٤) متفق عليه.

(٥) ذكره ابن هشام، وقال ابن كثير: وهو المشهور.

(٦) رواه مسلم.

(٧) رواه مسلم.

ثانياً ـ الدعوة السرية:

وقد بدأت الدعوة سرِّية أول ما بدأت بمكة، وكان أول من أسلم نتيجة لهذه الدعوة زوجه خديجة، وعلي بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق، وزيد بن حارثة، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم، ثم تلا هؤلاء جموعٌ من الناس جاء إسلامهم متتابعاً، ومتفرّقاً.

ثم أسلم من أسلم من الجن حين استمعوا إليه وهو يصلي الفجر، فرجعوا إلى قومهم فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١ ـ ٢]، فأنزل الله تعالى على نبيه سورة الجن: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾.. ولم يرَ رسول الله ﷺ في هذه المرة الجن ولم يقرأ عليهم، وإنما آذنته بهم شجرة، ثم أوحي إليه خبرهم، ثم بعد هذه الحادثة دعا رسول الله ﷺ الجن حين كان معسكراً بأصحابه خارج مكة، فذهب معهم وقرأ عليهم القرآن، ثم أرى أصحابه آثارهم وآثار نيرانهم[1].

ثم انقضت مرحلة الدعوة السرية بنزول قول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].. ولم يثبت في تحديد هذه الفترة بالزمن سند صحيح.

وفي الدعوة السرية أسرار من اتخاذ الأسباب، ودقة التنظيم للخروج بالدعوة إلى ما ينتظرها من نجاح.. إن بإمكان القائل أن يقول: الدين دين الله تعالى، والرسالة رسالته؛ فلا على رسول الله ﷺ أن يجهر بها من أول يوم!.. وهذا صحيح؛ إلا أن الكون كله قام على سنن ونواميس تحكم هذه الأرض، والأصل أن من لم يستفد من هذه السنن غمرته الأحداث، وكبّلته بالقيود، وجعلته يرزح في الأماني.

---

(١) رواه مسلم.

إنَّ الدعاة مطالبون بالوضوح، وإعلان الدعوة، والخروج بها إلى عالم واضح، لكنهم مطالبون قبل ذلك بسَنِّ الأنظمة التي تكفل نجاحها في بداية الطريق، ووضع كل ما من شأنه أن يسهم في نجاحها.

إن الدعوة رسالة، والواجب استفراغ الوسع في تبليغ هذه الرسالة تنظيماً وترتيباً وبلاغاً.

والدعوة في بداية الطريق هي أحوج ما تكون إلى رجال يتشرّبون فكرها، ويتلذذون بها، ثم إذا قويت بهم خرجت سافرة كاشفة ولا ضير عليها حينئذ، فإن أعوانها قادرون على سترها من هيشات الطائشين.. وهذا الذي وقع بالضبط في أيام الدعوة السرِّية المباركة، وكانت هذه الفترة من الدعوة السرِّية هي قاعدة الدعوة العامة كلها، وهي البناء الذي علا عليه أبناء هذه الدعوة بعد ذلك.

إنَّ الأفراد الذين تربوا في دار الأرقم بن أبي الأرقم، وفي شعاب مكة؛ هم الذين كوّنوا القاعدة العريضة في تاريخ الإسلام.. وكل أولئك الأجيال الذين يملؤون عينك اليوم هدى وفلاحاً هم نتاج محاضن تربوية، عنيت بتربيتهم، واستقامتهم، وهدايتهم، وتولَّت سقيا هذه اللقاءات أيدٍ أمينة مخلصة مباركة؛ مقتدين في ذلك بنبيهم ﷺ أيام دعوته السرِّية.

وبات اليوم هذا المنهج في قفص الاتهام، ومن يتولى تربية مجموعة من الشباب اليوم على منهج نبيهم ﷺ عرضة للنّبز، ومحلّاً للشبهة، وعنواناً على عدوان! والله المستعان.. وما يدرينا في أزماننا القادمة كيف يكون الحال؟! لكن أرجو أن ندرك أنه مع ذلك نحن قادرون على السير على نفس الطريق، وإن وجد من يشوّشه، ونحن ماضون على منهج الأنبياء وإن وجد من يعرقله، ومن اندس في الصف، ولبس لباس

الأوفياء، لينبت منهجاً مشوّشاً أو فكراً دخيلاً؛ فليس له عندنا إلا حفنات من التراب في فمه!..

لقد بلغ **التخطيط** في الدعوة السرية من المرحلة المكية غايته **في الدقة والتنظيم**، فركّز علىٰ:

١ ـ النوعية في بناء النواة الأولى للأمة المسلمة:

لقد كانت البيئة المكية آنذاك بيئة قبلية تقوم على الوجاهات والزعامات القبلية، فلا مكان فيها لمستضعف، وكان في حسِّ رسول الله ﷺ ـ وهو يُسرُّ بدعوته ـ طبيعة المجتمع الذي يعيش على قيم الجاهلية، وطبيعة رسالته التي تشترط للحياة الآمنة المطمئنة القذف بكل قيم الجاهلية دون حساب لتكاليفها أو لآثارها!.. لذلك كله توجه النبي ﷺ للبحث عن نماذج نوعية تكون فيها قابلية الانضباط والاستعداد أكثر من غيرها؛ وذلك من خلال الاتصال الفردي والدعوة الفردية التي تضمن عدم تشويش الرأي العام، وتستفيد من الظروف على طبيعتها، فكان له ﷺ ما أراد، واستطاع بذلك بناء قاعدة الدعوة الصلبة دون إثارة المجتمع أو تأجيج الصراع العاجل.

٢ ـ حاول ﷺ تفادي الصدام المبكر مع الملأ والوجهاء من قريش:

فلم يحدِّثهم برسالته، ولم يوجِّه إليهم دعوته، وراح يبني في صمت، ويؤسس قاعدة الانطلاق نحو تحقيق آمال التمكين لدين الله تعالى في الأرض، وهذا أحد أسرار التوفيق في حسِّ القائد الفذ.. إن الدعوة لا بد لها قبل الإعلان من رجال يحملون همَّها، ويعيشون آثارها.. لذا كان هذا التخطيط غاية في الدقة والتنظيم.

٣ ـ حاول ﷺ من خلال ذلك استيعاب الفئات الاجتماعية المختلفة:

إن حصر الدعوة في مكان معين أو جماعة محددة سبيل لتحجيم آثار الدعوة المنتظرة، وليس الحل في توسيع دائرة هؤلاء فحسب، وإنما في استيعاب فئات أخرى يمكن أن تساهم في تحقيق نصر الدعوة في قادم الأيام، وهذا الذي وقع بالفعل؛ فكان الداخلون في الدعوة المنظمون لقطارها من بني هاشم، ومن بني مخزوم، ومن بني جمح، ومن بني سهم، ومن بني سلمة، ومن بني عدي، ومن بني زهرة، ومن بني تيم، ومن بني عامر، ومن بني أسد، وآخرين، وكان من بين هؤلاء وجهاء من قريش، ورجال ونساء، وتحقق من خلال ذلك تنوّع بيئات وقبائل المقبلين على الدعوة، وهذا البعد والاستيعاب كفيل جدّاً بقيام الدعوة برسالتها على الوجه الأكمل(١).

وبهذه الدقة من التخطيط تحققت آثار الدعوة السرِّية تخطيطاً وتنظيماً، فكانت هذا النجاحات نتيجة طبيعية لما تحقق للدعوة بعد ذلك.

أما المنهج الذي كانت تلقاه تلك الفئة وتتربى عليه **فهو القرآن الكريم**، وحي السماء، الكتاب الذي أراد الله تعالى أن يكون نوراً وهدى لهذه الأمة.. كان أولئك الأفراد يعيشون على توجيهاته وينهلون من آثاره حتى كتب الله تعالى لهم علو الدارين.. وليس للأمة اليوم طريقٌ سواه إن أرادت أن تسير على الطريق بنفس القوة لتصل إلى نفس النتائج. والله المستعان..

إن حِلَق العلم اليوم سواء كانت عامة أو خاصة؛ هي بحاجة إلى أن تشرب من المعين الذي شرب منه أفذاذ الدعوة ورجالها يوم أمس ثم كان

---

(١) راجع: منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة، للطيب برغوث.

لهم ما كان.. ولن تموت أمة زادها القرآن.. وعلينا أن ندرك أن هذا القرآن هو الزاد الذي بوأ الأمة ناصية الأحداث، ولن يكون غيره ذلك الذي يعيد تلك الأماكن المفقودة.

لقد كان هذا القرآن ينزل على تلك الجماعة وهي تسير في الطريق بثبات وعزم.. وقد كان ينزل عليها منيراً لها الطريق، ومثبِّتاً لها العزيمة.. وليس أوضح على ذلك من قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

فالطريق قليلة الرفاق كما هي ضئيلة النور، وليس الفلاح في تتبع كثرة الرفاق، كلا!.. وإنما فلاحها في مقدار صبرها على قلّة الصالحين الراجين ما عند الله تعالى، المدبرين عن زينة الدنيا.

إن الطريق في بدايته مظلم ورفاقه قليل، وهذه الظلمة وتلك القلَّة جزء من الامتحان، وبعض آثار الطريق الطويل، ولن يكون سوى الصبر فيها زاداً، والثبات منهجاً، وطول النفس حادياً ومؤنساً. والله المستعان..

ثالثاً ـ الجهر بالدعوة:

ولمّا صَلُب قاع الدعوة، وقوي عودها، وتلقّت الفئة المؤمنة من تعاليم القرآن ما يجعلها تتحمّل آثار الدعوة؛ نزل قول الله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤].. إن فترة الدعوة السرِّية كافية لبناء الجذور، ووافية لدعم ركائز البناء المأمول، فجاء الأمر بالإعلان في وقت مناسب ومهيأ لذلك.

إن هذا دين أمة، ولا يمكن أن يظل يرزح خلف أسوار مكة، تحت

وطأة الباطل البتة، وهو دين لعموم تلك الأمة التي نزل عليها، ولعموم الأجيال بعدها، ومثل هذا لا يمكن أن يستتر أو يحتجب أو تُكنّه جبال وآكام!..

إن قول الله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ كافية في بلاغ الأقربين والأبعدين على حدٍّ سواء، ومع ذلك جاء تالياً لذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، حتى نعلم أن هذا الدين يتم بأمر الله تعالى، ووفق سننه.

إن بناء الذات والعناية بهاوالتركيز عليها؛ أول مطالب النجاح عند المصلحين، ولا يُتصوّر لدعوة أن تنجح أو تُفلح وهي لا تمثّل عبيرها وعبقها في نفوس حُمّالها وأصحابها، لذلك كانت المرحلة السرِّية كافية في هذا البناء، ثم لا بد للدعوة من تسلسل منطقي، يبدأ بالقريب أولاً وذلك رعاية لواجبه، وحقه الذي كفله الله تعالى له، وكذلك جرت العادة أن أهل الداعية وعشيرته أقرب الناس إليه، وأعرفهم به، وأصدقهم له، فكان الأمر يقتضي البدء بهم لتحقيق مصالح أكبر في طريق الدعوة الطويل.

وفي ظل هذا الأمر: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ خرج ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: **يا صباحاه**، فاجتمعت إليه قريش، فقال: **يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب، أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟** قالوا: ما جربنا عليك كذباً. قال: **فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**. فقال أبو لهب: تبّاً لك ألهذا جمعتنا؟! ثم قام، فنزلت سورة المسد[1].

(١) متفق عليه.

رابعاً ـ رحلة الإيذاء والاضطهاد:

وبانطلاق الدعوة الجهرية في ساحات مكة انطلق الإيذاء لرسول الله ﷺ وصحابته المسلمين معه، فهذه أم جميل امرأة أبي لهب بعد نزول سورة المسد أقبلت وهي تنشد: مذمَّم أبَيْنَا، ودينه قَلَيْنا، وأمره عَصَيْنا. .

ويقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وهو يحكي بعض مشاهد هذا العذاب: «بينما رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة، وجمع قريش في مجالسهم؛ إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي؟ أيكم يقوم إلى جزور آل فلان فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها فيجيء به، ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه؟. . فانبعث أشقاهم، فلما سجد رسول الله ﷺ وضعه بين كتفيه، وثبت النبي ﷺ ساجداً، فضحكوا حتى مال بعضهم إلى بعض، فانطلق منطلق إلى فاطمة وهي جويرية، فأقبلت تسعى، وثبت النبي ﷺ حتى ألقته عنه وأقبلت عليهم تسبهم، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال: **اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش**»(١).

وقد كان هذا الإيذاء مع استمرار الدعوة يوماً بعد يوم، حتى قال أبو جهل: هل يعفّر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته أو لأعفرن وجهه في التراب، فأتى رسولَ الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتّقي بيديه، فقيل له: ما لك؟! فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة، فقال ﷺ: «**لو دنا**

---

(١) متفق عليه.

مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً»[١].

ومارس عقبة بن أبي معيط مثل هذه الأدوار على رسول الله ﷺ في تلك المرحلة؛ فبينما رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة؛ إذ أقبل هذا الشقي فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه على عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه فأخذ بمنكبه ودفعه عن رسول الله ﷺ وهو يقول: «أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟!»[٢]..

وإنني لأعجب من دعوة بلا قدوة! ورسالة بلا منهج! وتاريخ بلا رجال!.. المصطفى ﷺ يُخنق في طريق الدعوة، ويُلقى سلى الجزور على رقبته، وهو رسول الله ﷺ، ومصطفاه.

إن ذلك أعظم درس يلقاه الدعاة وهم يطالعون سيرة نبيهم ﷺ، لقد كان بإمكان الله تعالى أن يحفظ نبيه ﷺ أن تناله أيدي الضالين، لكن أراد الله تعالى أن يكون محمد ﷺ قدوة حية، وتاريخاً مكتوباً، فأجرى عليه سننه في خلقه، وعوائده في كونه، ليتم أمر الله تعالى وفق ما أراد!.. وأحسب أن الدعاة المخلصين لا بد أن يدفعوا ضريبة الفردوس، فتمرّغ أنوفهم في الأرض، لتمخر رؤوسهم بعد ذلك عنان الفردوس الأعلى!..

لم يكن التعذيب، والاضطهاد، والذل، والهوان في طريق الدعوة دليلاً على قلّة توفيق... كلا! ولن يكون! ومع وجود هذا الدرس في قلب الدعوة منذ فجر أول الأنبياء إلى يومنا هذا لم يصل الدرس واضحاً جليّاً في صفوف الدعاة والمصلحين، فكيف بالعامة والدهماء؟!..

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه ابن أبي شيبة، وحسنه الحافظ ابن حجر.

إن الدعاة اليوم حين يلقون بعض لأواء الطريق وسننه؛ يُدبر عنهم الأتباع، ويولونهم ظهورهم ظانين أنهم خالفوا الطريق، أو حادوا إلى جنباته، وما علموا أنهم استوثقوا منه كثيراً فحصل لهم ذلك، والله المستعان..

أليس قد قال لنا رسول الله ﷺ: «**يبتلى الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل**»(١).. إذاً فلماذا ندبر أو نقف على الأقل مستعجمين متأسفين؟!.

إن هذا العذاب لم يكن خاصّاً برسول الله ﷺ، بل لقي صحابته رضوان الله تعالى عليهم مثل ذلك وأكثر، ومن ذلك التاريخ إلى اليوم لم تحفظ لنا كتب السير أن قوماً من هؤلاء تركوا الطريق أو حادوا عنه البتّة، وفي ذلك دليل على عظم شأن التربية الخاصة، وكبير أثرها في حياة المدعوين.

وإنني لأعجب كثيراً من هؤلاء النشاز في تاريخ الأمة، كثر عددهم فظنوا أنهم غالبون! فحاولوا أن يحولوا بين الدعوة وبين أهلها، واستماتوا في سبيل ذلك، ومارسوا أشد سبُل الصدِّ عن دخول الناس في هذا الدين، ثم ماذا؟!.. ثم كانت هذه الدعوة وفق ما أراد الله تبارك وتعالى لها، كان هذا النور أسطع ما يكون!.. مساكين هؤلاء الذين يجابهون أمر الله تعالى، ويقفون حجر عثرة في طريق رسوله ﷺ، ويصدُّون كل من حاول أن يشرب من حوض الإيمان، مساكين.. هل كانوا يتحسَّرون على ملك تضيعه الدعوة عليهم؟! أم كانوا يجهدون أن تبقى أسماؤهم في أسماع العامة والدهماء؟! مساكين فعلاً.. شرقوا بالدعوة فوطأتهم أقدام السالكين لها.

---

(١) رواه البخاري.

واليوم وبعد مرور هذه الأزمان ما زالت بعض صور الدعوة كما هي بالأمس تماماً، أهلها يجاهدون في سبيلها، وآخرون يجاهدون في الحيلولة دونها، يمارسون نفس الأدوار ولكن في حلة جديدة، وصدق الله تعالى حين قال: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢ ـ ٥٣].

لم تعد الدعوة محجوبة في دار الأرقم بن أبي الأرقم، وإنما خرجت سافرة عن وجهها، ماضية في كتابة تاريخها، فكان لا بد لأمة الجهل أن تحاول أن تحبسها في بداية الطريق، فبدأت المساومة على هذه الدعوة مساومة الأعداء، الناهضين في وجه الدعوة، المحاربين لثباتها بين أظهرهم. . بدأت أول ما بدأت المجابهة بالتعذيب لأفرادها، والنكال بهم، والاستهزاء بأحوالهم، كعمار بن ياسر، فكان أهل الشرك يخرجونه وأباه وأمه إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء، وكان هذا التعذيب على مرأى من رسول الله ﷺ، فقال: «**صبراً آل ياسر؛ فإن موعدكم الجنة**»[1].

وغادر ياسر وزوجه الحياة نتيجة لتعذيب هؤلاء المجرمين لهما، وبقي عمار ليشهد أحداث الرسالة إلى حين.

وأمثال ذلك كثير؛ كبلال الذي كان يُعرَض على الرمضاء عارياً، وتوضع الصخور على صدره، ويجلد بسياط الكفر ليعود عن دينه.

وخبّاب الذي يَعرض مرارة المأساة حين قال لرسول الله ﷺ: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال ﷺ: «**قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يُؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشَط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصُدّه**

---

(١) رواه الإمام أحمد، وحسنه الألباني.

ذلك عن دينه، والله ليتمَّنَّ الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[١].

إنَّ هؤلاء هم نتاج الدعوة المبكِّرة بالأمس، فما عساهم أن يكونوا بعد أن عرفوا هذه الطريق بوضوح، ودخلوا بها وهم على علم بمآلاتها؟.

إن الشكوى تحكي مرارة وحسرة، لكنها في المقابل بعض لأواء الطريق، فلا عليكم من هذا الهوان! إن ثمن الهداية كبير وباهظ، ولِمَ لا يكون كذلك وموعود الله تعالى له بالخاتمة عظيم؟! والابتلاء سنَّة لتمحيص الرجال..

إن ما أريد أن أقوله هنا وأمثلته أكثر من أن تُحصى: **إن التربية هي الوحيدة بعد توفيق الله تعالى القادرة على تكامل الصف، وتراص المدعوّين فيه، فلينتبه لذلك فإنه حريٌّ بالتأمل..** لكن السؤال العريض في هذا المُقام: ما هي هذه التربية؟ وما نوعها؟ وكيف تحقّق ثمارها؟..

خامساً ـ التربية الإيمانية:

إن التربية التي يراد لها هذه الثمار المباركة هي أولاً التربية الإيمانية؛ وهي التي تُغطي ثلاثة أركان مهمة:

أولها: العلم واليقين بمسائل الإيمان وحقائقه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

---

(١) رواه البخاري.

ثانيها: صلاح القلب وتعلُّقه بالله تعالى، وتنقيته من أمراض الشهوات والشبهات على حدً سواء.

ثالثها: أثر الإيمان على حياة الإنسان وسلوكه، قال ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن...**» الحديث(١).

ولن تُؤتي التربية الإيمانية آثارها في نفوس المتربِّين حتى تتصف بما يلي:

أولاً: أن ترتبط هذه المنظومة بعضها ببعض، ويكمّل بعضها البعض الآخر.

ثانياً: هي التربية التي يتولاها قدوةٌ يمشي على وجه الأرض؛ وإن القدوة في غاية الأهمية للأجيال التي تتربّى على يديه، ولن تثمر ثمارها الحقيقية حتى يتولى غرسها شبيه بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ثالثاً: هي التربية التي تجعل المتربي قادراً علىٰ التعامل مع أحداث المرحلة التي يعيشها، والمتغيرات التي يراها..

إن مسؤولية القائد مع المتربِّي أوسع من مسؤولية درس يلقيه أو مفهوم يربّي عليه، وإنما هي مسؤولية تُعنى بتنمية قدراته، والرقي بشخصيته، وبناء الإنسان القادر على الخروج من الأزمات والمحن بنور الوحي.. إننا في أمس الحاجة إلى تربية الأجيال التي نعيش معها على الأصول، والثوابت، والقيم، ثم تركها بعد ذلك تسير في الأرض داعية مُصلحة تتعامل وفق ذلك القبس التي تربّت عليه!.

إن أعظم رسالة يحملها المربّي لأجياله التي يعيش معها: أن يكون

---

(١) متفق عليه.

دوره شريكاً أكثر من كونه موجهاً، دور يساعد المتربي على التعلّم، والوصول معه إلى فهم مشترك للمواقف، وحل مشترك للمشكلات، وليس مهمته الإلقاء والتوجيه؛ ومسؤولية المتربي السمع والطاعة فحسب!.. لقد أثبتت التجارب أن نوع التربية التي يتلقاها الإنسان في صغره هي التي تبني منه إنساناً يصنع الإبداع، ويخلق المواقف، أو إنساناً تبعاً ينتظر التوجيه ولا يستطيع الإبداع والمبادرة.

إن التربية صناعة جيل يراد له أن يعبّد الناس لربهم تبارك وتعالى، وينهض برسالة الإسلام على أكمل وجوهها، وينشئ جيلاً يتعاقب على الأمة فيصنع منها أمماً تعانقها الملائكة في الطرقات أو تكاد! ولهذا هي في أمسِّ الحاجة إلى مُرَبٍّ من نوع خاص، مُربٍّ كتب في طريقه إلى الله تعالى أروع أنواع العبودية ذلّاً وخضوعاً، ثم هو مُرَبٍّ اعتنى بنفسه تأهيلاً، وتربية، وبناء؛ حتى صار أنموذجاً تتشرّف الأجيال بالجلوس بين يديه، هذا هو النوع الذي تحتاجه التربية في مشوارها القادم، وبه وبأمثاله يُدفع كير الجاهلية، ويداس على ظلماتها. والله المستعان..

لقد آن الأوان لإعداد مربِّين للزمن القادم، فالكير الطافح في الجاهلية أبلغ من أن يدفع بهذا الضعف، والاتكالية، وفوات الفرص المتاحة.. **ثم إننا كذلك بحاجة إلى إعادة صياغة للبرامج التي يُراد منها أن تصنع المتربي القادم لمواجهة التغيرات الكبيرة التي يصنعها الواقع..** إن بناء شخصية المتربي وإعداده ليكون النموذج الصالح القادم مسألة في غاية الأهمية، لذا من الضرورة أن يُعنى ببناء تلك البرامج ومواد التربية، البناء الذي يؤتي أكله في القريب العاجل إن شاء الله تعالى.

فمع العناية بنور الوحي وأهميته في بناء إنسان المستقبل، **فالمسلم بحاجة إلى برامج تبني شخصيته؛ كبرامج تنمية التفكير، ومهارات**

التواصل، والثقة بالنفس، وخلق المبادرة، والإيجابية، والمهارات الاجتماعية، وتحقيق الاستقرار النفسي.. وينبغي أن ينظر في هذا الإطار إلى بناء الإنسان المتكامل، وليس البناء القاصر الذي لا يمكِّن المترَبي من التأثير كما أريد له.

إن جزءاً من التربية ينبغي أن يقوم به الإنسان المتربي لذاته، ولا يكون دوره كله في مقام المتربي، بل ينبغي كذلك أن تُبنى برامج إثرائية يقوم بها المتربي بنفسه في ضوء ما خَطَّط له، على أن يكون دوره هنا دور فقه المعلومة، والمراد منها، ومعرفة آثارها، ونقدها، وإيجاد البديل الصالح، ويتم من خلال ذلك تنمية مهارة الحوار، والنقد، والرؤية، والتفكير، وهذا كله كفيل بإذن الله تعالى ببناء الإنسان القادر على حماية حياض أمَّته والذود عن مبادئها وقيمها. والله المستعان..

ثم هي ـ مع ضرورة التركيز على هذه الفئات وبنائها البناء الأمثل ـ بحاجة كذلك إلى أن **تتسع دائرة الاستيعاب الكمي** لاستيعاب أعداد أكثر، وتتسع دائرة **الاستيعاب النوعي** لتستوعب فئات أكثر محافظة وجدِّية، وتتسع دائرة **الاستيعاب العمري** في كلا الاتجاهين.. وهذا كله لا يعني التفريط في العناية بالأصل، وإمكانية الرقي به، وتفعيل أدواره أكثر مما هي عليه الآن.

ومع كل ذلك ينبغي **أن تكون التربية قادرة على التعامل مع الزمن الذي تعيش فيه،** وأن تتفاعل معه فيما هو إيجابي وتستفيد منه غاية الفائدة، وألا تنكمش أول ما ترى القادم الجديد!..

وعلى التربية أن تعي **أن غايتها بناء الإنسان القادر على اتخاذ قراره بنفسه،** وأن يكون جبلاً صلداً تتحطّم عليه شهوات النفس بقرار داخلي يتبناه لنفسه دون أن يراعي فيه بشراً على وجه الأرض.

إن التربية في كل وقت، وفي هذا الوقت بالذات هي أحوج ما تكون إلى **تربية عناصرها على صناعة القرار، وتقوية الإرادة، والقدرة على تحمّل النفس، وضبطها في أحلك الظروف**.. فهذا النوع بالذات هو النوع الذي يصلح لكل زمان ومكان!.

وينبغي أن تُعنى التربية كذلك **بتوسيع دائرة الخلاف، والتخلي عن الحزبية الضيقة، والاعتناء بمهارات الحوار والاتصال، وتنمية القدرة على التعاون والتواصل مع المشروعات المشتركة مع من لا يتفق في الرأي والاجتهاد، وتجاوز النظرة الحزبية.. وكذلك تنمية القدرة على التعايش مع المخالف**.. وهذه المتطلبات وغيرها ينبغي أن تستقر بوصفها ثقافة واتجاهاً لدى جيل الصحوة، ثم تتم التربية والتنشئة عليها(١).

سادساً ـ طريق المفاوضات:

إن دارس القرآن يرى أن السور المكية كلها لم يرد فيها وعد واحد بالتمكين لشخص رسول الله ﷺ في أثناء حياته، وإنما كان يقال له: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].. ولم يرد ذلك إلا في السور المدنية بعد ذلك بمراحل.

في ظل هذه الأحداث التي يراها الأعداء صفحات مشرقة تستعصي على الفهم لم يكن لهم سوى التفكير في طريق آخر، فكان سبيل المفاوضات مع رسول الله ﷺ وأقاربه يأخذ منحنى آخر.

● أرسلت قريش عتبة بن ربيعة، فذهب إلى رسول الله ﷺ فبدأ بقوله: يا بن أخي إنك منّا حيث علمت من المكان في النسب، وقد أتيت قومك بأمر عظيم؛ فرّقت به جماعتهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً

(١) الصحوة والتربية المنشودة، الدكتور محمد الدويش، بتصرّف.

لعلك تقبلها: إن كنت تريد بهذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سوّدناك علينا فلا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ.

فلما فرغ من قوله تلا رسول الله ﷺ عليه صدر سورة فصلت: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾... حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةً مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[1] [فصلت: ١ ـ ١٣].

● جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا: إنَّ ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا فانهه عنَّا، فقال: يا عقيل انطلق فائتني بمحمد، فانطلق إليه فاستخرجه من كبسي ـ أي بيت صغير ـ فجاء به في الظهيرة في شدة الحر، فلما أتاهم قال أبو طالب: إن بني عمِّك هؤلاء قد زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم فانتهِ عن أذاهم.. فحلّق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء فقال: **أترون هذه الشمس؟** قالوا: نعم. قال: **فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة**. فقال أبو طالب: والله ما كذبنا ابن أخي، فارجعوا[2].

---

(١) قال الألباني: القصة أخرجها ابن إسحاق في المغازي بسند حسن عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً، ووصله عبد بن حميد وأبو يعلىٰ والبغوي من طريق أخرىٰ من حديث جابر، وسنده حسن إن شاء الله تعالى.

(٢) أخرجها ابن إسحاق في: السير والمغازي، وصححها الألباني، وقد وردت بألفاظ أخرىٰ مضعفة كما تراها في تعليق الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ: فقه السيرة.

الثبات على المبدأ أعز قيمة عند الفرد، وما عزّت أمة إلا حين عُنيت بقيمها ومبادئها!.. لقد قطع ﷺ المفاوضات من بداية الطريق، وأوصل رسالة إلى أمم الكفر في مكة أن هذه القضية بالذات قضية لا تحتمل النقاش أصلاً، ويمكن أن يتم النقاش على أي قضية أخرى على ظهر هذه الدنيا سوى القضية الأم.. وهكذا ينبغي أن يكون القادة في ثباتهم على مبادئهم، وقيمهم. والله المستعان..

لقد بات بعض الدعاة يتنازلون عن بعض قيمهم رغبة في تقريب وجهات النظر، وتحقيق مصالح موهومة، ونسوا أن العبث بهذه القيم عبث بأصل الفكرة ومنشئها، ولقد بات بعض أصحاب الدين، وأصحاب المنهج، وأهل الحق يتنازلون يتلمَّسون رضا أولئك الباقين على قيم مبتورة، وعادات دخيلة، وحجج لا طائل من ورائها.. والله المستعان.. وخير لهم أن يقرؤوا هذه السيرة بتمعّن، ويروا كيف كان القدوة يواجه ذلك كله، وما ظلام الأمس عنَّا ببعيد!..

سابعاً ـ طلب المعجزات:

ولـمّا رأت قريش أن طريق المفاوضات لا يجدي؛ لجؤوا إلى المطالبة بالمعجزات لإثبات هذه النبوة.

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك؟ قال: **وتفعلون؟** قالوا: نعم، قال: فدعا الله، فأتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول: إن شئت أصنع لهم الصفا ذهباً، فمن كفر بعد ذلك منهم عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة، فقال: **بل باب التوبة والرحمة..** قال ابن عباس رضي الله عنهما: فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ

أَن نُّرْسِلَ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩](١).

وكان ضمن طيات هذه المحاولات تحرشات شخصية، ومحاولات لردع زحف هذه الرسالة بشتى الطرق والأساليب، لهذا جاء البحث عن مخرج آخر لمواجهة هذا الكيد فجاء الإذن بالهجرة إلى الحبشة.

ثامناً ـ تمحيص النفوس المؤمنة:

إن من السنن الكونية المقررة في منهج الإسلام أنه لا بد من تمحيص للنفوس المؤمنة قبل لقاء الله تعالى، ذلك أن الجزاء أكبر بكثير من مثل هذه الابتلاءات، ولذا قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣]..

فلا غرابة إذاً في ما ينال المؤمن على عرض هذه الحياة؛ بالأمس على أرض مكة في بداية الإسلام، وحتى اليوم على ظهر هذه الأرض، وثمة حِكَم تأتي من خلال هذه الابتلاءات؛ **منها**:

- **أن في هذه الابتلاءات تزكية للفرد المسلم**، وهذه الطريق لها تكاليف كبيرة من لم يحسن الصبر في بدايتها قد لا يحسن تمام الطريق إلى نهايتها، وهذه النفوس مليئة بالأمراض القلبية، وفيها الكثير من آثار كير الجاهلية، أفيحسن بمثل هذا من خلال شهادة يقولها بلسانه أن يعانق الفردوس؟! كلا.. لذا كان لا بد أن يُختبر في الطريق، ويُعرض على الفتنة، ويمحّص قلب يريد ما عند الله تبارك وتعالى.
- **ولم يكن الابتلاء في يوم من الأيام دليلاً على الهوان البتة، وإنما هو**

---

(١) رواه الإمام أحمد بسند جيد، انظر: السيرة النبوية الصحيحة، للعمري.



دليل على عزٍّ منتظر، وملك قادم، وحياة لا تشابهها أي حياة!.. ويكفي دليلاً على ذلك أن الأمة التي عُرضت بالأمس على كير التعذيب في مكة تجاوزت تلك المرحلة بكل أنَفة، وظلت مستقيمة على الطريق حتى لاقت ربها تبارك وتعالى.

- ومن حكم الابتلاء كذلك: **نفي الخبث عن الدعوة**، فإن عُشّاق الطريق في بداية الأمر كثير، لكن حين تُعرض تلك القلوب على الفتنة تبين عن صحة مقصدها، وكذلك تُقبلُ النفوس على الدعوة وهي تحمل أمراضها وأدواءها؛ فلا بد حينئذ من هذه الابتلاءات لنفي الخبث المتعلّق بها..

- ومن حكم الابتلاء: **إبراز قدوات تُغري الآخرين بالدخول في هذا الدين، والتفتيش عن سرِّ القوة التي تعرضها هذه القدوات.**

إن المسلمين يخالطون هؤلاء الأعداء صباح مساء، وعرض هذه النماذج وهي تُبتلى وتصبر وتتجاوز البلاء أمام أعينهم أكبر داعٍ لهم للإقبال على دين الله تعالى، وظلَّ المشركون يمارسون ذلك والمؤمنون يستعلون بدينهم ويرفضون الاستجابة لكل صور البلاء، ونظير ذلك تخلّىٰ جموع من صفوف المشركين عن صحبتهم مقبلين على هذا الدين الذي رأوا صوراً تدعو للإعجاب به.

- إنَّ هذه المرحلة كذلك خضعت لتخطيط بعيد المدى، فهي مع ظهورها، وسفورها للعامة؛ ما زالت بحاجة إلى خطَّة محكمة تمكِّنها من الوصول إلى الغايات، وليس الإعلان المجرَّد فحسب! فكان أول هدف تُعنى به هذه المرحلة على يد نبي الله ﷺ **توطين الفئة المؤمنة على الانضباط النفسي تجاه كل ما يلقاه المؤمن من الصادِّين عن دين الله تعالى في الأرض**، وهذه المرحلة كانت قاسية جدّاً؛ لأن المؤمن اليوم الذي

يعيش آثار هذه الرسالة قد تربَّى على الأنفة، والمواجهة والصراع، فلا بد والطريق طويل من تهيئة هذه النفوس وتربيتها على تحقيق ما تريد في طريق أطول ونفس أوسع. والله المستعان..





الفصل الثامن

الهجرة إلى الحبشة

أولاً ـ العنت والمشقة في سبيل الله:

لقي المسلمون في مكة من العنَت والمشقة في سبيل هذا الدين ما لا يحتمله بشر، والنفوس مهما صبرت تظل ترنو إلى العافية، وتتطلّب السكينة، وتنتظر الفرج، وتنظر إلى طريق الخلاص بعين المحب، ومتى كان الدين محصوراً في بلد أو موقوفاً على قطر؟!..

ثانياً ـ الهجرة إلى الحبشة:

جاءت الهجرة إلى الحبشة حلّاً مهمّاً لتجاوز مثل هذه العقبات التي واجهها المسلمون من قريش على أرض مكة، وكان الهدف منها إبعاد الأتباع عن أجواء الصراع، وكانت الهجرة للنفر الذين لم يكن لهم في قريش من يحميهم..

وقد كانت هذه الهجرة مرتين:

الأولى: في شهر رجب في السنة الخامسة من البعثة، وكانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، وفي أعقاب هذه الهجرة صلى رسول الله ﷺ بالمسجد الحرام، فقرأ سورة النجم، فلما سجد سجد كل من كان حاضراً من أهل الكفر، فشاع أن قريشاً قد أسلمت[1]، وبلغ خبر هذه القصة

---

(١) رواه البخاري.

المسلمين في أرض الحبشة فرجع أناس منهم إلى مكة؛ منهم عثمان بن مظعون رضي الله عنه.

ثم كانت الهجرة **الثانية** بعد الأولى بزمن في عدد يصل إلى حوالي اثنين وثمانين رجلاً وثماني عشرة امرأة، خرجت هذه الجموع تبحث عن مكان تنجو فيه برسالتها، وتقيم دين الله تعالى على أرض أكثر أمناً، فقلقت قريش من هذا الفرار، فحاولت جاهدة أن تعيدهم إلى أرض مكة لتمارس عليهم صنوف العذاب، علّهم يعودوا إلى ما كانوا عليه..

فأرسلت في أثر هؤلاء من يشي بهم إلى النجاشي، فأرسلوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، ومعهما بعض الهدايا إلى النجاشي، فجمع النجاشي بينهما وبين المسلمين وسمع مقالهما: سمع مقال قريش وكانت دعواهم أن يعيد قومهم إليهم، فقال للمسلمين: ما هذا الذي فارقتم به قومكم، ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من الناس؟..

فتقدّم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قائلاً: أيها الملك، كنَّا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسيء الجوار، ويأكل القوي منَّا الضعيف، حتى بعث الله إلينا رسولاً منَّا نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا لتوحيد الله تعالى وأن لا نشرك به شيئاً، ونخلع ما كنّا نعبد من الأصنام، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وأمرنا بالصلاة والصيام... وعدَّد عليه أمور الإسلام... قال جعفر: فآمنا به، وصدقناه، وحرّمنا ما حرّم علينا، وحلَّلنا ما أحلَّ علينا، فتعدَّى علينا قومنا فعذبونا، وفتنونا عن ديارنا ليردُّونا إلى عبادة الأوثان، فلما قهرونا

وظلمونا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورجونا ألا نُظلم عندك. .

فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله شيء؟.

قال: نعم. . فقرأ عليه صدراً من سورة مريم. .

فبكى النجاشي وأساقفته، فقال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة. . انطلقا، والله لا أسلمهم إليكما أبداً، يخاطب بذلك عمرو بن العاص وصاحبه(١) . . .

لم يستجب النجاشي لمطالب قريش فعادوا خائبين، وبقي هؤلاء في الحبشة بخير دار إلى أن هاجروا إلى المدينة بعد استقرار الإسلام، ولم يتأخر منهم إلا جعفر بن أبي طالب ومن معه، ومن انضم إليه أخيراً كأبي موسى الأشعري وجمْع من قومه إلى فتح خيبر سنة سبع للهجرة.

ثالثاً ـ قراءة في خطاب جعفر رضي الله عنه:

وأنت ترى هنا ضرورة الخطاب، واختيار موضوعاته، بل ضرورة اختيار من يتولى الإقناع بالفكرة، لقد أحسنت قريش حين اختارت أحد عمالقتها عمرو بن العاص يبث فكرتها، وهي لم ترسله مصادفة، وإنما تعرف قدراته، لكن المسلمين كانوا كذلك على فطنة كبيرة بتوجّهات قريش، فرشّحوا لهم من يدير دفة الحوار إلى صالحهم: جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه. .

---

(١) أخرجها ابن إسحاق في: المغازي، بإسناد حسن، انظر: السيرة النبوية الصحيحة، للعمري.

والمتمعّن في خطاب جعفر ﷺ يرى قمة الروعة في إيصال الرسالة:

لقد بدأ **أولاً** بوصف الجاهلية، وعرّاها تماماً، وأنت تدرك أن الجاهلية فيها من الأخلاق ما يمدح ويذكر، لكن جعفر ﷺ ركّز على الجانب المظلم فيها، وسطّر فيها روائع كلمته.. والوقت، والمكان، والمناسبة لا تقتضي جدالاً، واللبيب من يرمي في المقتل مباشرة.

ثم أردف **ثانياً** بشخصية رسول الله ﷺ، ووصفه بمعالي الأمور، وأثنى عليه بصفات يذعن لها السامع..

ثم **ثلّث** بمبادئ هذه الدعوة، وأخلاقيات هذا الدين التي تتفق مع أخلاقيات الأنبياء والمصلحين..

ثم **حاول** أن يفضح قريشاً بأفعالهم التي تخالف المعقول قبل مخالفتها للمشروع..

ثم **أتم حديثه** بالثناء الرائع والجميل على الملِك، وأنهم ما لجؤوا إليه إلا لِما يتمتّع به من نصرة المظلوم، ورعاية الضعفاء..

ولمّا طلب النجاشي شيئاً من القرآن اختار له ﷺ ما يثير الشجن عنده، ويذكّره بآثار الرسالة السابقة، فلم يملك النجاشي أن جرت دموعه على عينيه، فيا لله ما يصنع القادة في حق أمتهم من معروف؟! وماذا يكتبون في تاريخهم من نجاح؟!.

إن القادة مطالبون بإدراك أسرار التفوّق في أتباعهم، حتى يمكن استغلال تلك القدرات في أوقات الحاجة.. والله المستعان..

وقد قلت لك فيما سبق: **إن الأخذ بالسنن هو الطريق للتمكين على**

وجه الأرض، وفي الهجرة إلى الحبشة درس آخر لاقتفاء آثار هذه السنن: الأخذ بالأسباب..

إن الدعوة لا يمكن أن تقف موقف المتفرّج في ظلِّ الأحداث التي تعصف بها تنتظر قضاء الله تعالى وقدره فيها.. كلا! وإنما عليها أن تقتفي سنن الله تعالى في الأرض لتقطف ثمرة جهدها وعنائها من خلال السنن التي أراد الله تعالى أن تكون لعباده كلهم لا فرق! وهذا معلَم من معالم هذه السيرة لمن أراد النصر المنتظر.. والإدبار عن هذه السنن توكل مشوّه! فلنعِ ذلك وخطوات الأمس هي الكفيلة بالوصول إلى طريق العز المنتظر. والله المستعان..





الفصل التاسع

الحصار في شِعب أبي طالب

قال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب مناقب الأنصار: باب تقاسم المشركين على النبي ﷺ.. وساق حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ حين أراد حُنيناً: «**منزلنا غداً إن شاء الله بخيف كنانة حيث تقاسموا على الكفر**»، وهي كذلك في صحيح مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ، وهذا القدر هو الثابت في الصحيح من هذه القصة، وهو قدر كاف للدلالة على أصل القصة.

قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: ولمّا لم يثبت عند البخاري شيء من هذه القصة اكتفى بإيراد حديث أبي هريرة؛ لأن فيه دلالة على أصل القصة، لأن الذي أورده أهل المغازي من ذلك كالشرح لقوله في الحديث: «**تقاسموا على الكفر**». اهـ.

والقصة: أن الحصار وقع بعد فشل قريش في استعادة المهاجرين إلى الحبشة، وعزمت قريش على قتل رسول الله ﷺ، فأجمع بنو عبد المطلب أمرهم على أن يدخلوا رسول الله ﷺ شِعبهم ويحموه فيه، فدخلوا الشِّعب جميعاً مسلمهم وكافرهم.. وأجمع المشركون أمرهم على أن لا يجالسوهم ولا يخالطوهم ولا يبايعوهم ولا يدخلوا بيوتهم، حتى يسلِّموا رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا في ذلك صحيفة.. فلبث بنو هاشم في شِعبهم ثلاث سنين، واشتد عليهم البلاء والجوع، فلما كان رأس ثلاث سنين تلاوم رجال من قريش على ما حدث، وأجمعوا على نقض الصحيفة.. فتم نقضها.

إن الحصار أسلوب من أساليب الأقوياء الذين يملكون فجاج الأرض بالقوة، يضيّقون به على النادِّين عن منهجهم، والمتمردين على عقيدتهم. . وهو أسلوب قديم متجدد، لكنه أسلوب يدلُّك على تناهي الحيل في أيد أصحابها، وعجز القوة عن تنفيذ مرادها، وهو آخر الطرق لسد منافذ الدعوة الهائجة. . وأول الطرق عند أصحابه للفوز المنتظر والعاقبة الحميدة. والله المستعان. .

وفي القصة ما يؤيد أن للقبيلة أثراً كبيراً في نصر قادتها، لقد دخل الشِّعبَ بنو عبد المطلب كلهم حماية لرسول الله ﷺ، وما بهم حدبٌ على الرسالة، ولكن حدبهم الكبير على ابنهم حين تآمر عليه كفار قريش.

إن القرابة وصلة الرجل بأهله تجاوزت عند هؤلاء المعتقد، ونهضت القبيلة تناصر حتى من خالفهم في أفكارهم ومعتقداتهم، وذلك في حد ذاته درس بليغ للدعاة في كل زمان ومكان، فعليهم أن يحسنوا ترميم شعث أهل النصرة، ويسعون في ترتيب الشقوق الداخلية فإنهم عون في الملمات، ونصر في المدلهمات بعد توفيق الله تعالى. والله المستعان. .





الفصل العاشر

عام الحزن ورحلة الطائف

أولاً ـ وفاة أبي طالب وخديجة رضي الله عنها:

فُكَّ الحصار، وغادر بنو هاشم شعب أبي طالب، ثم توفي أبو طالب؛ وذلك في آخر السنة العاشرة من البعثة، وتوفيت خديجة زوجه ﷺ في نفس العام كذلك؛ أي قبل الهجرة بثلاث سنين، ورحل عَلَمَان لهما بالغ الأثر في نصرة هذا النبي الكريم ﷺ، فحزن رسول الله ﷺ حزناً شديداً حتى سُمي ذلك العام بعام الحزن.

رحل أبو طالب محمّلاً بأوضار الكفر، وآثار الوثنية، ورحل مع ذلك كله وهو يذود عن صاحب الرسالة لصلة القرابة.. ورحلت خديجة المرأة العاقلة الحصيفة بعد أن كانت عوناً على تحقيق رسالة الله تعالى في الأرض، فرحمها الله تعالى رحمة واسعة، ورحم كل امرأة تناصر زوجها في سبيل طاعة الله تعالى وطاعة رسوله، وتكتب للإسلام مكاناً واسعاً، والله المستعان..

إن الأزمات تتفاوت بتفاوت حجمها في حياة من يلقاها، ولقد لقي نبي الله تعالى أشد الأزمات في حياته العامة والخاصة، ولك أن تتصوّر شِعباً يحاصر فيه نبي الله ﷺ ثلاث سنوات، ثم أول ما يرى الناس، ويشتهي دعوتهم، يُفجأ بموت الأنصار والأعوان!.. لقد ظلَّت خديجة رضي الله عنها عون زوجها ونبيها وخليلها، تناصره، وتنافح عنه، وتُعينه

بمالها أن يبلّغ رسالة ربه تبارك وتعالى، وكانت السكن الذي يأوي إليه عند الفزع، والروح التي تلفُّه عند المخاوف والمحن، ثم هي ترحل وتتركه يواجه ذلك كله بمفرده، فيا لله ما أروع الصالحات في حياة المؤمنين! . .

بمثل هذه المرأة تطيب الدنيا! وبمثل هذا العون تزدان الحياة! ولو لم يكن في النساء إلا خديجة لكانت المرأة تاريخاً في حياة كل رجل! . .

ويرحل ذلك الرجل الغريب في منهجه، العزيز في حميَّته، أبو طالب الذي ظل ظهراً قويّاً يُؤوي في حِماه نبي الله ﷺ، وقريش رغم كبريائها ظلَّت قاصرة أن تصل إلى من يهدد ملكها لشموخ رأس أبي طالب، لكنه في النهاية رحل، وأراد النبي ﷺ أن يرد جميله، فأراده في آخر اللحظات للإسلام، وحاول فيه مراراً؛ لكنه رضي أن يموت على الكفر، وساهم الأصحاب والخلّان في بقائه على الضلالة، وإليك ما دار في وداع الكافر المناصر . .

عن سعيد بن المسيب، عن أبيه، قال: «لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءهُ رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال رسول الله ﷺ: **«يا عم! قل: لا إلٰه إلا الله؛ كلمة أشهد لك بها عند الله»** فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب! أترغب عن ملَّة عبد المطلب؟! . . فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلَّمهم: هو على ملَّة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إلٰه إلا الله، فقال ﷺ: **«أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك»**، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

ألا قاتل الله أصحاب السوء ما أجرمهم! . .

ألا قاتلهم الله تعالى ما أسوأ صحبتهم! . .

ألا متى يفيق الغافلون وهم ينجرُّون بين يدي أصحاب السوء لا يدرون أين مصيرهم؟! وما عاقبتهم؟! . . والله المستعان.

ثانياً ـ يوم العقبة:

وبعد بُعد العضداء والمناصرين لم يبقَ سبيل إلى مواجهة الناس في مكة؛ فلا بد من الرحيل إلى أرض يُبلَّغ فيها دين الله تعالى، فجاءت: **الرحلة إلى الطائف.**

يمّم النبي ﷺ وجهه إلى الطائف باحثاً عن أرض أخصب للدعوة، وأقدر على التضامن معها، **وهكذا الدعاة في كل زمان ومكان عليهم أن يبحثوا عن المكان الأنسب لتبليغ دين الله تعالى دون توقّف أو عجز أو كلل،** لم يكن لنبي الله ﷺ أن يزهد في دعوة لقي في سبيلها العنَت والمشقة، بل ظلَّ يبحث لها عن مكان آخر.

إن الدعاة أُجَراء عند الله تعالى، عليهم أن يسعوا بكامل وسْعِهم في تبليغ الرسالة، وليس عليهم غير ذلك. . توجه ﷺ إلى ثقيف بالطائف، ولكن الوضع لم يكن أحسن ولا أفضل من شعاب مكة وما فيها من العنت والمشقة، فلم تقبل قبيلة ثقيف دعوته ﷺ،ثم عاد ﷺ إلى مكة من جديد.

عاد ﷺ. . وقد عبّر ﷺ عن هذه المواقف حين سألته عائشة رضي الله عنها فقالت: هل أتى عليك يوم أشد من يوم أُحد؟ فقال: «**لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة** ـ عقبة الطائف ـ؛ **إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال** ـ من أكابر أهل الطائف ـ،

فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب ـ قرن المنازل ميقات أهل نجد ـ، **فرفعت رأسي؛ فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك وما ردُّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. قال: فناداني ملك الجبال، وسلّم علي ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربي إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين!»** فقال ﷺ: «**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً**»[١].

لقد عُرض على الداعية اجتثاث هذه الأمة المعرضة من أصلها، وإطباق الجبال عليها، فأبى محمد ﷺ، أبى الداعية الكبير أن تنتهي دعوته بهذه الصورة التي تظهر فيها الانهزامية، رفض وبكل إصرار أن تكون النهاية كهذه، وتطلّب أمراً غير قريب، **وطول النفَس أروع صفة عند القادة الربانيين**، تطلّب أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئاً! وهذا والله قمة العجَب، كأنه ﷺ يفترض أن هذه الأمة التي رفضت هذه الدعوة قد زالت ليحلَّ محلَّها جيل يستوعب هذه الدعوة ويشرف بها، تُرى ما المسافة بين هذه الدعوة القائمة اليوم وبين الجيل القادم الذي يمكن أن يستوعبها؟!.. أما إنه والله نفَس القادة بحق! وتؤدة الروّاد حقيقة! كثيرون هم الذين يرفعون رؤوسهم يتطلبون قيادة الناس، وقليلون جدّاً هم أولئك الذين يطول نفَسهم في انتظار النصر البعيد!..

---

(١) متفق عليه.

ثالثاً ـ العودة إلى مكة:

لقي الداعية ما لقي، لكنه ﷺ مع كل ما حدث له ظلَّ صابراً محتسباً راجياً ما عند الله تبارك وتعالى.. لقد ترك النبي ﷺ مكة وهي بأعوان الكفر أشد أذية له، عاد مرة أخرى فإذا بالأمر كما هو على أول عهده به، عاد وأصرت قريش ألّا يدخل شِعاب مكة من جديد.. ولك أن تتأمّل القائد وهو يعود مكبَّلاً بالجراح، جراح الصد عن الدعوة، وعوائق الطريق التي ظلَّ يحمل لأواءها حتى وصل إلى مكة، ويوم أن وصل أبوابها، وظل يرقب مشارفها مُنع من الدخول، وحيل بينه وبين أحب أرض الله تعالى إليه، ورفض كفار قريش أن يدخل مكة من جديد..

إن الصورة تدعو للدهشة، تصوّر هنا في هذا الموقف رسولك وقد بدت عليه آثار المشقة والسفر، تصوّر ذلك النبي وهو واقف على أبواب مكة، وقريش كلها تتنكّر له، وتقف حائلة دون دخوله إليها من جديد.. تصوّر فالصورة هنا في هذا الموقف تدعو للدهشة حقيقة..

إن التلذّذ بالثمرة غاية ما يتمنّى الداعية إلى الله تعالى، لكن هيهات.. بينه وبينها آماد تنقطع دونها آمال الرجال، دونها غربة! وفُرقة! دونها طرد وسجن وضرب! دونها عرق يسيل ودماء تنزف! أيظن الدعاة إلى الله تعالى أن فضول أوقاتهم كافية لتحقيق هذه الثمار؟! كلا! إن كانوا يظنون ذلك ـ ولا أعتقد ـ فبيوتهم أحوج إليهم من ذلك الفضول التافه!.

إن من يستعرض دعوات الأنبياء يجد أنها لم تنفك في يوم من الأيام عن اللأواء والمشقة، أفيكون محمد ﷺ أنموذجاً آخر؟! ويكون الدعاة على أثره نماذج غير نماذج التاريخ؟!..

إن الدعاة أمناء على رسالة الله تعالى، والذي لا يتحمّل آثار هذه

الرسالة، ويكون له في رسوله أسوة؛ فليقعد في بيته لا يعيق الدعوة وهو مأجور إن شاء الله تعالى بهذه النية. .

إنني لأعجب من أولئك اليائسين الذين يزفرون يأساً وهم على أرائكهم، أو يغضبون وهم لا يقدِّمون لدينهم إلا فضول أوقاتهم، أو يحزنون وهم في ضيعاتهم!. . أفعساهم اليوم ـ وهم يرون نبيهم ﷺ يعود إلى مكة فيمنع من دخولها من أجل دعوته ـ يعقلون كم هي التضحيات الواجبة في أعناقهم!. .

أرادت قريش أمراً، وأراد الله تعالى أمراً آخر، أرادت قريش اجتثاث الداعية، والحيلولة بينه وبين المدعوين، وأراد الله تعالى بقاءه بينهم يمارس دوره في إعلان رسالة السماء، وهنا في هذا الموقف بعد أن استماتت قريش في سبيل إبعاد النبي ﷺ قَبِل المُطعم بن عدي أن يدخل رسول الله ﷺ في جواره، وخرج هو وبنوه متقلدي السيوف، ورسول الله ﷺ يطوف، ويصلي، وأعلن المطعم ذلك الجوار، وتغيَّظ القوم، وقال أبو سفيان للمطعم: أمجير أم تابع؟ قال: بل مجير، قال: إذاً لا تخفر؛ قد أجرنا من أجرت[(١)].

وهنا أقول: كيف يطعم رجل للحياة معنى وهو ضعيف؟! كيف يحلُّ لرجل أن يحلَّ بين ظهراني قومه دون إرادة أو رأي؟! يعجبني شجاعة المطعم، وشنّف أذني بهذه الثقة، وهذا العز بجاهه حين يخرج وقريش واقفة فيكرم عدوهم، ويجلُّه، ويوفّر له الحماية، وهم أجبن من أن ينبس بعضهم بكلمة. . .

---

(١) روىٰ البخاري: أن النبي ﷺ قال في الأسرىٰ يوم بدر: «**لو كان المطعم بن عدي حيّاً ثم كلمني في هؤلاء النتنىٰ لتركتهم له**». قال الحافظ: المراد باليد المذكورة ما وقع منه حين رجع النبي ﷺ من الطائف، ودخل في جوار المطعم بن عدي. اهـ.

ولولا أن هذه قيم احتفل بها الإسلام لما أرخيت عنان قلمي في وصف كافر، لكن شجاعة الرجل أجبرته لينحني فيكتب بعض مكارم الرجال! وحسبه وفاءً وردّاً للجميل، ونحن أمة وفاء يستحيل أن ننكر جميل إنسان ولو كان بيننا وبينه الدماء!..

❁ ❁ ❁



الفصل الحادي عشر

الإسراء والمعراج

بعد هذه الرحلة الأليمة ـ رحلة الطائف ـ وقع حادث الإسراء والمعراج، فكان مواساة لرسول الله ﷺ.

إن القلوب الكليمة لا بد لها من بلسم لِين يدفن مراتع الأسى! لذا كان هذا هو البلسم، رحلة إلى السماء، إلى حيث يجد برد اليقين، رحلة تذكِّره بالسيادة والرفعة فيصلي بالأنبياء فيتذكَّر ماضيهم، ويعيش زمانهم، ثم يمضي إلى ربِّه تبارك وتعالى.

قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

حيث فُرِج سقف بيته ﷺ بمكة، فنزل جبريل عليه السلام ففرج صدره ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغه في صدره ثم أطبقه، ثم أُسري به إلى بيت المقدس على البراق، وصلَّى هناك بالأنبياء فيه، ثم عُرِج به إلى السماء السابعة ماراً بالأنبياء في كل سماء: آدم ويوسف وإدريس وعيسى ويحيى وهارون وموسى وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام.. وسمع ﷺ في تلك الرحلة صرير أقلام الملائكة، وفرضت عليه الصلاة خمسين صلاة، وراجع ربَّه تبارك وتعالى إلى أن خُفِّفت إلى خمس صلوات[١].

---

(١) متفق عليه.

وكان الإسراء والمعراج يقظة بروحه وجسده، مرة واحدة، وفي ليلة واحدة.

وعاد ﷺ من رحلته فأخبر قريشاً خبره، فكذّبت قريش بهذه الحادثة، وأثّر هذا التكذيب على نفس النبي ﷺ، قال ﷺ: «**لقد رأيتني في الحِجْر، وقريش تسألني عن مسراي، فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كربة ما كربت مثلها قط**».. حتى إن الله تعالى عني به في هذا الموطن فرفع له بيت المقدس وجلّاه له، فطفق يخبرهم عن آياته وهو ينظر إليه فلايسألونه عن شيء إلا نبأهم به[١].

إن عناية الله تنزل على عباده الصالحين وإن طال زمن انتظارها، غير أنها بحاجة إلى بلاء في سبيله، وركوع بين يديه، وجهاد يبرهن على صدق نيَّته.. وهذا هو الذي حصل مع نبيه ﷺ.

لقد كان بلسم الجراح بالأمس رحلة إلىٰ السماء، والجراح هي ذاتها اليوم، وكذلك البلسم لها هو رحلة إلىٰ السماء، تلك احتاجت إلى البراق، وعانقت السماء جسداً وروحاً، وهذه رحلة بالقلب، وتحتاج إلى سجود الأسحار، وظمأ الهواجر، وتعانق السماء روحاً وقلباً.. وليس بين الرحلتين فرق في الجهاد والتعب والمشقة والعناء، ولا في النهايات من حيث الأفراح والخواتيم، ولا زال الطريق ميسوراً لكل راغب، فمن مستقل ومستكثر!..



(١) متفق عليه.



الفصل الثاني عشر

الدعوة في مكة مرة أخرى

عاد ﷺ من حادث الإسراء والمعراج لدعوة الناس إلى هذا الدين على أرض مكة مرة أخرى، عاد بعد أن زاد اليقين، عاد بعد أن أخذ جرعة كبيرة من الإيمان، عاد وعادت رحلته الميمونة للدعوة، فكان يستغلُّ اجتماع الناس في مكة كمواسم الحج، وكان يمشي إليهم ويقول: «**يا أيها الناس قولوا: لا إلٰه إلا الله، تفلحوا**».. وأبو لهب يطارده ويقول: هو صابئ[1].

وكان ﷺ يردد: «**هل من رجل يحملني إلى قومه؟ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلّغ كلام ربي**»[2].

أولاً ـ بدء إسلام الأنصار:

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجنّة، وفي المواسم بمنى؛ يقول: «**من يؤويني؟ من ينصرني حتى أبلّغ رسالة ربي وله الجنة؟**».. حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر فيأتيه قومه فيقولون له: احذر غلام قريش لا يفتنك، ويمشي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله تعالى إليه من يثرب فآويناه وصدقناه، فيخرج الرجل منّا فيؤمن به ويقرئه

---

(١) رواه الإمام أحمد، وسنده صحيح. انظر: السيرة النبوية الصحيحة، للعمري.

(٢) رواه الإمام أحمد، وسنده صحيح. انظر: السيرة النبوية الصحيحة، للعمري.

القرآن، فينقلب إلى أهله فيُسلمون بإسلامه، حتى لم يبقَ دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام»[(١)].

إن الاستجابة قد تبطئ لكنها تأتي في النهاية، تأتي بعد استفراغ الجهد والوسع والطاقة، تأتي بعد أن يبرهن الداعية على صدقه مع طول الطريق، وبُعد الشُّقَّة..

وظلَّ النبي ﷺ على هذه الحال من دعوة الناس، وترَصّدهم في المواسم، وعرض نفسه على القبائل، والتقى بمجموعة من الأنصار من الخزرج، فدعاهم رسول الله ﷺ، فأسلموا، وطلبوا العودة إلى قومهم يدعونهم، وانصرفوا إلى بلادهم راجعين، فدعوا قومهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبقَ دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ، حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم اثنا عشر رجلاً فلقوه بالعقبة وهي العقبة الأولى.

ثانياً ـ بيعة العقبة الأولى:

جرت بيعة العقبة الأولى بحضور اثني عشر رجلاً؛ عشر من الخزرج واثنين من الأوس.

قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مناقب الأنصار: باب: وفود الأنصار إلى النبي ﷺ بمكة وبيعة العقبة.

وقد حضر هذه البيعة عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وحكى بعضاً مما تمَّ فيها؛ حيث قال: «كنت فيمن حضر بيعة العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعْنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء وذلك قبل أن يفترض علينا الحرب، على أن «**لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل**

---

(١) رواه الإمام أحمد، وصححه الحافظ ابن حجر.

أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفَّيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله تعالى، إن شاء غفر وإن شاء عذّب»(١).

ولما أنجزت هذه البيعة ـ بيعة العقبة الأولى ـ وعاد الأنصار إلى المدينة، بعث رسول الله ﷺ فيهم مصعب بن عمير وأمره أن يُقرئهم القرآن، ويعلِّمهم الإسلام، ويفقِّههم في الدين، فما زال في هذه المهمة حتى رجع إلى مكة قبل بيعة العقبة الثانية»(٢).

ثالثاً ـ بيعة العقبة الثانية:

ولما انتشر الإسلام في المدينة، واطمأنَّ المسلمون المهاجرون بين إخوانهم الأنصار، وبقي رسول الله ﷺ في مكة يلاقي عنت قريش، قدم وفد الأنصار في موسم الحج أيام التشريق، فبايعوا رسول الله ﷺ بيعة العقبة الثانية.

حيث خرج سبعون رجلاً ـ أو ثلاثة وسبعون ـ وامرأتان من الأنصار، ثم تكلَّم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله ورغّب، ثم قال: «**أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم**».

قال: فأخذ البراء بن معرور رضي الله عنه بيده ثم قال: نعم، والذي بعثك

---

(١) متفق عليه.

(٢) ويرى الحافظ ابن حجر رحمه الله: أن المبايعة المذكورة في حديث عبادة على هذه الصفة لم تقع ليلة العقبة، وإنما كان ليلة العقبة ما ذكره ابن إسحاق وغيره من أهل المغازي: أن النبي ﷺ قال لمن حضر من الأنصار: «**أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم**» فبايعوه على ذلك، وعلى أن يرحل إليهم هو وأصحابه.. وخالفه في ذلك البيهقي، والقاضي عياض، وابن سيّد الناس، وابن كثير، والذهبي، والعيني، وجماعة آخرون من أهل العلم رحمهم الله تعالى.

بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا ـ أي نساءهم ـ فبايِعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحرب، وأهل الحلْقة ـ أي السلاح ـ ورثناها كابراً عن كابر..

فاعترض القول أبو الهيثم بن التيهان والبراء يتكلم، فقال: يا رسول الله! إن بيننا وبين القوم حبالاً وإنا قاطعوها ـ يعني اليهود ـ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدَعنا؟.

قال: فتبسّم رسول الله ﷺ ثم قال: «**بل الدم الدم، والهدم الهدم** ـ أي: دمي دمك، وهدمي هدمك؛ فما هدمتَ من الدماء هدمته أنا ـ **أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم**»..

ثم طلب منهم أن يُخرجوا اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم، فأخرجوا له ذلك العدد، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس..

ثم كان أول من ضرب يد رسول الله ﷺ البراء بن معرور، ثم بعد ذلك القوم.. ثم صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت منذراً قريشاً، ثم أمرهم النبي ﷺ بالعودة إلى رحالهم بعد أن قال له سعد بن عبادة رضي الله عنه: والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا! فقال ﷺ: «**لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم**»(١).

إن الحكمة تتطلّب أن يخطط الإنسان لنجاح دعوته، وأن يرصد لها نجاحها قبل بزوغ شمس ضحاها، لقد كتبت العقبة فيما بعد في تاريخ الدعوة انتصارها المأمول، وظلّت هذه اللقاءات وأشباهها هي الفيصل في

(١) سيرة ابن هشام، بإسناد حسن. انظر: صحيح السيرة النبوية، للعمري.

تاريخ تلك الدعوة المباركة، وما تمَّ الاتفاق عليه في تلك الليالي التي تخفّى فيها نبي الله ﷺ بدعوته كانت هي النور الذي لم يظلِم. والله المستعان . .

رابعاً ـ دروس الفترة المكية:

وبهذا انتهت الفترة المكية بعد ثلاثة عشر عاماً من الزمن، قضاها النبي ﷺ وهو **يقرر العقيدة ويجذّر التوحيد** فحسب! وظلَّ القرآن الكريم ينزل على مدار هذا الزمن وهو يعمّق الإيمان في نفوس أصحابه؛ مرة بالترغيب، ومرة أخرى بالترهيب! ولم ينزل في هذه المرحلة من التشريع إلا قضايا كليَّة فحسب! وفي ذلك درس بليغ للغاية؛ وهو أن التوحيد أعظم ما يجب أن يُشتغل به، ويؤكّد عليه، ويُعنى ببيان مضامينه، ومقتضيات كلمة: **(لا إلٰه إلا الله)**. . .

● إن القلوب حين تدرك هذه الكلمة بأبعادها ومضامينها لا يمكن أن تنثني في الطريق راجعة على عقبها البتة.

إن معنى **(لا إلٰه إلا الله)** إذا غُرس في القلوب بحق لا يمكن لقوة في الكون مهما كانت أن توهن رباطه أو تؤثّر في طريقه البتة. . لذا احتاجت تلك النفوس التي عاشت على الجاهلية قروناً طويلة إلى هذا الوقت الطويل لتغيير النفوس، وتصحيح الأفكار. . . وهذا الدرس لا ينبغي أن يفوت الدعاة والقدوات والمصلحين في دعوتهم، وعليهم أن يدركوا أن غرس مفاهيم **(لا إلٰه إلا الله)** هو مشروع الأمة لتحمل تراثها بصدق، وتركض به إلى العالمين بجد.

إن القلوب إذا صلحت صلحت كل الجوارح دون استثناء، وإذا عطبت القلوب فلا تسأل عن الآثار! إن الدعوة في هذه الساعة التي أسطّر

فيها هذه الكلمات هي بحاجة ماسَّة إلى تصحيح البداية، والانطلاق من الطريق الذي انطلق منه رسول الله ﷺ، وأكّد عليه القرآن في السور المكية، وأي دعوة لا يمكن لها أن تستقيم ما لم تدلف من المكان الذي دلف منه نبي الهدى ﷺ. . وإذا أردت أن تعرف ذلك حقيقة فانظر ماذا صنعت تلك الكلمة في عبّاد الحجر والوثن. . لقد حولتهم إلى عالَم آخر، عالم يُكوى بالحديد ويُنشر بالمنشار، ويُضرب بالسياط في حرِّ الرمضاء، وهم مع كل ذلك كله صابرون محتسبون لما عند الله تبارك وتعالى.

(لا إلٰه إلا الله) تحقيقاً لتوحيد الربوبية، فالمحيي والمميت والرزّاق والنافع والضار من خصائص الله تعالى، وأمة تعتقد ذلك لا يمكن أن يخيفها صوت سلطان أو بريق سيف بتار، وهذه بعض أسرار التوحيد في قلوب المطمئنين به.

(لا إلٰه إلا الله) تحقيقاً لتوحيد الألُوهية؛ فكل أعمال العبد لله تعالى دون غيره.

(لا إلٰه إلا الله) محبة وإقراراً وتسليماً وإجلالاً وتعظيماً. .

(لا إلٰه إلا الله) في العبادة والمعاملة والأخلاق والسلوك. .

(لا إلٰه إلا الله) ولاء مطلقاً لله ولرسوله ولأتباعه، وبغضاً وعداءً لكل كافر على وجه الأرض كان من كان!.

(لا إلٰه إلا الله) فوق الأعراف والعادات والتقاليد مهما كانت.

(لا إلٰه إلا الله) تحقيقاً لتوحيد الأسماء والصفات، فلا نِدَّ ولا شبيه ولا مثيل لله تعالى في أسمائه وصفاته. . إن فقه أسماء الله تعالى والشعور بآثارها القلبية والتعبُّد لله تعالى في ضوء ذلك، هو أعظم درس يتلقاه الإنسان في حياته.

● ومن الدروس التي تركتها المرحلة المكية: أن سنن التمكين في الأرض لأي فرد أو مجتمع أو أمة على وجه الأرض لا بد أن تمرَّ بسنن **الابتلاء والتمحيص**، ولن ترى أحداً على وجه الأرض ممن مكّن الله تعالى لهم في الأرض لم يمرَّ بهذه المرحلة المهمة، لذا قال الله تعالى وهو يرى تعذيب الجماعة المؤمنة بشتى أنواع العذاب: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣].

ولما انقلبت خديجة ﵂ برسول الله ﷺ إلى ورقة، قال: يا ليتني كنت فيها جذعاً إذ يخرجك قومك! قال: «**أو مخرجي هم؟**» قال: نعم، لم يأتِ رجل بمثل ما جئت به إلا عودي(١).

وفي حديث قيصر مع أبي سفيان: «سألتك: كيف كان قتالكم إياه؟ فزعمت أن الحرب سجال ودول، وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة»(٢).

وفي الحديث: «**إنما بُعثت لأبتليك وأبتلي بك**»(٣).

● ثم تتلو هذه مرحلةَ الابتلاء سنَّةُ التمحيص التي هي نتيجة من نتائج الابتلاء، كما قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

إن هذه السنَّة تُخرج رجالاً لا تأبه بعوائق الزمان مهما كانت قوية أو صلبة، ولا يمكن أن يعاش التمكين سنَّة دون المرور بتلك السنن في الأرض، وهذا هو بالفعل الذي حدث مع رسول الله ﷺ.

● ومن دروس المرحلة المكية: إمضاء سُنن الله تعالى في خلقه،

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه مسلم.

وقد ثبت من سنن الله تعالى في الأرض أنه **لا مجال للتغيير المنشود على مستوى الأفراد والجماعات والأمم حتى يبدأ كل من أراد التغيير بالخطوة الأولى: تغيير النفس**، لتحقيق هذه السنَّة الربَّانية؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

ولما حصل بالفعل أثر **(لا إله إلا الله)** في نفوس تلك الجماعة المؤمنة، تحقق وعد الله تعالى بإمضاء سنَّة التغيير إلى الأفضل في حالهم ومآلهم.

ومن سنن الله تعالى وهي خاتمة المطاف، وهي الثمرة المنتظرة: **سنَّة النصر، وهي نتيجة لسنَّة التغيير**، وإن سنَّة النصر لا تخلو من تداول يسبقها.

ومن سنن الله تعالى: أنه **لا نصر بدون إعداد للنفوس**، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]..

● لقد كانت مكة مرحلة **إعداد إيماني وتربوي وسلوكي** هيأه القرآن من خلال الآيات التي كانت تنزل على رسول الله ﷺ وتصحح المسار على مدار الثلاثة عشر عاماً، تمخّض عن ذلك الإعداد الذي تولّاه الله تعالى ورسوله ﷺ في إعداد تلك العصبة المؤمنة التهيؤ المالي والبدني لأهل الإيمان، وكل ذلك تولّد من مخاض مكة، وكان نتيجةَ الكير الأحمر نفوسٌ مصقولة كالذهب، وعقيدة صلبة كالجبال الرواسي، وإيمان يتدفق على كل معاني الحياة الدنيا... ولما تمَّ ذلك كله، وتهيأت النفوس المؤمنة للذود والصراع عن دينها؛ أقبلت لنشره في الأرض آمنة مطمئنة راضية، ثم سُمح لها بالهجرة إلى المدينة. والله المستعان..

❁ ❁ ❁



الفصل الثالث عشر

الهجرة إلى المدينة النبوية

أولاً ـ أسباب الهجرة والإعداد لها:

إن البقاء في مكة مع أنها أحبُّ البلاد إلى القلب لا يولّد للرسالة جديداً، ولا يكتب لها امتداداً لتاريخ طويل. . كلا! بل فيها من اللأواء والأذى ما يقف حجر عثرة في طريق النور الذي أراد الله تعالى أن يراه الناس، ليستضيئوا به في حياتهم، لهذا جاءت الرحلة إلى المدينة، لتكون مكاناً أرحب لدين الله تعالى، وقد تهيأت ببيعتي العقبة الأولى، والثانية، وصار فيها رجال يستقبلون الدعوة، ويحتفلون بها، ويجهدون من أجل تبليغها إلى أهلها.

لقد تجمَّدت الدعوة في مكة أو كادت! فالبقاء فيها لا يقدِّم للدعوة الاتساع المنتظر، بل هو سبيل للصدِّ والتخذيل، فكان من الضرورة بمكان البحث عن مكان آخر، البحث عن قاعدة أخرى، قاعدة تحمي هذه العقيدة وتكفل لها الحرية؛ فكانت المدينة القاعدة الجديدة لرسالة السماء.

ولم تتم الهجرة إلى المدينة إلا بعد نوع من الإعداد للمهاجرين تم من خلال المحن والأزمات التي مرَّت بهم في مواجهة الصادِّين عن الدعوة المعوِّقين لها، وكذلك إعداد للمكان المهاجر إليه من خلال الفئات المؤمنة التي تمخَّضت من ليلتي العقبة.

إن النفوس إذا تُركت وشأنها لا يمكن أن تزكو وتترحّل إلى العالم المنشود الذي يحتفل بفلاحها ونجاحها البتة. . هذه طبائع النفوس وعلى

مثل هذه الأحوال جُبلت، والمعالي كم هي بحاجة إلى جهاد وتضحيات كبيرة جدّاً ويمكن بعد ذلك أن تترحَّل النفوس إليها راضية مطمئنة. .

إن التربية بعد توفيق الله تعالى هي الكفيلة بصنع الإنسان الذي يتغلّب على مشاعر الخوف والرهبة والدعة والكسل، لتصنع منه إنساناً يواجه الجبال فيركلها كأنها ركام رمل! أو عثرات في الطريق فيبعثرها كأنها خشاش أرض!. .

لقد تم في مكة إعداد الإنسان الذي يصنع التاريخ، ويدير دفَّة الأحداث في ثناياه غير آبه بكل ما يعترضه من عراقيل. .

هذه التجربة التي صنعها الأنبياء في أممهم، وهذه هي النتيجة التي وصلوا إليها بعد بناء عريض استنفد كثيراً من الزمن، وأكثر منه من الجهد والتضحيات! وينبغي للمصلحين أن يقتفوا آثار أنبيائهم سواء بسواء. . وفي ظل العولمة التي تبهر الناس اليوم ببريقها وزيفها، وما تكنُّه في ثناياها من معاول هدم، نحن في أمسِّ الحاجة إلى تربية قوية تستطيع أن تواجه هذه الآثار ولا تبالي بها.

إن الجماهير الهادرة لا تحمي منهجها ولا تستطيع أن تواجه عدوَّها ما لم تتربّ على معالم التربية السابقة، وتستنير بنورها، وحينئذ يكتب الله تعالى لها ظهوراً كظهور أعلامها السابقين. والله المستعان. .

ثانياً ـ لماذا اختيرت المدينة للهجرة؟:

وإنما اختيرت المدينة للهجرة لأنها وحي الله تعالى لنبيه ﷺ، ففي حديث عائشة رضي الله عنها؛ قال ﷺ: **«إني أريت دار هجرتكم: ذات نخل بين لابتين»**(١).

---

(١) رواه البخاري.

وفي حديث أبي موسى رضي الله عنه؛ قال ﷺ: «**رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب**»(١).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال ﷺ: «**أمرت بقرية تأكل القرى يقولون: يثرب، وهي المدينة، تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد**»(٢).

ثالثاً ـ هجرة الصحابة رضي الله عنهم:

لما تعينت المدينة داراً للهجرة، أذن النبي ﷺ بالهجرة إليها، وكان ذلك في شهر ربيع الأول سنة ثلاث عشرة من بعثته عليه الصلاة والسلام في يوم الإثنين كما قال ابن كثير رحمه الله.

فكان أول من قدِم المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ: أبو سلمة رضي الله عنه؛ هاجر قبل بيعة العقبة بسنة، قدم على رسول الله ﷺ مكة من أرض الحبشة، فلما آذته قريش، وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار خرج إلى المدينة مهاجراً.

وكذلك مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم رضي الله عنهما، فجعلا يقرئان الناس القرآن، وقد توالت هجرة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم إلى المدينة، ثم تتابع المهاجرون كبلال بن رباح، وسعد بن أبي وقاص، وعمار بن ياسر، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهم في عشرين من الصحابة، وغيرهم ممن هاجر تاركاً مكة باحثاً عن مكان أكثر أمناً لدينه.

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم. قال أهل العلم في معنىٰ «**تأكل القرىٰ**»: أي: إما أنها مركز جيوش الإسلام في أول الأمر فمنها فتحت القرىٰ، أو أن أكلها وميرتها تكون من القرىٰ المفتتحة وإليها تساق غنائمها.

ولقد حاولت قريش بكل ما أوتيت إيقاف هذه الهجرة، واستخدمت كافة الأساليب لإيقافهم؛ كحجز أموال المهاجرين، أو حجز زوجاتهم وأبنائهم، والاحتيال عليهم وإعادتهم إلىٰ مكة، لكنَّ ذلك كله لم يعق هذه الهجرة في شيء وظلَّت مستمرة، وضحّى المهاجرون بكل ما في وسعهم للوصول إلى المدينة، وتركوا مكة خلف أظهرهم رغبة في النجاة بدينهم، وقد قلت: إن التربية كالحجر الأصلد، مهما يُضرب فيه بالمعاول لا تستقر على معالمه، ولا تؤثّر فيه شيئاً.

رابعاً ـ قصة هجرة النبي ﷺ ودروسها:

أ ـ روح الجندية الفاعلة:

ظلَّ النبي ﷺ بمكة منتظراً الإذن من ربِّه تبارك وتعالى، حتى أذن الله تعالى له بالهجرة.

فأتى ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه في وقت الظهيرة، وقد أراد أبو بكر أن يهاجر قبل ذلك فقال له ﷺ: «**لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً**».. وظل يتربّص لهذه الرحلة الميمونة، ويخطط لذلك اليوم «وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر أربعة أشهر»[(١)]..

● وفي ذلك درس عظيم يدلُّك على روح الجندية لدى ذلك الجيل الذي تربَّى بمفاهيمها، وأدرك أسرارها ومضامينها.

إن هذه الروح تخبر عن آثار القائد في النفوس، وفي الوقت ذاته تخبر عن **روح الجندية الفاعلة لدى هذه النفوس الرائعة**، وإذا تخلّت هذه المعاني من نفوس الأتباع فلا تسل عن الآثار المترتبة على **ذلك!** وفيما

---

(١) رواه البخاري.

بعد سترى كيف أن حذيفة رضي الله عنه ليلة الأحزاب وقد مكّن الله تعالى له من ظهر الكافر فإذا به يتذكّر قول رسول الله ﷺ: «**لا تُحدث شيئاً**».

ب ـ دقة التخطيط:

قد كان مجيء النبي ﷺ إلى أبي بكر رضي الله عنه في اليوم الذي تلته ليلة المؤامرة عليه من الكافرين في دار الندوة..

حكت عائشة رضي الله عنها خبر الهجرة، فقالت:

فبينما نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنّعاً، في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر، قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له، فدخل، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «**أخرج من عندك؟**» فقال أبو بكر: إنما هم أهلك ـ لأنه قد كان أنكحه عائشة قبل ذلك ـ بأبي أنت يا رسول الله، قال: «**فإني قد أذن لي في الخروج**».

وفي هذه اللفتة درس عظيم يدلُّك على **دقَّة التخطيط** الذي اتخذه النبي ﷺ للهجرة، فإنه خرج في نحر الظهيرة إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وهذا وقت لا ينتشر فيه الناس، وفي اختيار هذا الوقت بالذات رسالة إلى أبي بكر رضي الله عنه أن الأمر خطير، وفهم أبو بكر الرسالة حين قال: والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر، واحتاط ﷺ لهذه الهجرة، حتى إنه قال لأبي بكر: «**أخرج من عندك؟**» فقال أبو بكر رضي الله عنه: إنما هم أهلك، وهكذا يظلُّ التخطيط مهمة أساسية للنجاح عند القادة من أمثال محمد ﷺ.

إن المصلحين يجهدون لدين الله تعالى، وحسبهم آثار نبيهم ﷺ، وهم أمناء على رسالة الله تعالى لأهل الأرض، وعليهم أن يدركوا أنه لا

سبيل للخروج بها إلى برِّ الأمان مع تحقيق مكاسبها التي جاءت من أجلها، إلا بتشريع التخطيط منهجاً وأسلوباً وعملاً لتحقيق نجاحها المنتظر.

إن الدعاة قبل أن يخططوا للدعوة نجاحها هم في أمسِّ الحاجة إلى التخطيط لأنفسهم نماءً وزكاءً، وإذا لم يستطع الداعية أن يكتب لنفسه بهذا المنهج تاريخاً على ظهر الأرض، فقد لا يكون قادراً على تحقيق آثار دعوته المباركة. والله المستعان..

ج ـ الأعوان الأوفياء:

ومن أعظم الدروس في الهجرة: **صحبة الأوفياء** وعونهم وسدادهم وتوفيقهم، وخذلان كثير من القادة من أعوانهم وخلَّانهم، فإن القائد إذا تهيأ له الصالحون أسهموا في نجاحه، وتحقق له ما يريد. والله المستعان..

د ـ البناء الداخلي المتين:

ومن الدروس كذلك: ثقة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في أهله، واطمئنانه أنهم أعوانه على الطريق؛ فإن النبي ﷺ تكتّم على الخبر على أهل أبي بكر، فطمأنه رضي الله عنه في ذلك، **وبيوت المصلحين أحوج ما تكون إلى هذا البناء الداخلي المتين**، ذلك أنهم عرضة للسؤال عن القائد، والإنباء عن خطواته، وكثير من البيوت التي تصدعت لم تُعنَ بهذه التربية، ولم تولِهَا عنايتها.

إذا لم تكن زوج الداعية تحمل همَّه، وتعيش آلامه وهمومه، وتعمل على نجاحه، فأي نجاح يُنتظر لدعاة الحق وهم يُتربص بهم من أعداء هذه الدعوة المباركة؟!..

وليس هذا فحسب، بل ما أحوج الدعاة إلى العودة الحقيقية إلى بيوتهم فيعنون بها، ويرمِّمون شعثها، ويسدُّون ما تصدّع منها، فإنهم أعون زاداً في الطريق لقائدهم، وأنت ترى أن أهل بيت أبي بكر الصديق رضي الله عنه يشاركون في نجاح أعظم خطَّة يعدُّها ﷺ من أجل دينه، فلقد شاركت عائشة، وأسماء، وعبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهم أجمعين في تحقيق هذا النجاح.

هـ ـ شرف الصحبة:

قال أبو بكر رضي الله عنه: الصحبة بأبي أنت يا رسول الله، قال ﷺ: «**نعم**»، والإنسان على قدر عزيمته ورشده وفلاحه، وكلما عني الإنسان بنفسه، واهتمَّ بتزكيتها، تشوّف الصالحون لصحبته، وعُرف قدره، وتشرّف كل مخلوق بالقرب منه.. لقد كان أبو بكر رضي الله عنه نموذجاً في ذلك كله فصار خليل رسول الله ﷺ وصاحبه.. وهو طريق مسلوك من عهد المرسلين، **ومن سَمَتْ همَّتُه شرُفَ الآخرون بصحبته**. والله المستعان.

و ـ لا أسألكم أجراً:

قال أبو بكر رضي الله عنه: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين، قال ﷺ: «**بالثمن**»، وأنت ترى هنا في هذا الموقف **استعلاء رسول الله ﷺ وعفَّته حتى عن مال صاحبه، وهكذا ينبغي أن يكون الدعاة على طريق الأنبياء والمرسلين، أعفَّ من أن يحتاج الواحد منهم إلى صاحبه، فكيف بعامة الناس ودهمائهم؟!.**

إن رسول الله ﷺ يقرر ـ حتى في مثل هذه الظروف التي هو في أمسِّ الحاجة إلى العون والرفقة والدعم ـ أن يأخذ، بشرط أن يكون لذلك مقابلٌ! وهذا منهج كبير في حدِّ ذاته، ومتى كانت أيدي الدعاة ممدودة

لرزق مخلوق على وجه الأرض يعطي اليوم ليمُنّ غداً؟! بل متى كانت رقابهم تتشوّف وتشرئبُّ إلى طمع في يد مخلوق؟!.

لقد كان قول الله تعالى على لسان أنبيائه: ﴿قُل لَّآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [هود: ٥١] أشهر من علَم في تاريخ المصلحين على وجه الأرض من فجر الإسلام إلى يومنا هذا.. وينبغي أن تكون كذلك إلى قيام الساعة.. وليعلم الدعاة أنه بقدر ما تمتد أيديهم إلى شيء من سفاسف الأرض أو حطام الدنيا فإنما تنحط من رتب الفضيلة إلى عالم المتسولين الضعفاء. والله المستعان..

إنه حين يحتاج أحد الدعاة إلى إخوانه ـ فضلاً عن الناس ـ ينبغي أن تكون كلمة: «**بالثمن**» هي منهج حياته، وحين يجد ودّاً أو صدقاً من مثل أعوانه إلى الفضيلة فليردَّها، أو ليردَّ أحسن منها اقتداءً وامتثالاً بمناهج الأنبياء. والله المستعان..

ز ـ دور أسماء وعبد الله ابني أبي بكر الصديق رضي الله عنهم:

قالت عائشة رضي الله عنها: فجهزناهما أحثَّ الجهاز، وصنعنا لهما سفرة في جراب ـ أي: زاداً في جراب ـ فقطعت أسماء قطعة من نطاقها ـ وهو ما يُشد به الوسط ـ فربطت به على فم الجراب؛ فبذلك سميت ذات النطاقين.

قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور، فمكثا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر، وهو غلام شاب ثقف ـ أي: حاذق ـ لقن ـ أي سريع الفهم ـ فيدلج من عندهما بسحر فيصبح من قريش بمكة كبائت فلا يسمع أمراً يكتادان به إلا وعاه، حتى يأتيهم بخبر ذلك حين يختلط الظلام.

ح ـ دور عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنهما:

ويرعى عليهما عامر بن فهيرة ـ مولى أبي بكر ـ منحة من غنم، فيريحها عليهما حتى تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رِسْلٍ ـ وهو اللبن الطري ـ حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس ـ أي: يصيح بغنمه ـ يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، وهذا كله من كمال العقل ومنهج الشرع، وقد قال شيخ الإسلام رحمه الله: **إن الاعتماد على الأسباب شرك، وتركها بالكلية قدح في العقل**. اهـ.

وأنت ترى هنا أن رسولك ﷺ جهد في أخذ كافة التدابير، وعمل كل ما يلزم في **الاستفادة من الأسباب المادية والمعنوية**، وتهيأ لهذه الرحلة تهيؤ العقلاء، ثم بعد ذلك يبقى الأمر لله تعالى من قبل ومن بعد.

ط ـ استئجار دليل مشرك:

واستأجر رسول الله ﷺ رجلاً من بني الديل ـ وهو من بني عبد بن عدي ـ هادياً خِرّيتاً ـ **والخريت**: هو الماهر بمعرفة المسالك والطرق ـ وهو على دين كفار قريش، فأمَّناه فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال، فأتاهما براحلتيهما صُبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة، والدليل، فأخذ بهم طريق الساحل(١).

وثمة درس في استئجار المشرك في هذا الموطن الخطير ما ينبئك **بجواز استئجار أهل الكفر والشرك بشرط أن يكونوا مؤتمنين**، إن القيم التي توجد عند المسلمين اليوم هي كذلك عند أهل الكفر والشرك **لا** فرق إلا في سُلّم هذه الأولويات فقط، **ذلك** أن كل هذه القيم التي جاء بها دين الإسلام هي مما تقرُّه العقول، ويرتضيه أولو الألباب، وحين تتكوّن في

---

(١) رواه البخاري.

فرد من الناس حتى لو كان مشركاً لا حرج في الاستعانة به، وقلَّ مثل ذلك في أهل الفسوق والعصيان، والله المستعان. .

ي ـ في غار ثور:

تمكّن المشركون من اقتفاء أثر النبي ﷺ وصاحبه حين علموا بخروجهما من مكة، ووصلوا إلى الغار، ووقفوا عليه حتى قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا نبي الله لو أن بعضهم طأطأ بصره لرآنا! فقال ﷺ: «**اسكت يا أبا بكر! ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما؟!**»[1]. . وقد أشار الله تعالى في كتابه الكريم إلى ذلك بقوله: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠].

إن الثقة بالله تعالى أعظم ما ينبغي أن تكون في نفوس الدعاة بشرط أن يسبقها الإعداد المادي، وحين يكتمل وسع الإنسان في تدابير النجاح عليه أن يدرك أنه يسير في رعاية الله تعالى، وهو حافظه وناصره ومعليه. . وهل سمعت الأمة في الثقة بوعد الله تعالى أعظم من هذه الكلمة: «**يا أبا بكر ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما؟!**».

لله درُّ الأنبياء في معرفتهم بربهم! ولله درُّهم في معرفة قدره! ولله درُّهم حين يقوم بقلوبهم سرُّ تعظيم الله تعالى وتوحيده.

إن الأزمات فقط هي كير العقيدة الحقَّة في قلوب الرجال، وحين يقف الداعية في مواقف الأزمات ثم تجد قلبه يمتلئ ثقة في ربِّه فاعلم أن ما سوى ذلك من التوحيد هباء لا فائدة فيه.

إن كثيراً من المتشدِّقين بكلمة التوحيد في مواقف النعم هم أول من

---

(١) رواه البخاري.

يخسر في مواقف المحن، أما نبينا ﷺ فأُمم الكفر بكل ما تملك من وسائل الدنيا تقف على فم الغار وهي تجيش كمداً وغيظاً، ثم لا تصل إليه مع أنه أقرب إلى الواحد منهم من شراك نعله، وهو مع ذلك كله يعلم يقيناً أنه لا سبيل إليه، ما دام أن عين الله تعالى ترعاه وتكلؤه وتحفظه عن أنظار المخلوقين.

إن العقيدة تصنع من المضَغ الصغيرة حجارة صلبة لا تدكُّها الأحداث مهما كانت كبيرة أو قوية! إن هذا المنهج الذي يضربه لنا القدوة هو أعظم منهج في حياة الدعوات، وعلينا إذا أردنا النجاح أن نستعدَّ بكل ما يمكن من أدوات النجاح الحسِّية، ثم علينا أن ننطرح بين يدي الله تعالى ذلّاً وخشوعاً وضعفاً، طالبين النصرة، داعين بالثبات والتوفيق.

ك ـ الصراع بين الحق والباطل:

ولما شعرت قريش بانفلات الأمر من يديها أعلنت عن مكافأة لمن يقتل النبي ﷺ وصاحبه.

إن قريشاً ما كانت البتة تتصوّر خروج محمد ﷺ من بينها لينطلق بدعوته يجوب أرض الله تعالى، لكنَّه الواقع يفرض نفسه، ولهذا دفعت بجائزة كبيرة لمن يقبض عليه ويعيده حيّاً إلى أرض مكة، وفي ذلك ما يعطيك دلالة على حجم الصراع بين الحق والباطل، الصراع بين الدعاة إلى الحق والدعاة إلى الباطل، الصراع بين المصلحين والمفسدين.

إن امتداد الصراع سنَّة إلٰهية تمتد بامتداد التاريخ، وما نبينا ﷺ إلا أنموذج على أثر الأنبياء والمرسلين.

إن الصراع أكبر من لحظة وأوسع من أرض قام عليها، بل هو الزمن

كلّه، والأرض بعامتها، لا انفكاك إلا حين تُدبر الدنيا بأسرها، وننتقل إلى عالم الآخرة المنتظر. . ذلك أن جزاء الدعوة والجهاد ليس اليوم، وإنما هناك على عرصات الجنان في عالم الآخرة. والله المستعان. .

ل ـ متابعة الرحلة وقصة سراقة:

انطلق ﷺ وصاحبه الصديق رضي الله عنه صوب المدينة في ظلٍّ هذا الاستنفار الكبير من قريش.

قال أبو بكر رضي الله عنه: «أسرينا ليلتنا كلها، حتى قام قائم الظهيرة، وخلا الطريق فلا يمرُّ فيه أحد، حتى رفعت لنا صخرة طويلة لها ظل لم تأتِ عليه الشمس، فنزلنا عندها، فأتيت الصخرة فسويت بيدي مكاناً ينام فيه النبي ﷺ في ظلِّها، ثم بسطت له عليه فروة، ثم قلت: نم يا رسول الله وأنا أنفض لك ما حولك، فنام، وخرجت أنفض ما حوله، فإذا أنا براعي غنم مقبل بغنمه إلى الصخرة يريد منها الذي أردنا، فلقيته فقلت: لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجل من أهل المدينة أو مكة، فقلت: أفي غنمك لبن؟ قال: نعم، قلت: أفتحلب لي؟ قال: نعم، فأخذ شاة فقلت له: انْفُضِ الضرع من الشعر والتراب والقذى، فحلب لي في قعب معه كُثبة من لبن. . قال: ومعي إداوة أرتوي فيها للنبي ﷺ ليشرب منها ويتوضأ، فأتيت النبي ﷺ وكرهت أن أوقظه من نومه، فوافقته استيقظ، فصببت على اللبن من الماء حتى برد أسفله، فقلت: يا رسول الله! اشرب من هذا اللبن، قال: فشرب حتى رضيت. . ثم قال: «**ألم يأن الرحيل؟**» قلت: بلى، قال: فارتحلنا بعدما زالت الشمس. .

واتَّبعنا سراقة بن مالك، ونحن في جَلْدٍ من الأرض، فقلت: أُتينا يا رسول الله، فقال: «**لا تحزن إن الله معنا**» فدعا عليه النبي ﷺ فارتطمت

به فرسه إلى بطنها ـ أُرى ـ فقال: إني قد علمت أنكما قد دعوتما عليّ، فادعوا لي، فالله لكما أن أردَّ عنكما الطلب، فدعا له النبي ﷺ فنجا، فجعل لا يلقى أحداً إلا قال: كُفيتم ما ههنا، فلا يلقى أحداً إلا ردَّه، قال: ووفّى لنا»[١].

وفي رواية: قال: فلما دنا دعا عليه رسول الله ﷺ، فساخ فرسه في الأرض إلى بطنه، ووثب عنه، وقال: يا محمد! قد علمت أن هذا عملك، فادعُ الله أن يخلصني مما أنا فيه، ولك عليّ لأعمّينّ على من ورائي، وهذه كنانتي فخذ سهماً منها، فإنك ستمرُّ على إبلي وغلماني بمكان كذا وكذا فخذ منها حاجتك، فقال: «**لا حاجة لي في إبِلك**»[٢].

وثمة درس آخر ينبغي أن يعيَه الدعاة والمصلحون: **أن القلوب بين يدي الله تعالى يقلِّبها كيف يشاء، والناس مهما طغت وتجبرت وأعرضت عن وحي الله تعالى هي في الوقت ذاته أقرب ما تكون إلى ربها**، والشواهد التي يرونها من آيات الله تعالى أو أخلاق حُمّال الرسالة تسهم في ردِّهم إلى دين الله تبارك وتعالى، لقد كان سراقة بن مالك قبل لحظات يطارد صاحب الرسالة، ويتقرب بسقوط دين الله تعالى، ويشرف بالجاهلية الظلماء، وفي نفس اللحظة يعود مؤمناً بربه، متبعاً لرسوله، حامياً عن حياض الدعوة، جنديّاً من جنود دين الله تعالى! فيا لله ما أقرب الناس إلى دين الفطرة! وما أعجلنا إلى استعجال الثمار اليانعة قبل حلول قطافها. والله المستعان..

وفيه كذلك: **عظيم عناية الله تعالى برسوله ﷺ**، فإنه يخرج من بين أظهر أمة الكفر، يخرج على أعينهم، فرداً إلا من عناية الله تعالى، وأعزلَ

(١) متفق عليه.
(٢) رواه مسلم.

إلا من منهجه ورسالته، ثم يصل إلى مراده وبغيته لا تتطاول إليه أيدي المعرضين المفسدين.. وهكذا كل من تعلّق بالله تعالى، ونزل بساحته الكريمة لقي من لطف الله تعالى وعنايته وسكينته وتطمينه ما تقرُّ به عينه، وتهدأ به نفسه، وتسكن إليه روحه. والله المستعان..

م ـ في خيمة أم معبد:

نزل رسول الله ﷺ ومن معه في خيمة أم معبد، فأرادوا القِرى، فقالت: والله ما لنا طعام ولا لنا منحة، ولا لنا شاة إلا حائل، فدعا رسول الله ﷺ ببعض غنمها فمسح ضرعها بيده، ودعا الله تعالى، وحلب في العس ـ أي: القدح ـ حتى رغى، وقال: «**اشربي يا أم معبد**» فقالت: اشرب أنت أحق به، فردَّه عليها فشربت، ثم دعا بحائل أخرى ففعل بها مثل ذلك فشرب، ثم دعا بحائل أخرى فسقى أصحابه.

وطلبت قريش رسول الله ﷺ حتى بلغوا أم معبد فسألوها عنه فقالوا: رأيت محمداً وحليته كذا؟ فوصفوه لها، فقالت: ما أدري ما تقولون، قد ضافني حالب الحائل، قالت قريش: فذلك الذي نريد(١).

وكان الرجل يلقى أبا بكر فيقول: يا أبا بكر من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرجل يهديني السبيل(٢).

ن ـ الوصول إلى المدينة:

وكان المسلمون في المدينة قد سمعوا خبر خروج النبي ﷺ من مكة، فكانوا يغدون كل غداة إلى ظاهر المدينة ينتظرونه، حتى إذا اشتد الحر عليهم عادوا إلى بيوتهم، حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه انتظروه،

---

(١) حَسَّنَ إسناد هذه القصة بمجموع طرقها: ابن كثير، والألباني.
(٢) رواه البخاري.

حتى إذا لم يبقَ ظل يستظلون به عادوا، فقدم الرسول ﷺ وقد دخلوا بيوتهم، فبصر به يهودي على أُطم من آطامهم لأمر ينظر إليه، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب هذا جدُّكم الذي تنتظرون.

تلقَّى المسلمون رسول الله ﷺ وصاحبه أبا بكر وهما راكبان، وصعد الرجال والنساء فوق البيوت، وتفرّق الغلمان والخدم في الطرق ينادون: يا محمد، يا رسول الله، يا محمد، يا رسول الله[١].. وأشرف بعضهم يقول: جاء نبي الله، جاء نبي الله[٢]..

وكان قدومه ﷺ في يوم الإثنين من شهر ربيع الأول[٣]، آخر النهار من ذلك اليوم، ونزل ﷺ في قباء في بني عمرو بن عوف، وبقي أربع عشرة ليلة، وأسس مسجد قباء، **وفي تأسيس المسجد أول قدومه، وعنايته بذلك أعظم دليل على آثار المسجد في حياة الأمة.**

بالأمس كان المسجد هو كل شيء، واليوم مع كل أسف صار المسجد لا شيء! وإذا أراد فرد، أو أسرة، أو مجتمع حياةً ملؤها العز والرفعة والحياة الطيِّبة؛ فعليهم بالمسجد، عليهم أولاً أن تمتلئ نفوسهم طمأنينة من خلال هذا المسجد، ثم لا عليهم بعد ذلك ما يواجهون! والله المستعان..

وعزم ﷺ أن يدخل المدينة، فأرسل إلى زعماء بني النجار فجاؤوا

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري. ويوهّن جماعة من العلماء كابن القيم رحمه الله النشيد الدارج على ألسنة الناس: أنَّ أهل المدينة استقبلوا رسول الله ﷺ بقولهم: طلع البدر علينا من ثنيات الوداع؛ لمقال في سندها، والإشكال في مقالها؛ حيث إن ثنيات الوداع إنما هي من ناحية الشمال لا يراها القادم من مكة إلى المدينة.

(٣) متفق عليه.

متقلدين سيوفهم وهم قريب من خمسمئة رجل، وأحاطوا برسول الله ﷺ وصاحبه وهما راكبان، وأقبل ﷺ يسير حتى نزل بجانب دار أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه فتساءل: «**أي بيوت أهلنا أقرب؟**» فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله، هذه داري، وهذا بابي، فنزل في داره، ثم أمر ﷺ ببناء المسجد في أرض كان فيها نخل لغلامين يتيمين من بني النجار(١)، وقد اشتراها ﷺ، وقام المسلمون بتسويتها وقطع نخيلها وصفوا الحجارة في قبلة المسجد.

وهكذا تمت تلك الهجرة المباركة بما فيها من لأواء الطريق، وأراد الكافرون أمراً، وأراد الله تعالى أمراً آخر..

وحلَّ ﷺ ضيفاً على أهل المدينة، وخلّف بلده مكة التي نشأ فيها وأحبها خلف ظهره، وقد وقف ﷺ وهو خارج منها بالحزوّرة فقال: «**والله إنك لأحب أرض الله إليّ، ولولا أن قومك أخرجوني ما خرجت**».. خرج من مكة وترك الجموع الغفيرة المعاندة تطارد في هباء، وتجري في غير طائل، ومثل ذلك صحابته الكرام رضوان الله عليهم، فقد كان بلال رضي الله عنه يردد:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً ... بوادٍ وحولي إذخرٌ وجليلُ
وهل أرِدَنَّ يوماً مياهَ مجنّة ... وهل يبدون لي شامةٌ وطفيلُ

ولما رأى ﷺ تلك الحال بأصحابه قال: «**اللهم حبِّبْ إلينا المدينة كحبِّنا مكة أو أشد وصححها، وبارك لنا في صاعها ومدها، وانقل حمّاها فاجعلها بالجحفة**». وقال ﷺ: «**اللهم أمضِ لأصحابي هجرتهم، ولا تردَّهم على أعقابهم**».

---

(١) رواه البخاري.

وهكذا طوت مكة ذكراها من هذه السيرة المباركة حتى كان يوم الفتح الذي عاد فيه النبي ﷺ مرة أخرى إلى تلك الديار المباركة. والله المستعان..

وهكذا انتهت أحداث هذه الهجرة بما فيها، وها أنت تقرأ هذه الدروس والنفثات، وأحسب أنها بعض ما فيها وليست كلها، ومن أراد أبواب العزِّ فعليه أن يفقه ما يقرأ. والله المستعان..





الفصل الرابع عشر

بناء المجتمع الجديد

أولاً ـ بناء المسجد:

وصل النبي ﷺ إلى المدينة، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «قدم النبي ﷺ المدينة في حي يقال لهم: بنو عمرو بن عوف، فأقام ﷺ أربع عشرة ليلة، ثم أرسل إلى بني النجار فجاؤوا متقلدي السيوف، كأني أنظر إلى النبي ﷺ على راحلته وأبو بكر ردفه، وملأ بني النجار حوله، حتى ألقى بفناء أبي أيوب، وكان يحب أن يصلي حيث أدركته الصلاة، ويصلي في مرابض الغنم، وإنه أمر ببناء المسجد، فأرسل إلى ملأ بني النجار فقال: «**يا بني النجار، ثامنوني بحائطكم هذا**»؟ قالوا: لا والله لا نطلب ثمنه إلا من الله، قال أنس رضي الله عنه: فكان فيه ما أقول لكم قبور المشركين، وفيه خرب، وفيه نخل، فأمر النبي ﷺ بقبور المشركين فنُبشت، وبالنخل فقطعت، فصفوا النخل قبلة المسجد[1]، وجعلوا عضادتيه الحجارة.

وجعلوا ينقلون الصخر وهم يرتجزون، والنبي ﷺ معهم وهو يقول:

«اللهم لا خير إلا خير الآخرة فاغفر اللهم للأنصار والمهاجرة»

لقد بدأ النبي ﷺ بالمسجد أول دخوله المدينة، ذلك أنه أصل انطلاقة الرسالة إلى العالمين.

---

(١) متفق عليه.

إن الأمة التي لا تجد لها مكاناً تتروّى منه لتنطلق إلى عالم الناس لا تكاد تفلح البتة، هكذا كان مسجد رسول الله ﷺ، لقد كان النور الحقيقي لهذه الرسالة ينبعث منه فيلامس قلوباً ظمأى، فيرويها بالسكينة والإيمان، ويبعث فيها من القوة ما كان يكفي لحرب أعداء الدعوة في كل مكان.. هكذا كان المسجد في صدر الإسلام، وبات اليوم مكاناً يهرع الناس إليه فزعين، ويخرجون منه فزعين دون أن تستقر قلوبهم في رحابه أو يجدون ملاذاً روحانيّاً في جنباته..

إنني أرى في عالم اليوم مساجد ضخمة رسمت فيها أيدي المنفقين أعظم مآثر البناء الإسلامي، ومع ذلك كله لم نرَ بعد روحانية القلوب! وحين أدرك الغرب سرَّ ذلك لم يمانعوا في بناء المساجد في دولهم؛ لأنهم عرفوا أن البناء لا يحوّل أمة إلى الإسلام ما لم تجد مصلحين يشعلون في المساجد قناديل الضياء من جديد!.

بل استجابت حتى الأنظمة اليوم لنعيق المنافقين، وهيشات المعوِّقين فحدَّدت وقتاً ضيّقاً لأداء العبادة ليقفل بعدها المسجد.

إن المساجد لن تعود إلى سابق عهدها يوم كانت ميداناً حافلاً بالدعوة، والجهاد، والإصلاح.. ما لم تجد أئمة مصلحين يعيدون لها تاريخها المنتظر!.

يا أيها الدعاة! يا أيها الفضلاء! يا أيها المصلحون! دونكم بيوت الله تعالى فارعوها حقَّها، وقوموا بواجبها، وسترون أجيال الغد كيف تنبت من جديد!..

ثانياً ـ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

انتهى بناء المسجد، وتكونت اللبنة الأولى لبناء الأمة، فشرع ﷺ يهيئ الأجواء الروحانية، ويعانق بين الأرواح، ويؤلّف بين القلوب لتتآزر الأمة، ويلتف بعضها حول بعض، فتجتمع كلمتها، فتقبل على المسجد وهي خالية من كل ما يبعثر وحدتها...

إن المسلمين اليوم يدخلون بيوت الله تعالى فيأتلفون في صف واحد، وبين قلوبهم مفاوز عظيمة، وآماد بعيدة، فكان هذا التأخّر المرير. والله المستعان.

استقبل الأنصار إخوانهم المهاجرين استقبالاً حافلاً بالكرم، وطيب النفس، والعون لهم في كل ما يطلبون، وخلّد الله تعالى ذكرهم بذلك في قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، ومع كل ذلك أراد رسول الله ﷺ أن يضع نظاماً لهذه المؤاخاة تستقيم به هذه الحياة على مَرِّ الأيام، فشرع ﷺ هذا النظام في السنة الأولى من الهجرة، وآخى ﷺ بين كل مهاجري وأنصاري، وشملت هذه المؤاخاة كل أوجه المواساة والمعاونة على أعباء هذه الحياة، كما ترتّب عليها أن يتوارث المتآخون دون ذوي أرحامهم.

وبقي هذا التوارث إلى أن ألف المهاجرون جوَّ المدينة، وعرفوا مسالك الرزق، وأصابوا من غنائم بدر ما كفاهم، ثم رجع التوارث إلى وضعه الطبيعي على أساس صلة الأرحام، وأبطل التوارث بين المتآخين؛ وذلك بقول الله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥]، وبلغت هذه المؤاخاة ذروتها الحقيقية، وباتت في ذلك الوقت تطبيقاً عملياً لأخلاق الإسلام وتعاليمه، ومن أوضح الأمثلة على

صدق هذه المؤاخاة وتحقيق أغراضها ما حدث بين سعد بن الربيع الأنصاري وعبد الرحمن بن عوف المهاجري رضي الله عنهما؛ حيث قال سعد: إن لي مالاً فهو بيني وبينك شطران، ولي امرأتان فانظر أيهما أحب إليك فأنا أطلقها فإذا حلَّت فتزوجها، فقال له: بارك الله لك في أهلك ومالك.. دلَّني على السوق[١].

إن الدين يعلّم الجماعية، ويؤلّف بين القلوب، ويجمع الشمل، ويقصر عين الطامع إلى زاد الدنيا، فتأتلف به القلوب، وتهيم بعد ائتلافها تبحث عن الخيرات في سبله، وليس لها سبيل غير رضوانه. والله المستعان..

هكذا كان الأنصار مع أصحابهم المهاجرين، وأنا أسوق هذه الأمثلة اليوم عبر هذه الأسطر وأرى بوناً شاسعاً بيننا وبينهم، وهوَّة يحتاج ردمها إلى تكاتف كثير من الجهود، وكم كانت هذه وأشباهها لا تكاد تُعد في مجتمعاتنا من كثرتها، وتوارت اليوم أو كادت، وهذه المعالم من سير الأنصار مع إخوانهم المهاجرين، معالم بحاجة إلى أن تترسّم من جديد في حياة الدعاة قبل غيرهم، ولن تصل الأمة إلى القوة والنصرة والتناصر على وجه الحقيقة حتى تأتلف بمثل هذه الصور العظيمة. والله المستعان..

ثالثاً ـ أهل الصُّفَّة:

هؤلاء هم الفقراء من المهاجرين الذي كانوا يصلون إلى المدينة من الوافدين عليها من مكة، والذين لا يستطيعون العمل لظروفهم وأحوالهم، وعدم قدرتهم على العمل، وعند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى

---

(١) رواه البخاري.

الكعبة بعد قريبٍ من ستة عشر شهراً من الهجرة، بقي حائط القبلة الأولى في مؤخرة المسجد النبوي، فأمر النبي ﷺ به فسقف، وحلَّ فيه هؤلاء الفقراء، وأطلق عليه اسم أهل الصُّفَّة.

أهل الصُّفَّة فقراء لكنَّهم أهل إيمان! ضعفاء لكنَّهم أهل يقين! معوزون لكنهم أصحاب تضحيات، ومثل هؤلاء يتوسّع لهم التاريخ، ويبقي لهم مساحة من صفحاته يدوِّنون فيها تضحياتهم في ظلِّ فقرهم، وتاريخهم مع قلَّة ما بأيديهم، ويكفيهم شرفاً أنهم يدخلون الجنة يوم القيامة قبل الأغنياء بزمن يقدّر بالسنوات. والله المستعان..

لقد ظلَّ النبي ﷺ يتعهد أهل الصُّفَّة بنفسه فيزورهم ويتفقَّدهم، وكان إذا أتته صدقة بعث بها إليهم، ولم يصب منها شيئاً، وإذا جاءته هدية أرسل بها إليهم بعد أن يصيب منها[1].. **وهكذا يظلُّ الكبار في كل مجتمع يعيشون هم وأصحابهم، ويرعون فقرهم وظروفهم، وهذه مهمة الكبار في كل عصر ومصر.**

رابعاً ـ تحويل القبلة إلى الكعبة:

ظلَّ النبي ﷺ يستقبل بيت المقدس في صلاته طيلة بقائه في مكة، وكانت الكعبة بينه وبين المسجد الأقصى أثناء ذلك، وهاجر النبي ﷺ واستمر على استقبال بيت المقدس ستة عشر شهراً، وظلَّت أمنيته أن يتحوَّل إلى الكعبة، وفي منتصف شهر شعبان في السنة الثانية من الهجرة أمره الله تعالى بالتحوّل في صلاته إلى الكعبة، وحقق له ما أراد كما في قول الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ [البقرة: ١٤٤].

---

(١) رواه البخاري.

لقد ظلَّ التوجُّه إلى الكعبة في مكة همّاً يعيشه النبي ﷺ، وأمنية تخالج قلبه، وروحه التي تسري في فضاء الأماني كل ليلة، وفي النهاية كتب الله تعالى له كل ذلك، فجعل الكعبة في مكة قبلته وقبلة المسلمين إلى يوم الدين.

إن مكة اليوم هي قبلة المسلمين في الأرض كلها، وهي روح الأمة في كل مكان، وأرض هذه بعض مكانتها أرض حقيقة بالتعظيم والتكريم، وأرى اليوم مشروعاً ضخماً باسم «تعظيم البلد الحرام» وهو بعض ما لمكة في أعناق أصحابها الأوفياء، وأرى الأمة كلّها مسؤولة عن نجاح هذا المشروع بذاته، ومسؤولة عن ابتكار مشاريع من شأنها أن ترفع مقام هذا البلد، وتكتب عزَّه في صور من التكريم كبيرة. والله المستعان..

خامساً ـ الإذن بالجهاد:

يقول ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أول ما أوحى الله إلى نبيه ﷺ أن يقرأ باسم ربه الذي خلق، وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ، ثم أنزل الله تعالى عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١ ـ ٢]، فنبأه بقوله: ﴿ٱقْرَأْ﴾، وأرسله بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، فأنذر قومه، ثم أنذر من حولهم من العرب، ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العالمين، فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة من غير قتال ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح، ثم أذن له بالهجرة، وأذن له في القتال، ثم أمره في ذلك أن يقاتل من قاتله، ويكف عن من اعتزله ولم يقاتله، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كلُّه لله». اهـ.

لقد ظلَّت هذه المدة الزمنية كلُّها ميداناً فسيحاً للدعوة، وكانت

كافية لإقناع الناس بدين الله تعالى، وكان الجهاد ممنوعاً؛ لأن الفترة المكّية كانت كما يقول سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ: «فترة تربية وإعداد، في بيئة معينة، لقوم معينين، وسط ظروف معينة.

ومن أهداف التربية والإعداد في مثل هذه البيئة بالذات: تربية الفرد العربي على الصبر على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم حين يقع على شخصه أو على من يلوذون به، ليخلص من شخصه، ويتجرّد من ذاته، ولا تعود ذاته، ولا من يلوذون به محور الحياة في نظره، ودافع الحركة في حياته، وتربّيه كذلك على ضبط أعصابه، فلا يندفع لأول مؤثّر ـ كما هي طبيعته ـ، وتربيته كذلك على اتباع القيادة والانقياد لمنهجها، والرجوع إليها في كل أمر... وهذا كان حجر الأساس في إعداد شخصية العربي لإنشاء المجتمع المسلم الخاضع للقيادة، المترقّي المتحضّر غير الهمجي أو القبلي». اهـ.

وأسباب أخرى وقفت حائلاً دون السماح بالجهاد، منها: التربية، وتخليص النفس من شوائبها. والله تعالى أعلم.

إن الذي لا يستطيع أن يتجاوز أمراضه التي تجثم على قلبه قد لا يبعد كثيراً في تخليص الناس من أدوائهم وأمراضهم! والنفس المعلولة لا يمكن أن تشفي السقام! فلا بد إذاً من التجرّد لهذه الشريعة أولاً، وبناء أولويات هذا الدين، والتدريب على طاعة القادة مهما كان الصالح في نظر الأتباع، ولما أن صفت هذه المعاني، وتجلّت كثيراً في نفوس القوم بدأت مرحلة المواجهة بجهاد الطلب.

ومن المعلوم أن الجهاد لم يشرع لإركاس النفوس النافرة في الإسلام! كلا! وإنما شرع لإزالة العقبات من طريق الدعوة، وتهيئة

الأجواء المناسبة للإسلام، ومن ظنَّ الأمر الأول فلا زال بعيداً عن معاني الإسلام الحقيقية، ومن تيقن الأمر الثاني أدرك سرّ تميّز الإسلام، وروعته. . ومن ثم شرع الجهاد، وتوالت الغزوات، وإليك أحداث ذلك كله. .





الفصل الخامس عشر

غزوة بدر الكبرى

أولاً ـ رصد عير قريش:

ظلَّ المسلمون يتتبعون أخبار عِير قريش، فلما بلغهم تحرُّك قافلة كبيرة لقريش عائدة من الشام؛ ترصَّدوا لها، وكان قائد تلك العير أبو سفيان، وكانت تحمل أموالاً عظيمة لقريش، ويحرسها ثلاثون أو أربعون رجلاً، وكان النبي ﷺ قد أرسل بَسْبَس بن عمرو، وعدي بن الزغباء لاستطلاع أخبار القافلة، فلما بلغه خبرها ندب أصحابه للخروج، وتعجّل بمن كان مستعدّاً دون أن ينتظر غيرهم خوفاً من فوات القافلة، فلم يكن جيش المسلمين ببدر يمثّل قوة المسلمين العسكرية كلها.

خرج المسلمون إلى بدر وعددهم ثلاثمئة وتسعة عشر رجلاً فقط، منهم مئة من المهاجرين، وبقيتهم من الأنصار.. معهم سبعون بعيراً يتعاقبون عليها، كما صوّر الله تعالى ذلك في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ٥ ـ ٧].

فبلغ أبا سفيان خروج المسلمين لأخذ القافلة، فسلك بها طريق الساحل وأرسل ضمضم بن عمرو لاستنفار أهل مكة.

فلما بلغ قريش الخبر خرجت دفاعاً عن قافلتها، وحاولت قريش أن

تجنّد كل طاقاتها للخروج، فلم يتخلّف أحد من قلّة إلا أبا لهب فقد أرسل مكانه رجلاً آخر، وقد وصل عددهم إلى ألف مقاتل، ونجت قافلتهم، ووصل بها أبو سفيان إلى برِّ الأمان، غير أنهم لم يرجعوا، وأرادوا تأديب المسلمين ـ زعموا ـ في تعديهم على قوافلهم.

ثانياً ـ النبي ﷺ يستشير أصحابه في القتال:

ولما رأى رسول الله ﷺ جدِّية الأمر استشار صحابته رضوان الله عليهم، فقام أبو بكر رضي الله عنه فقال وأحسن، ثم قال ﷺ: «**أشيروا عليّ أيها الناس**»، ثم قام عمر رضي الله عنه فقال وأحسن، ثم قال ﷺ: «**أشيروا عليّ أيها الناس**»، ثم قام المقداد بن عمرو رضي الله عنه فقال: يا رسول الله امضِ لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه.. فقال ﷺ خيراً ودعا له، ثم قال ﷺ: «**أشيروا عليّ أيها الناس**».. وإنما كان ﷺ يريد الأنصار لأنهم الأكثرية يومئذ، وهذه أول غزوة يخرج فيها الأنصار، وقد أراد ﷺ أن يعرف رأيهم دون غيرهم.

فقام سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ فقال: «**أجل**» قال: آمنا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك، فامضِ يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلّف منّا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصُبر في الحرب، صُدق في اللقاء، لعلَّ الله يريك منّا ما تقرّ به عينك، فسِر على بركة الله..

قال: فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد رضي الله عنه ثم قال: «**سيروا وأبشروا؛ فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم**».

ثالثاً - إلى بدر:

وتابع المسلمون سيرهم إلى بدر، وقد عرفوا ما هم سائرون إليه، ولئن فاتتهم عِير أبي سفيان فإن الانتصار على الباطل هي بشارة نبي الله ﷺ الأخرى التي ما زالوا ينتظرونها.

وصل المسلمون إلى بدر، وقاموا باستطلاع المكان قبل وصول المشركين، وقد وصف علي رضي الله عنه واقع هذه المعركة قبل حدوثها فقال: «بات المسلمون ليلة السابع عشر من رمضان ببدر وأمامهم معسكر المشركين، وما منَّا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ، فإنه كان يصلي إلى شجرة ويدعو حتى أصبح، ثم إنه أصابنا من الليل طش من مطر، فانطلقنا تحت الشجر نستظل من المطر، وبات ﷺ يدعو ربه ويقول: «**اللهم إنك إن تهلك هذه الفئة لا تُعبد**».. فلما طلع الفجر نادى: «**الصلاة عباد الله**»، فجاء الناس من تحت الشجر فصلى بنا رسول الله ﷺ وحرّض على القتال»(١).

ونزل المطر ذلك اليوم لحكمة أرادها الله تبارك وتعالى، ولأمر أراد أن يمضيه؛ قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

وغشي المسلمين النعاسُ وهم في أحداث المعركة، قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: ١١].

---

(١) رواه الإمام أحمد بسند صحيح. انظر: السيرة النبوية الصحيحة، للعمري.

وفي صبيحة يوم السابع عشر من شهر رمضان المبارك نظّم رسول الله ﷺ صفوف جيشه، وأعدهم للمواجهة، وبُني له ﷺ عريشٌ، أو قبَّة ليدير منها المعركة باقتراح من سعد بن معاذ رضي الله عنه، وقد بقي فيه النبي ﷺ زمناً قبل بدء المعركة، دعا فيه ربَّه بالنصر، وتضرّع حتى سقط رداؤه ﷺ عن ظهره.

قال عمر رضي الله عنه: «لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمئة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة ثم مدَّ يديه، فجعل يهتف بربه: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض**».. فما زال يهتف بربه مادّاً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه.. فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، فقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك.. فأنزل الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].. وأمده الله تعالى بالملائكة.

يظلُّ الدعاءُ دليل صدق، ويظلُّ الإلحاح من العبد في مواطن الحاجة دليل وعي، وما تنزّلت رحمة ما تنزّلت بالدعاء! إن الدعاء أعظم الوسائل التي تهتف بالنصر، إنه عبادة يهتف بها الضعفاء في مواقف الفتن دليلاً على ضعفهم وعجزهم وحاجتهم إلى الله تعالى! وما صدق عبد ربه في هذا الهتاف إلا تنزّل النصر والخير، والإجابة أسرع ما يكون.

رابعاً ـ وقائع المعركة:

خرج ﷺ من العريش وباشر القتال مع المسلمين حتى قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ، وهو

أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً»[(١)].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد قاتل بنفسه الكريمة قتالاً شديداً ببدنه، وكذلك أبو بكر الصديق، كما كانا في العريش يجاهدان بالدعاء والتضرع، ثم نزلا فحرّضا وحثَّا على القتال، وقاتلا بالأبدان جمعاً بين المقامين الشريفين». اهـ.

وأخذ ﷺ يوجّه أصحابه في هذا الموطن فقال: «**لا يقدمن أحدٌ منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه**».

وقال: «**إذا أكثبوكم** ـ أي: قربوا منكم ـ **فارموهم واستبقوا نبلكم**». وفي لفظ: «**إذا أكثبوكم، فعليكم بالنبل**»[(٢)].

وقبيل بدء المعركة أخذ رسول الله ﷺ يهيّج صحابته على اللقاء، ويذكِّرهم بما أعد الله تعالى لهم إن صدقوا في اللقاء، فقال: «**قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض**»، فلما سمع عُمير بن الحُمام الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ذلك قال: يا رسول الله! جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: «**نعم**»، قال: بَخٍ بَخٍ، فقال ﷺ: «**ما يحملك على قولك: بَخٍ بَخٍ؟**» قال: لا والله يا رسولَ الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها. قال: «**فإنك من أهلها**».. فأخرج تمرات من قَرنهِ فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة!.. قال: فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قُتل.

وقبل التحام الصفَّين برز ثلاثة من فرسان قريش يطلبون المبارزة؛ هم: عتبة بن ربيعة، وابنه الوليد بن عتبة، وأخوه شيبة بن ربيعة، فقام

---

(١) رواه الإمام أحمد، وصححه أحمد شاكر.

(٢) رواه البخاري.

إليهم ثلاثة من شباب الأنصار، فرفضوا مبارزتهم طالبين مبارزة بني قومهم، فأمر ﷺ: حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، وعبيدة بن الحارث ﵃؛ للخروج لمبارزة القوم، وخرجوا رحمهم الله تعالى ورضي عنهم وأسكنهم فسيح جناته، ولم يكن الفارق سوى لحظات حتى قتل حمزةُ عتبةَ، وقتل عليٌّ شيبةَ، وتقاتل عبيدة والوليد وكل منهما جرح صاحبه فأقبل إليهما حمزة وعلي وقتلوا الوليد واحتملا عبيدة إلى معسكر المسلمين.

ثم أخذ ﷺ حصى من الأرض ثم رماه في وجوه المشركين، قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

نزل المسلمون ساحة المعركة وهم محفوفون بنظر الله تعالى، وتوفيقه، وتسديده..

نزلوا المعركة وهم يتأملون الوحي: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١]..

نزلوا وهم محفوفون بأعظم وسائل النصر: الدعاء، فقد كان قائدهم ﷺ مثالاً في الإخبات، والصدق، والإقبال على الله تعالى، وفي مثل هذه الأحوال لا يكاد يتخلّف النصر البتة..

نزلوا إلى ساحات المعركة وصورة النزال المبكّر الذي سقط فيه عتبة، والوليد، وشيبة، تملأ القلوب شجاعة وقوة..

نزلوا إلى ساحات المعركة ولم يكن لهم مطمع في شيء من الدنيا البتة، جاؤوا لله تعالى، مؤيدين لدينه، راغبين في انتصار منهجه، ساعين في طمس معالم الكفر، وهذه العوامل كلها كانت بمثابة مقدمة للنصر المأمول بإذن الله تعالى.

ولا يمكن لدعوة في الأرض صادقة، مخلصة، آخذة بسنن الله تعالى في سلمها وحربها أن تسقط مبادئها أو تنكّس راياتها البتة! ما علمنا هذا في تاريخ الإسلام من قبل! ولا شهدناه في أحداثه من بعد. والله المستعان..

نزلوا في ساحة المعركة، فنزلت معهم الملائكة؛ قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]، وقال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢].

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه؛ إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: اقدم حيزوم ـ اسم فرس الملَك ـ. فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد خُطِمَ أنفُهُ، وشُقّ وجهُهُ كضربة السوط، فاخضرّ ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدّث بذلك رسول الله ﷺ فقال: «**صدقت.. ذلك مدد من السماء الثالثة**»[١].

وقد جاء رجل من الأنصار بالعباس أسيراً، فقال العباس: يا رسول الله! إن هذا والله ما أسرني، لقد أسرني رجلٌ أَجْلَحُ من أحسن الناس وجهاً على فرس أبلق، ما أراه في القوم، فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول الله، فقال ﷺ للأنصاري: «**اسكت، فقد أيدك الله تعالى بملك كريم**»[٢].

وفي الحديث: أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «**هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب**»[٣].

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه الإمام أحمد، وحسنه الألباني.
(٣) رواه البخاري.

إن الله تعالى ليس بينه وبين الناس نسب إلا هذا الإيمان؛ إذا أحاط يقيناً بمعاقل القلوب والأرواح، لقد رقي الإيمان في قلوب صحابة رسول الله ﷺ حتى تنزّلوا النصر من السماء، وهكذا هو الإيمان يصنع العجائب! وإذا أرادت أمة من الأمم أن يتكرّر المشهد حقيقة فليس لها إلا تلك العروة تَشُد وَثاقَها، وتتعلّق بها فحسب.

لقد نزلت الملائكة تقاتل، وصرعت أقواماً على الأرض، وكتبت مُشَارِكة: إن الأرض أرض الله تعالى، والدين دينه، والنصر لأوليائه بشرط أن يصدقوا مع أنفسهم حقيقة، وإذا كان أمين الوحي جبريل آخذاً برأس فرسه على أرض بدر فلا يمكن أن يُبقي الإيمان بعد ذلك شيئاً، والله المستعان. .

أخذ المشركون يتساقطون صرعى، تتساقط أجسادهم أمام قوة الرجال، وشجاعتهم أمام همم الأبطال، وقبل ذلك تساقطت نفوسهم مكلومة أمام قوة الحق واليقين، وإذا سقطت المبادئ، وانهزمت القيم، وتزعزت النفوس؛ فما تفعل الأجساد الخالية من المعاني السامية؟!. .

خامساً ـ بعد المعركة:

قُتل من المشركين سبعون، وأسر سبعون، وفرَّ الباقون، لا يلوون عنقاً على شيء في أرض المعركة البتة. . وكأن حال الواحد منهم يقول: نفسي نفسي.

أما جيف الأرض من أولئك الكفرة فقد أمر النبي ﷺ بسحبهم إلى آبار ببدر وألقوا فيها، وأما الأسارى فهم في الحوزة، وبعد مغادرة بدر لهم شأن.

بقي النبي ﷺ وصحابته ببدر ثلاثة أيام بعد المعركة، دُفن فيها شهداء المسلمين، الراحلون إلى أرض الجنان! الذين كتبوا على أرض الله

تعالى عموماً، وعلى أرض بدر على وجه الخصوص أنهم لم يرحلوا حتى بلّوا ثراها بالدماء، إيماناً منهم أن الحياة الكريمة إما أن يكون دين الله تعالى هو الحاكم على الأرض، المهيمن عليها، وإلا فالشهادة خير من الحياة على وجه الذلة والضعف.

فـإمـا إلـى الـنـصـر فـوق الأنـام وإمـا إلـى الله فـي الـخـالـديـن

وقف ﷺ في اليوم الثالث على أربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش، ممن سُحب إلى تلك الآبار وألقي فيها؛ فجعل يناديهم بأسمائهم، وأسماء آبائهم. . . «**أيسرُّكم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقّاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقّاً؟**».

قال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله ما تكلّم من أجساد لا أرواح فيها؟.

فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**»[1].

نعم إنهم سمعوا كل ما قاله النبي الكريم ﷺ، سمعوا لكن بعد فوات الأوان، لقد ظلَّ ﷺ يحاول إسماعهم هذه النتائج قبل اليوم بسنوات، لكنهم ظلُّوا يرفضون ذلك السماع، بل يجهدون في تشويهه حتى لا يصل واضحاً جليّاً، وهكذا تكون النهايات! وما أحوجنا اليوم إلى أخذ العبرة من هذا الحدث العظيم! ما أحوجنا إلى سماع حديثه ﷺ، وتوجيهاته، ونصحه والذي ما زال يصل إلينا في صور شتى من الرحمة واللطف واللين.

إن أولئك حين صمّوا آذانهم عن الحق لقوا مصرعهم، ونهاية

---

(١) رواه البخاري.

الواحد منّا إن لم يعتبر اليوم ليست بأمثل من تلك النهاية.. فقط تلك على أرض بدر، وهذه ما زالت تسعى لا تدري على أي أرض.

سادساً ـ الأسرىٰ:

أما الأسرى فاستشار ﷺ في أمرهم ما يصنع بهم؟ فأشار أبو بكر رضي الله عنه بأخذ الفدية منهم رغبة في هدايتهم، وأشار عمر رضي الله عنه بقتلهم لأنهم أئمة الكفر، وصناديد الطغيان.. ومال الرحيم ﷺ إلى رأي أبي بكر، وفك هؤلاء بالفداء.. ثم نزل وحي السماء مؤيداً لقول عمر رضي الله عنه، عاتباً عتاباً شديداً على رسوله ﷺ، وعلى صاحبه أبي بكر رضي الله عنه، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧ ـ ٦٨]...

لله درُّك يا رسول الله أي قلب هذا! أي روح هذه التي تعيش بها بين الجُهّال والسفهاء والضُلّال؟! أما وعوا بالأمس حَدَبَك عليهم في قول ربك لك: ﴿لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]؟!.. ولا زلت رغم ما فعلوا تعيش بتلك الروح التي قابلتهم بها بالأمس، روح الحرص والوفاء والرحمة، اليوم وبعد قتالهم لك! اليوم وبعد تآمرهم عليك! اليوم وبعد تآزرهم على دينك لا زلت رحيماً بهم، مشفقاً عليهم، لله درُّ القلوب الرحيمة ما تفعل في نفوسها! لله درُّك من نبي بهذه الرحمة العظيمة!..

يا أيها الدعاة، يا أيها المصلحون، يا أصحاب المنهج، يا أيها المتطلبون للقدوة الصالحة.. هذا رسولكم ﷺ مع أهل الباطل، مع أهل الضلالة، مع المقاتلين له، فما أنتم فاعلون مع إخوانكم المفرِّطين؟!..

ثم تلَت الآيات بتحليل ما أخذوه من فداء بعد العتاب؛ فقال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩]. .

وقد تنوّع الفداء كل حسب حاله، وما معه من مال، وقد فدت زينب بنت نبينا ﷺ زوجها أبا العاص بن الربيع بقلادة، فأطلق الصحابة أسيرها وردوا عليها قلادتها، إكراماً لرسول الله ﷺ[(١)].

ودفع العباس مئة أوقية، ودفع عقيل بن أبي طالب ثمانين أوقية، ودفع بعض الأسرى أقل من ذلك، وقد قال ﷺ: «**لو كان المطعم بن عدي حيّاً ثم كلّمني في هؤلاء النتنى لأطلقتهم له**»[(٢)]. .

تذكّر ﷺ موقف المطعم بن عدي بالأمس؛ تذكَّرَه لحظة الانتصار، اللحظة التي يعمى فيها كثيرون، يطيش بهم النصر فينسون الأيام القاسية في حياتهم! هذه اللحظات لها نفس كبير ربما يمتد فينسي كل شيء، إلا هنا في ساحات الكبار، في حياة نبينا ﷺ يقف نَفَسه لا يُلقي بالظلال المعتادة في عقول الكبار.

وهكذا هم الكبار! ورحم الله الشيخ الغزالي فقد قال: «وهناك نصوص توصي برعاية الأسرى، وإطعامهم، وتشرع القوانين الرحيمة في معاملتهم، وهذا ينطبق على جماهير الأسرى من الأتباع والعامة، أما الذين تاجروا بالحروب لإشباع مطامعهم الخاصة فيجب استئصال شأفتهم، وذلك هو الإثخان في الأرض، إن الحياة كما تتقدّم بالرجال الأخيار، فإنها تتأخّر بالعناصر الخبيثة، وإذا كان من حق الشجرة لكي تنمو أن تُقلّم، فمن حق الحياة لكي تصلح أن تنقّى من السفهاء والعتاة والآثمين». اهـ.

---

(١) رواه الإمام أحمد بإسناد جيد. انظر: السيرة النبوية الصحيحة، للعمري.

(٢) رواه البخاري.

وهذا الحكم كان أول الإسلام، ثم جُعل الخيار بعد ذلك للإمام، وهو مخيّر بين القتل، أو الفداء، أو المن عليهم دون فداء، ما عدا الأطفال والنساء فلا يُقتلون.

وأسلم كثير من هؤلاء الأسرى بعد ذلك؛ ومن أشهر هؤلاء: العباس، وعقيل بن أبي طالب، وسهيل بن عمرو، وعبد بن زمعة، وآخرون.

سابعاً ـ الغنائم:

وقد وقع الخلاف بين صحابة رسول الله ﷺ في الغنائم؛ إذ لم يكن حكمها شُرع قبل ذلك.

قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدراً، فالتقى الناس، فهزم الله تعالى العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأكبَّت طائفة على المعسكر يحوونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرَّة، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض؛ قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها وجمعناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منّا؛ نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحق بها منّا؛ أحدقنا برسول الله ﷺ وخفنا أن يصيب العدو منه غرَّة واشتغلنا به.. فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ﴾ [الأنفال: ١][١].. فأخرج ﷺ الخمس منها ثم قسمها بين المقاتلين»[٢].

(١) رواه الإمام أحمد بإسناد صحيح. انظر: صحيح السيرة النبوية: للعمري.

(٢) رواه البخاري.

إن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم مهما بلغوا من الشأن هم كذلك بشر من الناس، يجدون للجوع ألماً، ويشعرون للفقر ذلَّة، وقد اكتوى الواحد منهم بلظى الجوع والفقر زمناً طويلاً من حياته، فتستجيب نفوسهم لتلك الآثار دون مقدّمات، وتلك الآثار التي خلّفها الزمن في حياتهم تنسيهم معاني الإخاء في لحظة من الزمن، وقصة الخلاف هنا أكبر دليل على ذلك، وهم على كل حال بشر من الناس.

وأعظم ميزة للتاريخ أنه يعرض صور النجاح والفوز في أسمى معانيها، ويعرض في نفس الوقت صور الأمراض، والنكسات، والإخفاقات جنباً إلى جنب، وهذا هو الحق ما دام أن التاريخ يتعامل مع بشر من الناس.

وقد حاول كثير من الكُتّاب وهم يعرضون صورة ذلك الجيل الذي مرَّ في ذاكرة التاريخ أن يقتصروا على صور النجاحات، وإبرازها، وإعلاء شأنها؛ وذلك حق لا خلاف فيه، لكن أن يقتصر على هذا الجانب، ولا يُظهر للقارئ غيره، فقد يكون سبباً دون أن نشعر في إسقاط المسلمين، وتوسيع الهوة بينهم وبين تاريخهم.

إن القارئ أو المستمع حين لا يسمع إلا صور النجاحات فقط، قد يشعر بالعجز عن تمثّل الصورة كاملة، لأنه لا طاقة له بما يقرأ أو يسمع، وكأن هؤلاء ليسوا بشراً من الناس، فليتنبّه لهذا الملمح فإنه دقيق!..

وأنت لما تتأمّل الغزوة تجد فيها ملامح عظيمة واضحة عرضها القرآن الكريم في طبيعة هؤلاء الناس، كقول الله تعالى في بداية السورة: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧].

وصدق الغزالي حين قال: «**إن الجوع والعري عندما يطول أمدهما يتركان في النفوس ندوباً سيئة، ويدفعان الأفكار في مجرى ضيّق كالح،** على أن هذه الأزمات إن أحرجت العامة، وأهاجتهم إلى طلب الغذاء والكساء لأنفسهم وذراريهم بحرص ومجاهرة، فإن المؤمنين الكبار ينبغي أن يتماسكوا، وأن يكتموا أحاسيس الفاقة الملحَّة، فلا يتنازعوا على شيء... ذلك أن الخاصة من الرجال هم قدوة غيرهم، فإذا ساءت أخلاقهم للضوائق العارضة، واضطرب مسلكهم، فسيكون سواد الشعب إلى مزالق الفوضى أسرع، وقد رأينا الألمان في الحرب العالمية الأولى، والإنكليز في الحرب العالمية الثانية شُدّد عليهم الحصار حتى هزلت الأجسام، واصفرت الوجوه، وما صابرت الجماهير هذه المجاعات إلا وراء قادتها المصابرين المتجمّلين». اهـ.

وبعد أن قسّم الرسول ﷺ الغنائم بين أصحابه، قسم لتسعة من الصحابة لم يشهدوا الغزوة لأعمال كُلّفوا بها في المدينة أو لمرض ونحوه، منهم عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي أبقاه الرسول ﷺ للعناية بزوجه رقية في مرض موتها رضي الله عنها.

وكانت هذه القسمة في مكان يقال له: الصفراء؛ في طريق العودة إلى المدينة، وفي أثناء الطريق أمر النبي ﷺ بقتل اثنين من الأسرى؛ وهما: النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي مُعيط؛ لشدة أذيتهما للمسلمين بمكة.

ثامناً ـ طلائع النصر:

تقدّم زيد بن حارثة رضي الله عنه الجيش إلى المدينة مبشراً بالنصر الذي تحقق، وتلقى المسلمون الخبر بالفرح والسعادة، قال أسامة: «فوالله ما

صدّقت حتى رأينا الأسارى، حتى إن سودة رضي الله عنها لما رأت سهيل بن عمرو ويداه معقودتان إلى عنقه بحبل، قالت: أبا يزيد أعطيتم بأيديكم، ألا متم كراماً!.. فقال ﷺ: «**أعلى الله وعلى رسوله**»!.. أي: تؤلبين، قالت: يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما ملكت حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه بالحبل أن قلت ما قلت!..»[١].

تاسعاً ـ يوم الفرقان:

هذه المعركة كانت عظيمة في ميزان الإسلام ولا تزال، ولذا سماها الله تعالى في كتابه الكريم: يوم الفرقان؛ لأنه اليوم الذي فرّق الله تعالى به بين الحق والباطل.

إن النصر الذي تحقّق كان بمثابة الجرس الذي أعلن توديع دولة الكفر والطغيان، وهذه المعركة كتبت بحق علو من شارك فيها، حتى قال عنهم النبي ﷺ في قصة حاطب بن أبي بلتعة يوم فتح مكة لمَّا قال عمر رضي الله عنه: اضرب عنقه يا رسول الله، قال: «**وما يدريك يا عمر! لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اصنعوا ما شِئتم فقد غفرت لكم**»[٢].

فيا لله ما أروع التاريخ! وما أجمل لحظاته! على هذه اللحظات في تاريخ دولة! أو تاريخ إنسان! على لذائذ النصر بعد طول المعاناة! على روح الفوز ولذة النهاية بعد شقة الطريق وطول المسافة!..

إن كان في العين بقية دمع فالآن! وإن كان في القلب نوازع فرح فالآن! وإن كان في الروح معالم إشراف فالآن! يا بدر على ساحاتك بعد

(١) ابن هشام، السيرة بإسناد صحيح. انظر: السيرة النبوية الصحيحة، للعمري.
(٢) متفق عليه.

المعاناة! يا بدر على زمنك وأيامك ومكانك ولحظاتك في تاريخ مسلم..

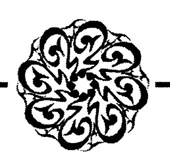
تعبت يا بدر بالأمس فغسلت همَّ تلك الرحلة كلها اليوم.. تعبت يا بدر بالأمس في معاناة كبار، فوجدت برد نعيمها اليوم كالسلسبيل..

انتهت بدر، ورحل المسلمون عن الأرض.. وبقيت معالم بدر صوراً ماثلة في ذاكرة التاريخ، نستنشق منها بعض أرواحنا الكبيرة بالأمس..

وغداً على عرصات القيامة اللقاء.. وغداً في الجنان بإذن الله تعالى الملتقى..

فـإمـا إلـى الـنـصـر فـوق الأنـام وإمـا إلـى الله فـي الـخـالـديـن

❁ ❁ ❁



الفصل السادس عشر

غزوة أُحـد

تمهيد:

غزوة أُحد نسبة إلى الجبل الذي وقعت عنده، وهو جبل يقع شمال المدينة، ويبعد عن المسجد النبوي خمسة أكيال ونصف، وقد قال ﷺ: «**أُحد جبل يُحبنا ونحبه**». . ويقابله من جهة الجنوب جبل صغير يسمى: عينين، وهو الذي يُعرف بجبل الرماة.

وهذه الغزوة كانت في شوال من السنة الثالثة للهجرة، وقد رأى النبي ﷺ قبل المعركة رؤيا؛ قال: «**رأيت في رؤياي أني هززت سيفاً فانقطع صدره، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أُحد، ثم هززته أخرى فعاد أحسن ما كان، فإذا هو ما جاء به الله من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيت فيها بقراً، والله خير، فإذا هم المؤمنون يوم أُحد، وإذا الخير ما جاء الله به من الخير بعدُ، وثواب الصدق الذي آتانا الله بعد، يوم بدر**»[١]. وفي رواية: «**ورأيت أني في درع حصينة، فأولتها المدينة**»[٢].

أولاً ـ ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾:

شاور ﷺ أصحابه في البقاء في المدينة أو الخروج منها، وقال ﷺ: «**إنا في درع حصينة**»، واختلف الصحابة رضي الله عنهم في الخروج والبقاء.

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الإمام أحمد، وصححه الساعاتي.

فدخل ﷺ ثم لبس لأمته ـ أدوات الحرب ـ. وإنما لبس ﷺ أدوات الحرب تعليماً للأمة في أخذها بالأسباب، وأنها من قدر الله تعالى. فتلاوم القوم بينهم في كونهم أخرجوا رسول الله ﷺ، وخالفوا رأيه، ثم طرحوا عليه البقاء؛ فقال ﷺ: «**ما كان لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه**»(١).

وهكذا هم القادة يشرّعون للأتباع الشورى منهجاً من مناهج الإسلام، ويأخذون بالشورى مهما كانت مخالفة لآرائهم، وفي الوقت ذاته من أعظم صفاتهم أنهم لا يترددون في اتخاذ القرار، فإذا شرعوا في أمر بعد ترتيبه صَعُب ردُّهم أو ثنيهم عن قرارهم.

وباتت الشورى اليوم عند كثير من القادة مجرَّد أداة لتمرير آرائهم، وإرساء قوانين لبست لباس الشورى وهي عارية منها، وتسللت في لحاف المبادئ الحرة وهي متجردة عنها، ولهذا كثر الفشل، وزادت الفرقة، وحصل التأخر. والله المستعان..

وصدق محمد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين قال: «إن النهاية الأليمة التي انتهت إليها المعركة فيما بعد كان يمكن أن تهز مبدأ الشورى ومكانتها في أعماق النظام الإسلامي، وكان يمكن أن يخطر في النفوس أن استجابة الرسول ﷺ لإلحاح الشباب هو الذي نتج عنه ما نتج من التعرّض للهزيمة، وأن لو كان الرسول ﷺ بقي بالجيش في المدينة كما كان رأي شيوخ المسلمين ذوي التجربة ـ وهم قلّة بالنسبة للشباب المتحمّس ـ لكانت السلامة، وما كانت الهزيمة لتقع، وما كان المسلمون ليفقدوا من فقدوا من الأحباب..». اهـ.

---

(١) رواه ابن هشام، وصححه الألباني.

فإذا بالوحي يُلجم الألسن عن الخوض في الظنون الكاذبة بقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. .

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ﴾ ليس إلّا! فهل بقي درس أبلغ من هذا في أهمية الشورى؟! وأنت تعلم أن رسولك ﷺ بما عنده من الوحي أقرب إلى الحق منه إلى مشورة أقوام لا يملك الواحد منهم لنفسه مثقال ذرة من حظ على وجه الأرض، فكيف بمصير الأمة؟!.

ثانياً ـ الخروج إلى أُحد وتخاذل المنافقين:

خرج جيش المسلمين متوجهاً إلى أُحد، وكانوا في بداية الطريق ألف مقاتل، وفي أثناء الطريق انسحب المنافق عبد الله بن أبي ابن سلول، انسحب بثلث الجيش من المنافقين مدَّعياً أنه لن يقع قتال مع المشركين!. . معترضاً على قرار الرسول ﷺ بالخروج، مع أن رأيه كان في البقاء.

وهكذا هم المنافقون في كل زمان ومكان ثُلمة في الصف، وعوار في البناء، فلا يُسْتَكْثَرُون في مكان، ولا يفرح بهم في زمان، لا كثَّرهم الله تعالى!. . وظن من ظن من المسلمين أن هذه قاصمة، وما علم أن **الأمة لا تنتصر بكثرة، ولا تعلو بالهباء**، والتاريخ شاهد أن القلَّة كثيرة بإيمانها، عزيزة بمنهجها، راشدة بمبادئها، وهي إلى النصر أقرب منه إلى الخسارة والخذلان، والمحن لها ظاهر قبيح، لكن في بواطنها أرباح لا تقدّر بثمن، قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ﴾ [آل عمران: ١٦٦ ـ ١٦٧].

وقد انقسم الصحابة رضي الله تعالى عنهم تجاه هذا الموقف إلى قسمين: **قسم** يرى قتل هؤلاء التاركين للقتال، **وقسم** لا يرى قتلهم، وقد أبان الله تعالى عن هذه المواقف في كتابه الكريم؛ فقال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ...﴾ [النساء: ٨٨].

وأثّر هذا الموقف في نفوس المسلمين تأثيراً كبيراً حتى همَّ بعضهم بالعودة، وترك الجهاد، واستبقاء أنفسهم ـ زعموا ـ وما علموا أن الآجال لا يقرِّبها جهاد، ولا يباعدها سلم، وإنما هي أيام مكتوبة، وآجال مقدَّرة معلومة، حكى الله تعالى ذلك عنهم؛ فقال: ﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

ثالثاً ـ قبيل المعركة:

عسكر المسلمون قبيل أحد، واستعرض الرسول ﷺ صغار السنِّ الذين لا طاقة لهم بالقتال ممن هم في سنِّ الرابعة عشرة، أو أقل، فردَّهم، وكان من بين هؤلاء ابن عمر رضي الله عنهما.. وإذا كان صغار الأمة يتهافتون على الشهادة فكيف بكبارهم؟!..

إن أمة يتهافت صغارها على الركض في ساحاتها الحمراء لا يمكن أن تموت البتة، وهي والله كذلك، فتلك الصورة التي ردَّ فيها النبي ﷺ أربعة عشر صبيّاً لم يبلغوا بعد عن حياض المعركة، هي نفس الصورة التي نراها اليوم في فلسطين تعيد التاريخ من جديد.

بالأمس لم يكن لأولئك الصحابة سوى السيف، واليوم لم يكن

لهؤلاء سوى الحجارة، وإني والله لأرى النور يتخلَّل هذه الأمة رغم ضعفها، وتلك الصور التي رأيناها بالأمس هي ذاتها التي تتكرر اليوم. والله المستعان..

وصل الجيش إلى ميدان المعركة المرتقبة، ونظَّمهم قائدهم ﷺ تنظيماً محكماً ورائعاً، جعل ظهورهم إلى جبل أحد، ووجوههم إلى المدينة، وأمر خمسين من الصحابة بأن يقفوا على جبل عينين المقابل لأحد، وأمّر عليهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه حماية لجيش المسلمين أن يُلتفّ عليهم من تلك الجهة، وشدّد عليهم بلزوم المكان؛ حتى قال ﷺ: **«إن رأيتمونا تخطّفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا مكانكم»**(١).

وكانت الخطة غاية في العظمة، حيث استولى ﷺ على الأعالي والمرتفعات، وترك للأعداء بطن الوادي..

وقبيل بدء المعركة استنفر النبي ﷺ قلوب الرجال، فأخذ سيفاً وقال: «**من يأخذ مني هذا؟**» فبسط الصحابة أيديهم كل منهم يقول: أنا يا رسول الله، ثم قال: «**من يأخذه بحقه؟**» فأحجم القوم، فقام أبو دجانة وقال: أنا آخذه بحقه، قال: فأخذه ففلق به هام المشركين(٢).

إن أبرز صفة يتميَّز بها القادة أن لديهم طاقة عالية جدّاً في ظروف المحن والأزمات، يستطيعون في ظلِّ الظروف الحرجة أن يُخْرجوا نوراً من بصيص تلك المحن، لينيروا به ظلام الخوف الذي يبدد قلوب الرجال قبل النزال.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

بالأمس في بدر قبل أن تشبَّ نار الحرب قال القائد ﷺ تلك المقولة المشهورة: «**قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض**».. في ذلك اللقاء الأول لم يكن للمسلمين عهد بالحروب، فلا يمكن أن يهدِّئ القلوب الفزعة سوى نعيم يخطف ألبابها، ويطير بها في عالم الأشواق، أما في أحد فقد جرّب القوم أثر السيوف في الرقاب، وتعودوا على صهيل الخيل في أزمان الحروب، ورأوا بأعينهم كيف يتساقط الرجال على أرض المعارك، والمسألة مسألة ثأر، فليعِ كل إنسان دوره المرتقب، وليحكم قبضة سيفه، وليكتب به حقه الذي أراد الله تعالى له أن يكون.

رابعاً ـ نشوب المعركة:

وبدأ القتال، وحمي وطيس المعركة، والتحم الصفَّان، وفعل حمزة رضي الله عنه فعل الأبطال كعادته، وقد شارك في المعركة وحشي بن حرب مولى جبير بن مطعم، وقد وعده مولاه جبير إن قتل حمزة أن يعتقه، ذلك أن حمزة قتل عمه طُعيمة بن عدي ببدر، ومع أن الجزاء ثمين، إلا أن وحشيّاً كان يدرك أنه لا قدرة له بمنازلة أسد الله تعالى وأسد رسوله، ولما كانت الجائزة المنتظرة كبيرة، كمُن له تحت صخرة، فلما دنا منه أمكن حربته منه فقتله، فسقط البطل، وجثا على الأرض بعد إن خارت قواه، وراح يودّع الأرض التي كتب عليها أروع أمثلة الشجاعة والوفاء، سقط شهيداً رحمه الله تعالى رحمة واسعة، فيا لها من فاجعة حين يسقط مثل هؤلاء ويودِّعون تاريخ الإسلام، لكن أمر الله تعالى أسبق، وحكمته أمثل. والله المستعان.

وتبعه آخرون من الفضلاء سادات الإسلام كمصعب بن عمير رضي الله عنه الداعية الأول، ومع هذا التساقط في أعلام الإسلام على أرض الجهاد إلا أنَّه تمَّ الانتصار، وزحف المسلمون على المشركين، وولّى المشركون

هاربين، ولمّا رأى الرماة الذين على الجبل آثار النصر، وتولي المشركين قالوا للقائد: الغنيمة الغنيمة.. ظهر صاحبكم؛ فماذا تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير رضي الله عنه: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله لنأتين الناس فلنصيبنّ الغنيمة.. ثم نزلوا يجمعون الغنائم.. فاستغل خالد بن الوليد تلك العثرة التي وقع فيها الرماة، وكان يومئذ مشركاً، فالتفَّ على المسلمين من جبل الرماة، فما لبث المشركون أن رأوا لوائح الغلبة من جديد فعادوا، وأحاطوا بالمسلمين من جهتين، وفقد المسلمون مواقعهم الأولى، وأخذوا في التساقط على ساحة المعركة، لدرجة أنهم فقدوا اتصالهم برسول الله ﷺ، فشاع أنه قُتل.

وفي ظلِّ هذه الإشاعة المدوّية فرَّ كثير منهم من ميدان القتال، وجلس بعضهم جانباً دون قتال معلناً الاستسلام، ومع كل ما لقوه ظلَّت فئة صادقة على الطريق، ظلَّت قوية العزيمة، لم تؤثّر فيها الأحداث مع خطورتها، من أولئك: أنس بن النضر رضي الله عنه الذي كان يقول وهو ممن فاتته غزوة بدر: «والله لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله ﷺ ليرين الله كيف أصنع؟» فلما رأى في أُحد رجلاً من صحابة رسول الله ﷺ جالساً منعزلاً عن آثار المعركة صاح فيه قائلاً: «واهاً لريح الجنة إني أجدها من دون أحد»، فقاتل رحمه الله حتى قُتل، ووجد في جسده بضعة وثمانون أثراً بين ضربة، ورمية، وطعنة؛ حتى إن أخته لم تعرفه إلا ببنانه، ونزل فيه وفي أمثاله من المجاهدين الصابرين قول الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

واضطربت أوضاع المسلمين اضطراباً ذريعاً، وكان للشيطان نصيب وافر من الفزع الذي حلَّ بقلوبهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ

ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

وقد صوّر القرآن خبر فرارهم لا يلوون عنقاً على من خلفهم، بقوله: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ...﴾ [آل عمران: ١٥٣].

هذه بعض صور الخوف والهلع والرهبة التي حلَّت بالمسلمين أثناء المعركة.

خامساً ـ أسباب الهزيمة ودروسها:

● إن الإنسان ليتخيّل هذه المواقف على صحابة رسول الله ﷺ فيوقن أن **أذل شيء على الإنسان في حياته المعصية، وأسوأ عاقبة يتعرّض لها المؤمنون عبر تاريخهم تلك التي يؤتون فيها من قبل أنفسهم**، لقد تحقّق النصر الذي جاء من أجله أهل الإسلام في بداية المعركة، ورئي المشركون مدبرين لا يلوون عنقاً على أصحابهم وأهليهم، وذلك حين كانت الطاعة فاشية، واللحمة باقية، والكلمة متآزرة متآلفة، ثم تسللت المعصية إلى القلوب وهم لا زالوا في نفس مكانهم لم يبرحوا حتى أورثت ذلّاً عاجلاً، وتفرُّقاً فاشياً، واختلافاً بيّناً، وتهتكاً ظاهراً في المبادئ والقيم، ووهناً في العزائم والقوى، وهكذا هي المعاصي حين تتخلل القلوب تكون هذه بعض آثارها. والله المستعان..

● **لقد حدد الله تعالى الداء، وبيّن سبب الهزيمة في قوله تعالى**: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَۚ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

هذه المعصية حين تستولي على الإنسان تذهب به في عالم الشتات فتفرّق جمعه، وتشتت شمله، وتذيقه الذل بعد أن طعم العز في أروع معانيه، وما انهزمت أمة في تاريخ، وما ضاع أفراد في تيه الظلام اليوم إلا حين استحكمت عليهم هذه المعاصي وذاقوا بعض مرارتها . . .

لقد كانت المعصية سبباً في حصول الفرار من أرض الغنيمة، حتى يعلم الدارس للتاريخ أنه ليس بين الله تعالى وخلقه نسب يقربهم أو يبعدهم، وإنما هي الطاعات والمعاصي، قال ابن القيم رحمه الله: «فكانت أعمالهم جنداً عليهم ازداد بها عدوهم قوة، فإن الأعمال جند للعبد، وجند عليه ولا بد، فللعبد في كل وقت سريّة من نفسه تهزمه أو تنصره، فهو يمد عدوه بأعماله من حيث يظن أنه يقاتله بها، ويبعث إليه سريّة تغزوه مع عدوه من حيث يظن أنه يغزو عدوه، فأعمال العبد تسوقه قسراً إلى مقتضاها من الخير والشر، والعبد يشعر أو لا يشعر ويتعامى، ففرار الإنسان من عدوه وهو يطيقه، إنما هو جند من عمله بعثه له الشيطان واستزله به». اهـ.

● وفي الوقت ذاته **أراد الله تعالى أن يظهر سُنَّةً من سننه في الكون، وهي أن يدال على رسله وأتباعهم بعد أن دال لهم** في بدر . . إن بقاء الدولة لأهل الإيمان أمنية تتشوّف لها النفوس، لكن لك أن تتصوّر أنَّ ذلك كان فعلاً، تُرى هل يستحقون بعد ذلك التمايز حقيقة على أرض الفردوس الأعلى؟! تُرى لو كانت لهم الدولة الدائمة هل سيبقى أناس يظاهرون هذا الدين؟! إنه يمكن أن يبقى أناس ممن تجترفهم الشهوات غرقى في حمأتها، ومهما كان ذلك فإنه يبقى قليلاً بالنظر إلى الكثرة المتكاثرة من المقبلين الفرحين بالنصر العاجل.

لذا كان من الضرورة بمكان أن تأتي السنن الإلٰهية بشيء من الإدالة

على المصلحين في التاريخ، ليثبت على الطريق الطويل طالب رضا الله تعالى بحق، والطامع في الفردوس على وجه الحقيقة، وليتخلى أولئك الذين لا يحتملون الصبر لرؤية طريقهم الطويل.

● **إن نكسات الطريق مع مرارتها لها عواقب رائعة في حياة من يذوقها، وكم من فرد وجماعة نفخت فيهم تلك الطاعة من ريح الكبر والعلو والاستعلاء الوهمي**، حتى رأوا أنهم أولياء الله تعالى في الأرض، وغيرهم حطب جهنّم ليس إلا! فإذا جاءت هذه المعصية على بغتة كسرت ذلك العلو، وأرغمت أنوفاً في رغام ظلَّت تتطاول من آثار تلك الطاعة، وحينئذ يعرفون بحق أنهم بشر من الناس، وأن آثار الطاعة ليست في الفخر والاستعلاء، كلا! وإنما هي في مزيد من التواضع والذل والفقر بين يدي الله تبارك وتعالى.

● **إن في ملابسة المعصية دليل على أن الإنسان مهما درج في مراتع الكمال يبقى بشراً من الناس تصيبه آثار الضعف فيقع، أو تتسلل إليه جبلَّته البشرية فتهون نفسه في مراتع العامة والدهماء، ولا غرابة في ذلك البتة**، فهذا الجيل مع كرامته، وتنزّل الرسالة عليه، وهو يعيش عهد الرسالة؛ وقع كما يقع الناس، وتلك سنَّة الله تعالى في البشر.

● **إن النصر مع الحاجة إليه، والأرباح المتحققة منه لهذا الدين؛ يبقى ثمة مطلوب لا يأتي من خلاله، تبقى الشهادة**، ذلك المطلوب الذي تشتهيه نفوس أهل الإيمان، وتزدلف إليه قلوب المقرَّبين الأبرار.

إن الشهادة قد تأتي مع النصر كما في بدر، وقد لا تأتي، لكنها ـ يقيناً ـ أكثر بروزاً في أيام النكسات، لذا كان من الحِكَم في مثل هذه الغزوة بالذات وفي أمثالها أن يذوق الإنسان مع مرارة النكسة روعة

الشهادة، وقيمة الحياة الحقيقة، والفداء الروحي الرائع في تاريخ الإسلام.

إن معنى الحياة الحقيقية ليست في نصر عاجل على أرض الدنيا فحسب، كلا! وإنما في البرهان الصادق على التضحية بالأرواح في سبيل خالقها ومولاها.. ولهذا ذهبت أخبار القوم كأروع ما يسمع إنسان على ظهر الأرض! ألم يقل أنس بن النضر ﵁ وهو في ساحات أُحد: «واهاً لريح الجنة إنّي أجدها من دون أحد»؟!..

وظلت التضحية أعظم معلَم دوَّنته تلك الأجيال وهي راحلة عن أرض أحد، فهاهو سعد بن الربيع ﵁ وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة على الأرض وهو يردد لمن رآه: «أبلغ رسول الله ﷺ مني السلام، وإياكم أن يخلُص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عينٌ تطرف».

● لقد بدأت بدر بالأمس وذاق المسلمون لأول وهلة طعم الربح العاجل، والفوز القريب في ساحات الدنيا مع رسولهم ﷺ، وهذا مع أهميته في بداية الطريق إلا أنه يخلق نفوساً مشوهة في أفهامها حين تظن أن ذلك رسول الله، وأنه لا طريق لغلبته أو الدولة عليه، فيقوم تعظيم الأشخاص في مقام تعظيم المنهج، أو قل: يتسلل إلى قلوب بعض المؤمنين مثل هذا الاعتقاد، فجاء التصحيح مبكراً أن ذلك ليس شرطاً، **وأن أيام المدينة لن تكون في كل حال أروع من حال مكة، كلا! لأن القرآن يؤكّد على أن سنَّة المدافعة لن تنتهي بانتهاء مرحلة محددة، أو تزول بزوال أيام معيَّنة.**

● إن في أحد درساً مهمّاً للغاية؛ وهو **أن العبرة ببقاء المنهج لا ببقاء الأشخاص،** لقد أُعلن في ساحات أحد أن صاحب المنهج غادر الأرض إلى الدار الآخرة، ولم تستوِ النفوس في إيمانها بعد، فولَّى بعض

أهل الإيمان فراراً مصداق قول الله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ..﴾ [آل عمران: ١٥٣] ولّوا مع أن رسولهم ﷺ ينادي: «**هلموا إليّ عباد الله**»، لكن ذهب صوته في آثار خبر موته، فلم يستفق أولئك القوم لحجم هذا الخبر الذي لم تكن نفوسهم تتوقعه البتة... فكانت هذه الوقعة كما يقول ابن القيم رحمه الله: «مقدّمة وإرهاصاً بين يدي موت النبي ﷺ».. وبقي آخرون، كان هذا الدرس واضحاً عندهم لا لبس فيه البتة، مثّل أحدهم ذلك لما مرَّ على بعض القاعدين وهم يرددون: ما نصنع بالحياة بعد محمد ﷺ؛ بقوله: قوموا فموتوا على ما مات عليه ﷺ...

وجاء عتاب الله تعالى بياناً للحق، وتأصيلاً لهذا المفهوم الغائب في أوساط بعض أهل المنهج الحق، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

إن القادة بشر من الناس وهبوا أنفسهم لتحقيق آثار دين الله تعالى في الأرض، ثم هم يرحلون كغيرهم من البشر... ومع ما يبقيه رحيلهم في نفوس أعوانهم من آثار كبيرة إلا أن هذه هي سنَّة الله تعالى في الأرض، وعلينا أن ندرك أنهم بشر من الناس، ولله تعالى حكمة في رحيلهم، ويبقى منهج الله تعالى باقياً ما بقيت السماء والأرض. والله المستعان..

● وفي انصراف الصحابة الكرام من أرض المعركة، وانجفالهم إلى الجبل دليل على أهمية القادة، وضرورتهم في إدارة الأزمات والمحن.

إن هذا الفرار الذي تمَّ لم يكن إلا حين بلغ أولئك أن قائدهم ذهب صريعاً على وجه الأرض، ولذلك لما مرّ أنس بن النضر رضي الله عنه على

القاعدين المنعزلين قال لهم: ما تنتظرون؟ قالوا: قُتل رسول الله ﷺ!...

إن القادة فعلاً هم بهذا الحجم الذي يتركونه في نفوس أصحابهم، ولولا عظمتهم الحقيقية لما كان يحق للناس أن ترضى بهم تيجاناً على رؤوسهم!.

● ومع كل هذه الأحداث التي تمت بما فيها من ملابسات ـ مصرع القائد، وانجفال الناس استبقاءً لأنفسهم ـ **ظلَّت فئة لا تأبه بهذه العوارض كلها، ظلَّت واثقة بربها، منتصرة على أهوائها، تبغي الجنان ولو وقعت غرقى في بحار الدماء**، لقد قال أنس رضي الله عنه لما سمع قول القاعدين: قتل رسول الله ﷺ؛ قال: «وما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله» فيا لله العجب!..

● **إن العقائد العظيمة تصنع نفوساً كبيرة، والتربية السامية الواعية تصنع قيماً ومبادئ رفيعة!** إن خبر مصرع القائد، وذهاب روحه بين الشهداء لم يغيّر مسيرة أنس بن النضر رضي الله عنه، ولم يحوّل وجهته، كلا! ومتى كان ذلك ديناً؟ أو تربية؟ أو إصلاحاً؟ ومثل أنس رضي الله عنه فئة ظلَّت كذلك، ظلَّت في وسط هدير المعركة، العدو يزحف إليهم، والسيوف تعانق رقابهم، والنبال تخترق أجسادهم وهم صامدون دفاعاً عن المنهج، واستبقاءً لدين الله تعالى في الأرض.

ومع قوة الزحف على الثلَّة الباقية من أهل الإيمان رأى الأعداء رسول الله ﷺ؛ فما فرحوا بمثل المكنة منه، والقرب إليه.

● إن قتل القائد، وسفك دمه على أرض أحد، ليس قتل قائد على أرض معركة، وشتات جند في طريق، كلا! إنه ضياع منهج، وحرق رسالة، وإطفاء مبادئ، لذا كانت الفرحة كبيرة بالمكنة منه، لكن أنّى

لهم؟!.. أما علموا **أن رحلة مكة كانت كافية لتأصيل قيم ومبادئ ليس دونها سوى ذهاب الأجساد، ورحيل الأرواح دليل عملي على قوة آثارها**، وفي ذلك الموقف بالذات، حين إقبال المشركين على رسول الله ﷺ، كان الدليل أوضح من المثال، فذهب لذلك أرواح سبعة من الأنصار، كانت أجسادهم أولى بالرماح من جسد رسولهم، وكانت حياتهم أرخص عندهم من أن يُنال قائدهم بشيء من ذلك؛ فللَّه درُّهم!..

وظل طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه مستمرّاً في الدفاع والنضال عن صاحب الرسالة، وقائد المعركة؛ حتى شلَّت يده بسهم من سهام الأعداء.

وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ظلَّ كذلك في زحمة هذه الأحداث محارباً عن رسوله ﷺ، بل كان النبي عليه الصلاة والسلام يناوله السهام ويقول له: «**ارم فداك أبي وأمي**»(١).

وأبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه شارك مشاركة الأبطال، ولما رأى رسول الله ﷺ يشرف من أعلى، قال: يا رسول الله لا تشرف! يصبك سهم من سهام القوم.. نحري دون نحرك يا رسول الله! بل كان مثار عجب رسول الله ﷺ هذا البطل المناضل، فكان من يمرّ ومعه جعبة السهام يقول له رسول الله ﷺ: «**انثرها لأبي طلحة**»(٢).. واشتد عجبه ﷺ من أبي طلحة حتى قال: «**لصوت أبي طلحة في الجيش أشد على المشركين من فئة**»(٣).

● **إن المواقف الكبيرة تخرج رجالاً كباراً، والأزمات والمحن تنفي**

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه الإمام أحمد بإسناد رجاله ثقات. انظر: السيرة النبوية الصحيحة، للعمري.

غبار الرخاء الوَهِن.. لقد علمتني الحياة: أن أيام الرخاء لا تفرح فيها بصديق ما لم تُصْلَ بكير الفتن والأزمات.. وصدق القائل:

تأخَّرتُ أستبقي الحياةَ فلم أجدْ لنفسي حياةً مثلَ أن أتقدَّما

وصدق الآخر:

وإذا لم يكنْ من الموتِ بدٌّ فمنَ العارِ أن تموتَ جبانا

إن الأزمات تكشف لك ستور البيوت، وتهتك حجب النفوس، وتبقي أهلها أشبه شيء بالعراة، وألبسة أيام الرخاء لا تفلح في الأزمات على ستر عورات الرجال.

إن اللباس الحقيقي هو لباس المبادئ، والقيم، وألبسة الجسد الظاهرة لا ميزان لها إلا عند العامة والدهماء.

إن أبا طلحة، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، والأنصار السبعة الذين غسّلوا بدمائهم أرض أحد برهاناً على صدقهم، وقوة إيمانهم، كتبوا لنا تاريخاً يبقى عالقاً ثابتاً لا يمكن أن ننساه، كتبوا لنا أن الحياة الحقيقية هي في ثبات المواقف فحسب!.

● لقد تعرّض القائد ﷺ لصنوف من البلاء، ونالته بعض أيدي القوم رغم كل هذه المقاومة، فكُسرت رباعيته، وشُج وجهه حتى سالت دماؤه، وجعل ﷺ لشدة الموقف وأثره على نفسه يمسح الدم عن وجهه وهو يردد: «**كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم؟!**»(١)..

فداك أبي وأمي يا رسول الله! إن الدعوة تكلّف أصحابها تضحيات كبيرة! فتعرضهم أولاً على ساحات البلاء، وتدفع بهم حتى تلج بهم في

---

(١) رواه مسلم.

موارد الهلاك، وحين يثبتون عليها، ويستميتون من أجلها تلتصق بهم كما يلتصق درع الواحد منهم بجسده، حتى لا تكاد تعرف الدعوة نفسها إلا على أسماء هؤلاء! والله المستعان. .

ويمكن لسائل أن يقول: هل الأتباع في كل دعوة قادرون على الاستماتة بنفس هذه الروح؟ أم إن هناك فرقاً تصنعه الرسالة التي يتلبّس بها القادة؟.

وأقول: إن ولاء الأتباع عملة نادرة لا يستطيعه إلا الكبار! ويبقى مرهوناً على قدر ولاء القادة **أولاً**: لرسالتهم، **وثانياً**: على صدق القدوة، وحجم ارتباطها بمنهجها، **وثالثاً**: على رصيد كبير من الحب، والرحمة، والعدل، وبغير ذلك تعتبر الفتن والأزمات فرصاً للأتباع لا للنصر، كلا! وإنما لرمي القائد في خنادق الموت.

سادساً ـ نهاية المعركة:

في ظلِّ هذه الظروف حاول ﷺ الانسحاب نحو شعاب أحد، ولحق به المسلمون، وقد لحق المسلمين العنت، والمشقة، والهم، والغم، فأنزل الله تعالى عليهم النعاس فناموا يسيراً، ثم أفاقوا وقد زال عنهم الخوف وامتلأت نفوسهم طمأنينة، قال أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه: كنت فيمن تغشّاه النعاس يوم أُحد حتى سقط سيفي من يدي مراراً.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ. . .﴾ [آل عمران: ١٥٤] وهذه الطائفة هي طائفة المنافقين.

وحاول بعض المشركين اللحاق بالمسلمين كأبي بن خلف

الجمحي، وقد حلف أن يقتل رسول الله ﷺ، فرماه الرسول ﷺ بحربة فجرحه ومات في طريق عودته.

وتوقف المشركون ليأسهم من استئصال شوكة المسلمين، وتعبوا من جلادة المسلمين مع أن كبراءهم كانوا يظنُّون أن القائد الأعظم، صاحب المنهج قد توارى عن الأنظار..

فقال أبو سفيان بأعلى صوته وهو يخاطب المسلمين: أفي القوم محمد؟ فقال ﷺ: «**لا تجيبوه**»، فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقال ﷺ: «**لا تجيبوه**»، فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فلما لم يسمع من يرد عليه قال: إن هؤلاء قتلوا فلو كانوا أحياءً لأجابوا!.. فلم يملك عمر رضي الله عنه نفسه أن قال: كذبت يا عدو الله، أبقى الله عليك ما يخزيك، قال أبو سفيان: اعلُ هبل. فقال النبي ﷺ: «**أجيبوه**»، قالوا: ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله أعلى وأجل**»، قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزّى لكم. فقال النبي ﷺ: «**أجيبوا**»، قالوا: ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم**»، قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر والحرب سجال، قال عمر رضي الله عنه: لا سواء قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار(١).

ولله درُّ أبي سفيان حين أدرك أن قوام تلك الأمة في ذلك الزمان بهؤلاء الثلاثة، فراح يسأل عنهم من بين الناس، وهو قائد ويدرك أن ذهاب القادة ثلمة لا تسدُّها كثرة الجنود، قال ابن القيم رحمه الله: «ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة لعلمه وعلم قومه أن قوام الإسلام بهم، فقال: أما هؤلاء فقد كُفِيتمُوهم». اهـ.

● **إن الأمم في سطور التاريخ كلّه أثبتت لنا أن ثمَّة رجالاً يصنعون**

---

(١) رواه البخاري.

تاريخها، ويكتبون آثارها، ويجددون حياتها الحقيقية على وجه الأرض؛ هؤلاء فقط في كل أمة يقلّون أو يكثرون هم شامة الأمم في كل زمان ومكان! لذا راح أبو سفيان يسأل عنهم عند هدأة المعركة.

ولله درُّ عمر الشجاع العبقري، لما سمع تفكُّه أبي سفيان لم يتمالك نفسه مع خطورة ما هو فيه من الوهن والضعف إلا أن يرد له فرحه بغيظ يملأ جوفه في ذلك الحين، وراح يقول: كذبت يا عدو الله أبقى الله عليك ما يخزيك..

ولما انتفش أبو سفيان بالأصنام وراح يعلي هبل على الملأ، تحرّك رسول الله ﷺ وأرشد إلى الرد عليه، وهل كان للأصنام شأن في أيام الرخاء حتى يكون لها شأن آخر في أيام الشدة والبأس؟! كلا!..

● بقي أن يُقال: إن رسول الله ﷺ بشر من الناس يؤثر فيه ما يؤثّر فيهم، لما رأى وطأة القوم، وشدة بأسهم شكى تلك الشكوى المريرة والتي تُنبئ عن حال مريرة يمرُّ بها سيّد الأنبياء في حياته، فقال: «**كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم؟!**» فجاء الوحي يعيد روح النبي الكريم ﷺ إلى وجهتها، ويكتب لها إصلاح الطريق في ظلمات الأزمات: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وغادرت قريش المكان، فأمر رسول الله ﷺ بتتبع بعض الشهداء على أرض المعركة، فقال: «**من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع؟ أفي الأحياء هو أم في الأموات؟**» فقام رجل من الأنصار يبحث عنه على أرض المعركة، ووجده يودّع هذه الدنيا في آخر لحظات الموت، فأبلغه خبر رسول الله ﷺ، وسؤاله عنه، فقال سعد: «أبلغ رسول الله ﷺ سلامي، وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنّا خير ما جزى نبيّاً عن أمته! وأبلغ قومك عني السلام وقل لهم: إن سعد بن الربيع

يقول لكم: لا عذر لكم عند الله تعالى إن خلُص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف..»!..

وفي الجانب الآخر راح زيد بن ثابت رضي الله عنه يتفقد القتلى ويسأل عن أنس بن النضر رضي الله عنه، فوجده بين القتلى وبه رمق، فأخبره خبر رسوله ﷺ فقال له: «قل له: إني أجدني أجد ريح الجنة، وقل لقومي من الأنصار: لا عذر لكم إن خلُص إلى رسول الله ﷺ وفيكم شفر يطرف»[(١)]، وفاضت روحه وودع الدنيا رحمه الله، ورضي الله عنه وعن إخوانه من الصحابة الكرام.. **فيا لله هل سمع التاريخ حبّاً يتسلل من قلوب أصحابه في لحظات الوداع كهذا الحب؟!..**

إن أروع شيء تتركه لنا هذه اللحظات هو هذا التأثير الوجداني الذي تركه القائد في نفوس أصحابه، إنهم يودِّعون في هذه اللحظات كل شيء، وما للموت من لحظات كربة، وغصص فراق، إلا أن قلوبهم لم تنس لحظة واحدة نبيهم ﷺ.

وإذا لم يكن القائد بمثل هذه المعاني الكبار في نفوس أصحابه وإلا لا حسرة على فائت بعد اليوم! والله المستعان..

ثم أمر بدفن الشهداء، وكانوا سبعين شهيداً، ولم يؤسر أحد من المسلمين، وقد قُتل من قريش اثنان وعشرون رجلاً، وقد جمع النبي ﷺ بين الرجلين من الشهداء في قبر واحد، وقدّم عند الدفن أكثرهما أخذاً للقرآن، وأمر بدفنهم بدمائهم، ولم يغسّلوا، ولم يصلِّ عليهم، وقال: «**أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة**»، وكفى ببارقة السيوف على رؤوسهم شفاعة، والله المستعان..

---

(١) من رواية ابن إسحاق بإسناد رجاله ثقات. انظر: السيرة النبوية الصحيحة، للعمري.

سابعاً ـ العودة إلى المدينة.. وذكرى الشهداء:

ثم ركب رسول الله ﷺ فرسه، وعاد مع أصحابه إلى المدينة.. عاد وهو يتذكّر حمزة، ومصعباً، وأنس بن النضر، ووجوهاً رآها زمناً طويلاً غادرت هذه الوهلة فلم يعد يراها في المدينة.. وليت شعري من يعيد رؤاهم، شَجْوَ أحاديثهم، ذكرياتهم في أرجاء طيبة الطيبة؟.. ليت شعري من يستطيع أن يلملم جروح الفراق بحمزة، ومصعب، وابن النضر؟.. ليت شعري من يكفكف دمعاً يهراق لذكريات عاطرة، ولمواقف عظيمة كتبوا بها تاريخ الإسلام؟.. ألا لا حسرة على دنيا غادر منها مثل هؤلاء! ولا حدب على أيام تخلو من ذكرياتهم إلى غير لقاء!.. ألا ليت شعري من يقرّب جنان الموعد؟.. رحمهم الله تعالى، ورضي عنهم، وجمعنا بهم في دار الخلد، والله المستعان، وعليه التكلان، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وصل رسول الله ﷺ المدينة، واستقبله أهلها سائلين عن أهلهم، مستقبلين لأخبارهم، يسألون وهم يعلمون أن منهم من لا يمكن أن تكتحل أعينهم به قبل لقاء الآخرة، سائلين وهم يدركون أن الساحة ساحة جهاد، والذاهب غير عائد، لكنها الأنفس مهما بلغت في الإيمان لا تحب أن تفارق الأخلّاء، عاد ﷺ وبشّر المسلمين بما نال الشهداء من عظيم الأجر، حتى قال لابنة عبد الله بن عمرو والد جابر بن عبد الله رضي الله عنهما وقد رآها تبكي: «**لم تبكين؟ فما زالت الملائكة تظلُّه بأجنحتها حتى رُفع**»[(١)].

وسمع النبي ﷺ لأهل المدينة نحيباً وبكاءً على قتلاهم، فقال ﷺ: «**لكن حمزة لا بواكي له**».. فجاء نساء الأنصار يبكين حمزة، فاستيقظ

---

(١) رواه مسلم.

رسول الله ﷺ فقال: «**ويحهن ما انقلبن بعد؟.. مروهن فلينقلبن ولا يبكين على هالك بعد اليوم**».

وهؤلاء الشهداء نزل لهم من السماء خبر عاطر، وسلسبيل عذب حين قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

ونزلت آيات تعقب هذا العزاء تسلي المؤمنين، وتمسح جروحهم، وتخفف أتعابهم في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩ ـ ١٤٢].

فكانت هذه الآيات بمثابة الدواء البارد بعد الجراح الحارَّة، وكانت هذه الآيات بلسماً نديّاً بعد أن لظيت قلوب أولئك الصحابة بضروب من المشقة والعنت والغم، وكانت هذه الآيات ظلّاً بارداً بعد أن تعرضوا لشمس حارَّة محرقة.

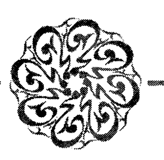
وكيف لا يكون ذلك وهم خرجوا في سبيل الله؟! كيف لا يكون ذلك وهم تركوا أهلهم وديارهم؟! كيف لا يكون ذلك وهم ما خرجوا أصلاً إلا تلبية لأمر الله وطاعة لحُكمه؟!..

ثامناً ـ إلى حمراء الأسد:

حين وصل النبي ﷺ إلى المدينة وصل منهكاً من أثر الجراح، ومتعباً من آثار النضال والجهاد، ومع كل ذلك دار في خلده ﷺ بعد أن

وصل إلى المدينة أن تزحف قريش إلى المدينة، وتباغتهم دون استعداد أو إنذار، خاصَّة أنها تشعر بآثار النصر الذي أحرزته، والانتصارات في الغالب تولّد شعوراً واستعلاء قد يجرُّها إلى هذا التفكير، لإكمال النصر المزعوم، فأمر ﷺ الجيش الذي شهد أحداً أن يخرج لمطاردة جيش قريش إلى حمراء الأسد ـ وهي على بعد ثمانية أميال من المدينة على طريق مكة ـ وقد أثنى الله تعالى على هذا الخروج بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٢].





الفصل السابع عشر

في أعقاب أُحـد

● تركت غزوة أُحد بعضاً من الثغور في دولة الإسلام يتسلل منها الطامعون إلى الصف الإسلامي، **لذا تجرأ الأعراب ممن هم حول المدينة على المسلمين**، فقام بنو أسد بقيادة طليحة الأسدي، وبنو هُذيل بقيادة خالد بن سفيان الهذلي في عرفات مستهدفين المدينة النبوية، وكان ذلك في شهر الله المحرم من السنة الرابعة للهجرة. .

وفطن رسول الله ﷺ للأمر فأرسل أبا سلمة بن عبد الأسد بمئة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار إلى طليحة الأسدي، وعقد له ﷺ لواء، وقال له: «**سر حتى تنزل أرض بني أسد، فَأَغِرْ عليهم قبل أن تتلاقى عليك جموعهم**»، فسار إليهم، وأغار عليهم، فتفرق أتباع طليحة الأسدي، وتركوا إبلهم، ومواشيهم فارِّين فزعين، وعاد إلى المدينة رضي الله عنه بعد أن وأد هذا الأمل في نفوس أصحابه.

● وفي المقابل أرسل ﷺ عبد الله بن أنيس الجهني إلى خالد بن سفيان الهذلي[١]، الذي تجمّع بجمع من قومه مناصرة لقريش، وتقرباً وتزلّفاً إليهم، وطمعاً في خيرات المدينة، فلقيه عبد الله بن أنيس يرتاد بماشيته في بطن عرَنة فقتله.

ولما وقع هذا أثّر في نفوس أصحاب خالد بن سفيان الهذلي، فما

---

(١) رواه الإمام أحمد، وحسَّن إسناده الحافظ.

كان من هذيل إلا أن سعت للثأر، ولجأت إلى الغدر والخديعة لتنفيذ مخططهم، وذلك في صفر من السنة الرابعة للهجرة، حين قدم وفد من قبيلتي عضل والقارة المضَريتين إلى المدينة، وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يرسل جمعاً من أصحابه أن يفقههم في الدين، فبعث جمعاً من الصحابة ما بين ستة إلى عشرة، وجعل عليهم عاصم بن ثابت الأقلح أميراً، فلما وصل الوفد بين عسفان ومكة أغار عليهم بنو لحيان ـ من هذيل ـ في عدد يصل إلى مئتي مقاتل، فأحاطوا بهم، وأعطى الأعراب الأمان من القتل للوفد، لكن عاصم بن ثابت أمير الوفد قال: «أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر»!.. إنها العزَّة التي تتلألأ في قلوب الرجال، والعزَّة التي تهتف بالكبار، والعزة التي تكتب ميراثها في قلوب الأحرار..

فقاتلوهم حتى قتلوا عاصماً وستة من أصحابه، وبقي ثلاثة فأعطاهم الأعراب الأمان من جديد فقبلوا، فلما نزلوا إليهم ربطوهم وغدروا بهم، فقاومهم عبد الله بن طارق فقتلوه، واقتادوا خبيب بن عدي، وزيد بن الدِّثنّة إلى مكة فباعوهما لقريش.

أما خبيب فقد اشتراه بنو الحارث بن عامر ليقتلوه بالحارث الذي كان خبيب قد قتله يوم بدر، فمكث عندهم أسيراً حتى قتلوه، وقصته شهيرة ليس هذا موطن ذكرها.. وأما زيد فاشتراه صفوان بن أمية وقتله بأبيه أمية بن خلف الذي قُتل في بدر.

● وفي هذا الشهر، شهر صفر من السنة الرابعة، كانت **وقعة بئر معونة**، ذلك أن أبا براء عامر بن مالك المدعو: ملاعب الأسنَّة، قدم إلى النبي ﷺ فدعاه إلى الإسلام، فلم يُسلم، ولم يُبعد، فقال: يا رسول الله! لو بعثت أصحابك إلى نجد يدعونهم إلى دينك لرجوت أن يجيبوهم، فقال: «**إني أخاف عليهم أهل نجد**» فقال أبو براء: أنا جار لهم، فبعث

معه سبعين رجلاً وأمّر عليهم المنذر بن عمرو الخزرجي، فلما وصلوا بئر معونة ـ وهي على بعد مئة وستين كيلاً عن المدينة من جهة نجد ـ نزلوا هناك، ثم بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل، فلم ينظر فيه، وأمر رجلاً فطعنه بالحربة من خلفه، فلمّا أنفذها فيه ورأى الدم، قال: فزت ورب الكعبة.

ثم استنفر عدو الله لفوره بني عامر لقتال الباقين، فلم يجيبوه لأجل جوار أبي براء، فاستنفر بني سليم، فأجابته عصيّة، وَرِعْل، وذَكْوان، فجاؤوا حتى أحاطوا برُسُل رسول الله ﷺ فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم، إلا كعب بن زيد بن النجّار فإنه ارتث بين القتلى، فعاش حتى قُتل يوم الخندق.

وكان عمرو بن أمية الضمري، والمنذر بن عقبة بن عامر في سَرْح المسلمين، فرأيا الطير تحوم على موضع الوقعة، فنزل المنذر بن عقبة فقاتل المشركين حتى قُتل مع أصحابه، وأسر عمرو بن أمية الضَّمري، فلما أخبر أنه من مضر أعتقه عن رقبة كانت على أُمِّه، ورجع عمرو بن أمية، فلمّا كان بالقَرقَرة ـ مكان بالقرب من المدينة ـ نزل في ظل شجرة، وجاء رجلان من بني كِلاب فنزلا معه، فلما ناما فتك بهما عمرو، وهو يرى أنه أصاب ثأراً من أصحابه، وإذا معهما عهد من رسول الله ﷺ لم يشعر به، فلما قدم أخبر رسول الله ﷺ بما فعل، فقال ﷺ: «**لقد قتلت قتيلين، لأدِيَنّهما**».

فمكث ﷺ شهراً في صلاة الفجر يدعو على رِعل وذكوان وعصية الذين قتلوا القرّاء، وكان ذلك بداية تشريع القنوت. والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁



الفصل الثامن عشر

غزوة بني النضير

ما تقدم من قتل عمرو بن أمية الضَّمري للرجلين اللذين معهما عهد من رسول الله ﷺ كان سبب هذه الغزوة، فإن النبي ﷺ خرج إلى بني النضير ليعِينوه في ديَتهما، لما بينه وبينهم من الحلف، فوافقوا، وجلس ﷺ هو، وأبو بكر، وعمر، وعلي، وطائفة من أصحابه رضي الله عنهم، واجتمع اليهود وتشاوروا فقالوا: من يلقي على محمد هذه الرحى فيقتله؟ فانبعث لهذه المهمة عمرو بن جِحَاش، ونزل جبريل بالوحي يُعْلِمه ما همَّ به اليهود، فنهض ﷺ وصحابته راجعين إلى المدينة..

ثم تجهّز ﷺ وخرج بصحابته لحربهم، فحاصرهم ست ليال، واستعمل على المدينة ابن أمّ مكتوم وذلك في ربيع الأول.. ونزلوا على أن لهم ما حملت إبلهم غير السلاح، ويرحلون من ديارهم، فترحّل أكابرهم كحيي بن أخطب، وسلامِ بن أبي الحُقيق إلى خيبر، وذهبت طائفة منهم إلى الشام، وأسلم منهم رجلان فقط: يامن بن عمرو، وأبو سعد بن وهب، فأحرزا أموالهما.

وقسّم ﷺ أموال بني النضير بين المهاجرين الأولين خاصة، لأنها مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، إلا أنه أعطى أبا دجانة، وسهل بن حُنيف الأنصاريين لفقرهما، وفي هذه الغزوة نزلت سورة الحشر.

قال ابن القيّم رحمه الله: «هذا الذي ذكرناه هو الصحيح عند أهل

المغازي والسير، وزعم محمد بن شهاب الزهري أن غزوة بني النضير كانت بعد بدر بستة أشهر، وهذا وهم منه وغلط عليه، بل الذي لا شك فيه أنها كانت بعد أحد، والتي كانت بعد بدر بستة أشهر هي غزوة بني قَيْنُقاع، وقريظة بعد الخندق، وخيبر بعد الحديبية. .

وكان للنبي ﷺ مع اليهود أربع غزوات:

أولها: غزوة بني قَيْنُقاع بعد بدر.

والثانية: غزوة بني النضير بعد أُحد.

والثالثة: غزوة بني قريظة بعد الخندق.

والرابعة: غزوة خيبر بعد الحديبية». اهـ.

❁ ❁ ❁



الفصل التاسع عشر

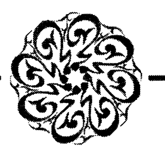
غزوة بدر الموعد

وفي ذي القعدة سنة أربع للهجرة خرج ﷺ في ألف وخمسمئة من أصحابه إلى بدر، وذلك لانتظار قدوم قريش حسب الموعد الذي حدده أبو سفيان في غزوة أُحد..

وانتظر المسلمون هناك ثمانية أيام دون أن تقدم قريش، وقد خرج أبو سفيان بألفين من أصحابه، فلما وصلوا مر الظهران على أربعين كيلاً من مكة عادوا، بحجة أن العام عام جدب.

وفي سنة أربع أيضاً حرّمت الخمر، وفي ذي القعدة من نفس العام تزوّج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش الأسدية، وفي حادثة زواجها نزل فرض الحجاب. والله تعالى أعلم.





الفصل العشرون

غزوة دُومة الجندل

دُومة الجندل بالضم، خرج إليها رسول الله ﷺ في ربيع الأول سنة خمس للهجرة، وذلك لأنه بلغه أن بها جمعاً كثيراً يريدون المدينة، فاستعمل على المدينة سِباع بن عُرْفُطة الغفاري، وخرج في ألف من المسلمين . .

فلما دنا منهم هجم على ماشيتهم ورُعاتهم، فأصاب من أصاب، وهرب من هرب، وجاء الخبر أهل دُومة الجندل فتفرّقوا، ونزل رسول الله ﷺ بساحتهم فلم يجد فيها أحداً، فأقام بها أياماً، وبث السرايا، وفرّق الجيوش، فلم يصب منهم أحداً، ثم قفل ﷺ راجعاً إلى المدينة .





الفصل الحادي والعشرون

غزوة بني المصطلق (المريسيع)

وكانت في شعبان سنة خمس للهجرة، وبنو المصطلق من قبيلة خزاعة الأسدية اليمانية، وكانوا يسكنون قديداً وعسفان على طريق المدينة مكة، تبعد قديد عن مكة مئة وعشرين كيلاً، وتبعد عسفان عن مكة ثمانين كيلاً.

أولاً ـ سبب هذه الغزوة:

سببها أن الحارث بن أبي ضرار سيّد بني المصطلق، سار في قومه ومن قدر عليه من العرب، يريدون حرب رسول الله ﷺ.. فبعث رسول الله ﷺ بريدة بن الحُصيب الأسلمي يَعْلَمُ له ذلك، فأتاهم، ولقي الحارث بن أبي ضرار، فأظهر له أنه جاء لعونهم، وعرَف نيَّتهم، ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبرهم.

فندب رسول الله ﷺ الناس فأسرعوا، وخرج معهم جماعة من المنافقين لم يخرجوا في غزاة قبلها، واستعمل على المدينة زيد بن حارثة، وقيل: أبا ذر، وقيل: نُميلة بن عبد الله الليثي، وبلغ الحارث بن ضرار ومن معه مسير رسول الله ﷺ، فخافوا، وتفرّق عنهم من كان معهم من العرب.

ثانياً ـ انتصار المسلمين:

وانتهى رسول الله ﷺ إلى المريسيع؛ وهو مكان الماء، فضرب عليه

قُبّته، ومعه عائشة وأم سلمة فتهيؤوا للقتال، وصفَّ رسول الله ﷺ أصحابه، وراية المهاجرين مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وراية الأنصار مع سعد بن عبادة رضي الله عنه، فتراموا بالنبل ساعة، ثم أمر رسول الله ﷺ فحملوا حملة رجل واحد فكانت النصرة وانهزم المشركون، وقُتل من قُتل منهم، وسبى رسول الله ﷺ النساء والذراري، والنَّعم، والشاء، وكان من جملة السبي جويرية بنت الحارث سيد القوم، وقعت في سهم ثابت بن قيس فكاتبها فأدى عنها رسول الله ﷺ وتزوجها، فأعتق المسلمون بسبب هذا التزويج مئة أهل بيت من بني المصطلق قد أسلموا، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ. . هذا ما ذكره ابن إسحاق.

وفي الصحيحين: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وهو شاهد عيان حضر الغزوة: أن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارون وأنعامهم تسقى على الماء، فقتل مقاتلتهم، وسبى ذراريهم[(١)].

ثالثاً ـ غيظ المنافقين:

وهذا الانتصار جاء امتداداً لانتصارات سابقة، كتبها رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، فشرق أهل النفاق بها، وغصَّت حناجرهم غيظاً وكمداً، وكانت الطريق بالأمس طويلة للصبر رغبة في حصول نكسات تشفي قلوبهم، وتدمل جراح الغيظ في تلك النفوس الخبيثة، أما اليوم فالأيام تُطوى فلا مجال للصبر، فهذا زيد بن أرقم الصحابي الجليل يحكي لنا غصص هؤلاء في هذه الغزوة؛ يقول:

سمعتُ عبد الله بن أبي يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها

(١) متفق عليه.

الأذل.. فذكرت ذلك لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، فذكره للنبي ﷺ فدعاني فحدثته، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا، فكذّبني رسول الله ﷺ وصدَّقهم، فأصابني همٌّ لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي: ما أردت إلى أن كذّبك رسول الله ﷺ ومقتك؟! فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [المنافقون: ١] فبعث إليّ رسول الله ﷺ فقرأ فقال: «**إن الله صدقك يا زيد**»(١).

ويتمادى الغيظ بأهل النفاق مرة أخرى، وتجترّهم الأحداث للبروز على غير العادة، يقول جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**ما بال دعوى جاهلية؟!**» قالوا: يا رسول الله! كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: «**دعوها فإنها منتنة**».. فسمع بذلك عبد الله بن أبي فقال: فعلوها، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقام عمر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «**دعه؛ لا يتحدّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**»(٢).

إن المحن والأزمات لا تكاد تبصر يدك في ظلامها الدامس، لكنَّ لها بصيص من النور يفلح في إخراج كنوز لم يستطع ضوء النهار إبرازها، أو مجرد الإشارة إليها.

إن المحن والأزمات حين تحيط بفرد أو مجتمع أو أمة تجبره على أن يخرج أسراره، وينشر خفاياه دون وعي بالحاضر أو إدراك بالعاقبة!..

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

لقد ظلَّ عبد الله بن أبي يحاول أن يلبس ثوباً واسعاً يتقلّب فيه على ما يريد، وفي غزوة أُحد دبَّ أول خرق في ذلك الثوب، لكن وجد له عذراً مبكراً أمكنه من رقعه في الوقت المناسب، أما في المريسيع فمزّق ثوبه بيديه، وبقي عارياً دون أن يشعر.

ولو لم يكن في تلك الأزمات إلا هذه النِّعم لكان كافياً!.

ليعلم من يقرأ هذه الأسطر أن بالإمكان أن نقرر على مستوياتنا الشخصية أو الاجتماعية أو العملية أن نلمح في وجه الحياة الجانب الأكثر إشراقاً، ونتلمّس في أيام المحن والكروب الثقوب التي لا يكون لها سطوعٌ ظاهرٌ في الوجه، لكن لها نورٌ قويٌّ في الخلف فقط إذا أدركناه، وعرفنا أين نقف منه!..

وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن أيّاً كان: داعياً أو أباً أو زوجاً، عليهم أن يدركوا جميعاً أن الألوان الحمراء في عالمنا الإسلامي اليوم مع مرارتها تكتب حقائق جديدة، وتسطّر تجارب ضخمة، وهي قبل ذلك وبعده قدرٌ أراده الله تعالى، ولا معقّب لحكمه، وحتماً إن فيها أوجهاً إيجابية كبيرة تنفع دروساً لمن عاشها على وجه الحقيقة، فقط نحتاج أن ندير الوجه الآخر، ونبحث عنها خلف هذا الوجه الشاحب. والله المستعان..

لقد كان ابن أبيّ حقيقاً بمقولة عمر رضي الله عنه: «دعني أضرب عنقه»، لكن القادة لا تستجيشهم الأحداث العاجلة، قال: «**دعه يا عمر؛ لا يتحدّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**».. وما أحوج الدعاة اليوم في ظلِّ هذه الخلافات إلى فهم هذه الرسالة، إن الناس لا تفرّق بين الأحداث، يأسرها الظاهر، وأي فعل يخالف ما يعتقدونه ثلمة لا تكاد

تنجبر، لقد كانوا كذلك بالأمس، وهم كذلك اليوم، فما أحوجنا معاشر الدعاة والمصلحين إلى قول نبينا: «**دعه يا عمر؛ لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**».

عوداً على ابن أبيّ: مع مرارة ما قال لم تشفِ غلّه الساكن في حنايا قلبه، فراح يبحث عن حدث أعمق أثراً في شخصية من بدد ملكه الواهي، فجاءت من لسانه هذه الوهلة الفاضحة، ووقع في قصَّة الإفك المشهورة التي قال فيها قولته الكاذبة الآثمة: إن صفوان بن المعطّل وقع بعائشة زوج رسول الله ﷺ، وإليك أحداث القصة بأكملها:

رابعاً ـ قصة الإفك:

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسولُ الله ﷺ إذا أرادَ سَفَراً أقرَعَ بينَ أزواجه، فأيتهن خَرجَ سهمُها خرجَ بها رسولُ الله ﷺ معه.

قالت عائشة: فأقرَعَ بينَنا في غزوةٍ غزاها فخرجَ فيها سهمي، فخرجتُ معَ رسولِ الله ﷺ بعدَما أُنزِلَ الحجابُ، فكنتُ أُحمَلُ في هَودَجي وأُنزَلُ فيه.

فسِرنا، حتى إذا فرغَ رسولُ الله ﷺ من غزوتهِ تلكَ وَقفلَ ودَنَونا منَ المدينة قافلِينَ، آذنَ ليلةً بالرَّحيلِ، فقمتُ حين آذنوا بالرحيل فمشيتُ حتى جاوَزتُ الجيشَ، فلما قَضيتُ شأني أقبلتُ إلى رحلي فَلمستُ صدري فإِذا عِقدٌ لي من جَزع ظَفار قدِ انقطعَ، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه.

قالت: وأقبلَ الرهط الذين كانوا يُرحِّلوني فاحتَملوا هَودَجي فرَحَلوه على بعيري الذي كنت أركبُ عليه؛ وهم يَحسبونَ أني فيه، وكان النساء

إذ ذاك خِفافاً لم يَهبَّلْنَ ولم يَغشَهنَّ اللحم، إنما يأكلن العُلقةَ من الطعام، فلم يَستنكِرِ القومُ خِفةَ الهودج حينَ رفعوه وحملوه، وكنت جاريةً حدِيثةَ السِّنّ، فبعثوا الجملَ فساروا، ووجدتُ عقدي بعدما استمرَّ الجيش، فجئتُ مَنازِلَهم وليسَ بها منهم داعٍ ولا مجيب. . فتيممتُ منزلي الذي كنت بهِ، وظنَنت أنهم سيَفقِدوني فيرجعونَ إليّ.

فبينا أنا جالسةٌ في منزلي غلَبَتْني عيني فنِمت، وكان صَفوانُ بن المعطِّل السُّلميّ ثم الذَّكوانيّ من وراء الجيش، فأصبحَ عند منزلي، فرأى سوادَ إنسانٍ نائم، فعرَفني حينَ رآني، وكان رآني قبلَ الحجاب، فاستيقظتُ باسترجاعهِ حينَ عَرفني، فخمَّرتُ وجهي بجلبابي. . وواللهِ ما تكلمنا بكلمة، ولا سمعتُ منه كلمةً غيرَ استرجاعه، وهوَى حتى أناخَ راحِلتَه، فوطئَ على يدِها، فقمت إليها فركبتُها، فانطلق يَقود بي الراحلة حتى أتينا الجيشَ موغِرِين في نحرِ الظهيرة وهم نُزول. قالت: فهلَكَ فِيَّ مَن هلك.

وكان الذي تولَّى كِبرَ الإِفك عبدُ الله بن أُبيّ ابن سَلول.

قال عروة: أُخبرتُ أنه كان يُشاع ويُتحدَّثُ به عندَه فيُقِرُّه وَيَستمعه ويستوشيه. وقال عروة أيضاً: لم يسمَّ من أهل الإفك أيضاً إلا حسّانُ بن ثابتٍ ومِسطح بن أُثاثةَ وحَمنة بنت جَحشٍ في ناسٍ آخَرين لا علم لي بهم، غيرَ أنهم عُصبةٌ ـ كما قال الله تعالى ـ وإنَّ الذي تولى كِبرَ ذلك يقال: عبدُ الله بن أُبيّ ابن سَلول. قال عروة: كانت عائشة تَكرَه أن يُسَبَّ عندَها حَسّانُ وتقول: إنه الذي قال:

فإنَّ أبي ووالدَه وعِرضِي لعِرضِ محمدٍ منكم وِقَاءُ

قالت عائشة: فقَدِمنا المدينةَ، فاشتكيتُ حينَ قدِمتُ شهراً، والناسُ

يُفِيضونَ في قولِ أصحابِ الإفك، لا أشعُرُ بشيءٍ من ذلك، وهو يُريبُني في وَجعي أني لا أعرِفُ من رسولِ اللهِ ﷺ اللطفَ الذي كنتُ أرَى منه حينَ أشتكي، إنما يَدخُلُ عليَّ رسول الله ﷺ فيُسلِّم ثم يقول: «**كيفَ تِيكم؟**» ثمَّ ينصرف. .

فذلك يريبُني ولا أشعُرُ بالشرِّ، حتى خرَجتُ حينَ نَقَهت، فخَرَجتُ معَ أمِّ مِسطحٍ قِبَلَ المَناصعِ ـ وكان مُتبرَّزَنا، وكنّا لا نخرجُ إلّا ليلاً إلى ليل ـ وذلكَ قبلَ أن نتَّخذَ الكنُفَ قريباً من بيوتِنا. . قالت: وأمرُنا أمرُ العربِ الأُوَل في البرِّيةِ قِبَلَ الغائط، وكنا نَتأذَّى بالكنفِ أن نَتَّخذها عندَ بُيوتنا.

قالت: فانطَلَقتُ أنا وأُمُّ مِسطحٍ ـ وهي ابنةُ أبي رُهم بن المطلبِ بن عبدِ مَناف، وأُمُّها بنتُ صَخر بن عامرٍ خالةُ أبي بكر الصدِّيق، وابنها مِسطحُ بن أُثاثةَ بن عبّاد بن المطّلب ـ فأقبلتُ أنا وأُمُّ مِسطح قِبَلَ بيتي حينَ فرغنا من شأننا، فعَثَرتْ أمُّ مِسطحٍ في مِرْطِها فقالت: تَعسَ مسطحٌ، فقلت لها: بئسَ ما قلتِ، أتسُبِّينَ رجلاً شهِدَ بَدراً؟ فقالت: أي هَنْتاهُ، أَو لم تسمَعي ما قال؟ قالت: قلتُ: ما قال؟ فأخبرَتْني بقولِ أهلِ الإفك. قالت: فازدَدتُ مرَضاً على مرَضي.

فلما رَجَعتُ إلى بيتي دَخلَ عليَّ رسولُ الله ﷺ، فسلم ثمَّ قال: «**كيفَ تِيكم؟**» فقلتُ له: أتأذنُ لي أن آتي أبوَيَّ؟ قالت: وأريدُ أن أستَيقنَ الخبرَ مِن قِبَلِهما. قالت: فأذِنَ لي رسولُ الله ﷺ.

فقلتُ لأمي: يا أُمَّتاهُ، ماذا يَتحدَّثُ الناس؟ قالت: يا بنيَّة، هَوِّني عليك؛ فواللهِ لقلَّما كانتِ امرأةٌ قطُّ وَضِيئةً عندَ رجلٍ يحبُّها لها ضَرائرُ إلّا أكثرْنَ عليها. قالت: فقلت: سُبحانَ الله، أوَ لقد تحدَّثَ الناسُ بهذا؟

قالت: فبكيتُ تلكَ الليلةَ حتى أصبحتُ لا يَرقأُ لي دَمعٌ ولا أكتَحلُ بنوم، ثمَّ أصبحتُ أبكي.

قالت: ودَعا رسولُ الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب وأُسامة بن زيدٍ حِينَ استَلْبَثَ الوحيُ يسألهما ويَستشيرهما في فِراق أهلهِ. قالت: فأما أُسامة فأشارَ على رسولِ الله ﷺ بالذي يعلم من براءةِ أهله وبالذي يَعلَم لهم في نفسهِ، فقال أسامة: أهلُكَ، ولا نعلمُ إلا خيراً. وأما عليٌّ فقال: يا رسولَ الله، لم يُضيِّقِ اللهُ عليك، والنساءُ سِواها كثير، وسَلِ الجاريةَ تصْدُقْك.

قالت: فدعا رسولُ اللهِ ﷺ بَريرةَ فقال: «**أي بَريرة، هل رأيتِ من شيءٍ يَريبكِ؟**» قالت له بريرة: والذي بعثَكَ بالحقّ، ما رأيتُ عليها أمراً قطُّ أغمِصهُ، غيرَ أنها جاريةٌ حديثة السنِّ تنامُ عن عَجين أهلِها فتأتي الداجِنُ فتأكله.

قالت: فقامَ رسولُ الله ﷺ مِن يومهِ فاستعذَرَ من عبدِ اللهِ بن أُبيّ ـ وهوَ على المنبرِ ـ فقال: «**يا معشرَ المسلمين! مَن يَعذِرني من رجلٍ قد بلَغَني عنه أذاهُ في أهلي، فواللهِ ما علمتُ على أهلي إلّا خيراً. ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلّا خيراً، وما يَدخلُ على أهلي إلّا معي**».

قالت: فقام سعدُ بن مُعاذٍ ـ أخو بني عبد الأشهل ـ فقال: أنا يا رسولَ الله أعذِرك، فإن كان منَ الأوس ضرَبتُ عُنقه، وإن كان من إخواننا منَ الخزرَج أمرتَنا ففعلنا أمرَك.

قالت: فقام رجلٌ منَ الخزرج ـ وكانت أُمُّ حسّانَ بنتَ عمه من فخذه، وهوَ سعدُ بن عُبادةَ وهو سيِّد الخزرج، قالت: وكان قبلَ ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتمَلَته الحميَّة ـ فقال لسعد: كذَبتَ لعَمْرُ الله، لا

تقتلهُ ولا تقدِرُ على قَتله، ولو كان من رَهطِكَ ما أحَبَبتَ أن يُقْتَل. فقام أُسَيدُ بن حُضير ـ وهو ابن عم سعد ـ فقال لسعد بن عُبادةَ: كذبتَ لعمر الله، لنقتلَنَّه، فإنكَ منافقٌ تجادِل عن المنافقين. قالت: فثارَ الحيَّانِ ـ الأوس والخزرج ـ حتى همُّوا أن يَقتتِلوا ورسولُ الله ﷺ قائمٌ على المنبر. قالت: فلم يَزَل رسولُ الله ﷺ يُخفِّضُهم حتى سَكتوا وسكت.

قالت: فبكيت يومي ذلكَ كلهُ لا يَرقأُ لي دمع ولا أكتحلُ بنوم.

قالت: وأصبحَ أبَوايَ عندي وقد بَكيتُ ليلَتَين ويوماً لا يرقأ لي دمعٌ ولا أكتحلُ بنوم، حتى إنِّي لأظنُّ أنَّ البُكاء فالقٌ كبِدي.

فبينا أبوايَ جالِسان عندي وأنا أبكي فاستأذنَتْ عليَّ امرأةٌ منَ الأنصار، فأذِنتُ لها، فجلَسَت تبكي معي.

قالت: فبينا نحن على ذلك دخلَ رسولُ الله ﷺ علينا فسلَّمَ ثمَّ جلَس. قالت: ولم يَجلِسْ عندي منذ قِيلَ ما قيلَ قَبلَها، ولقد لبث شهراً لا يُوحى إليه في شأني بشيء.. قالت: فتشهَّدَ رسولُ الله ﷺ حين جلسَ ثم قال: «**أما بعدُ.. يا عائشة! إنه بلغَني عنكِ كذا وكذا، فإن كنتِ بريئةً فَسَيُبَرِّئُكِ الله، وإن كنتِ ألممتِ بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإنَّ العبدَ إذا اعترفَ ثم تابَ تاب الله عليه**».

قالت: فلما قضى رسولُ الله ﷺ مَقالَته قَلَصَ دمعي حتى ما أُحِسُّ منه قَطرة، فقلتُ لأبي: أجِبْ رسولَ اللهِ ﷺ عنّي فيما قال، فقال أبي: واللهِ ما أدري ما أقول لرسولِ الله ﷺ، فقلتُ ـ وأنا جاريةٌ حديثةُ السن لا أقرأ من القرآن كثيراً ـ: إني والله لقد علمتُ: لقد سمعتم هذا الحديثَ حتى استقرَّ في أنفُسِكم وصدَّقتم به، فلَئن قلت لكم: إني بريئة؛ لا تُصدّقونني، ولئنِ اعترفت لكم بأمرٍ ـ واللهُ يعلم أني منه بريئة ـ لتُصَدِّقُنِّي،

فوالله لا أجِدُ لي ولكم مثلاً إلّا أبا يوسفَ حين قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

ثمَّ تحوَّلتُ فاضطجعت على فراشي، واللهُ يعلم أنِّي حينئذٍ بريئة، وأنَّ اللهَ مبرِّئي ببراءتي.. ولكنِّي واللهِ ما كنت أظنُّ أنَّ اللهَ تعالى منزلٌ في شأني وحياً يُتلى، لَشأني في نفسي كان أحقرَ من أن يتكلَّم اللهُ فيَّ بأمر، ولكن كنت أرجو أن يَرى رسولُ الله ﷺ في النوم رُؤيا يُبَرِّئُني اللهُ بها، فوالله ما رام رسولُ الله ﷺ مجلِسه ولا خرَج أحدٌ من أهل البيت حتى أُنزلَ عليه، فأخَذهُ ما كان يأخذهُ منَ البُرَحاءِ، حتى إنه لَيتحدَّرُ منهُ العرَق مثلُ الجُمان ـ وهوَ في يومٍ شاتٍ ـ من ثِقَلِ القولِ الذي أنزلَ عليهِ.

قالت: فسُرِّيَ عن رسولِ الله ﷺ وهو يَضحكُ، فكانت أوَّل كلمةٍ تكلمَ بها أن قال: «**يا عائشة، أمّا اللهُ فقد برَّأكِ**». قالت: فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: لا واللهِ لا أقوم إليه، فإني لا أحمدُ إلّا اللهَ ﷻ. قالت: وأنزلَ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ..﴾ [النور: ١١]. ثم أنزلَ اللهُ تعالى هذا في براءتي.

قال أبو بكرٍ الصدِّيقُ ـ وكانَ يُنفِقُ على مِسطحِ بن أثاثةَ لقرابتهِ منهُ وفقره ـ: واللهِ لا أُنفِقُ على مِسطح شيئاً أبداً بعدَ الذي قال لعائشة ما قال.. فأنزَلَ الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

قال أبو بكر الصِّديق: بَلى والله، إني لأحِبُّ أن يَغفرَ اللهُ لي. فرَجعَ إِلى مسطحٍ النفقةَ التي كان يُنفِقُ عليه، وقال: واللهِ لا أنزِعها منه أبداً.

قالت عائشة: وكان رسولُ اللهِ ﷺ سألَ زينبَ بنت جَحشٍ عن أمري، فقال لزينبَ: «**ماذا علمتِ أو رأيتِ؟**» فقالت: يا رسولَ الله أحمي

سمعي وبصري، والله ما علمتُ إلّا خيراً. قالت عائشة: وهيَ التي كانت تُسامِيني من أزواج النبيِّ ﷺ، فعصَمَها اللهُ بالوَرَع. قالت: وطَفِقَت أختُها حمنةُ تحاربُ لها، فهلكتْ فيمن هلك.

قال ابن شهاب: فهذا الذي بلغني من حديث هؤلاءِ الرَّهْط.

ثم قال عروة: قالت عائشة: واللهِ إنَّ الرجُلَ الذي قيلَ لهُ ما قيل ليقول: سُبحانَ الله، فوالذي نفسي بيدِه ما كشفتُ من كَنَفِ أنثى قطّ. قالت: ثمَّ قُتِل بعدَ ذلك في سبيل الله[١].

وهذا الحدث هو آخر ورقة يملكها المنافق ليرمي بها وهو يدرك تماماً آثارها وأبعادها.. وهكذا همُ المنافقون، كالحرباء تتكيّف مع كل الأجواء، وتتلوّن بلون الواقع الذي تعيش فيه رغبة في دوام العيش، ولو تأملتها على بعد لرأيت مظهراً أنيقاً، ولو مسستها أو حاولت مجرَّد القرب منها لرأيت شكلاً قبيحاً، ومنظراً مقززاً.. فللَّه ما أشبهها بالقوم، وما ألصقها بأوصافهم، والأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف.. انتظر طويلاً هذا المنافق لكن دون جدوى، حاول أن يتكيّف لكن دون فائدة، تلفّت فلا ملك ينتظر، وإذا كان كذلك فإلى متى؟!..

إن هذه القصة تحكي قصة راحل مرَّ في ذاكرة التاريخ، لكنها تكتب وتُجَدّد على نسخٍ كثيرة على الواقع.

إن ابن أبيّ رحل لكنَّه ترك إرثاً كبيراً من الكبْر، والحقد، والبغضاء فتقاسمته أجيال كثيرة على مرِّ الأزمان!.. وهم في زماننا هذا أوضح من

(١) متفق عليه.

كل زمان، ذلك أنهم وجدوا لهم مرتعاً خصباً يخرجون فيه بعض آثارهم عند حلول الفتن، ووقوع الأزمات، وصدق الله تعالى حين قال: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ [محمد: ٣٠].

لن أطيل في تلويث هذه الصفحات بذكر شيء من آثارهم، لكن أقول لك: تدبّر أوقات الأزمات، وانظر آثار أقلامهم، ونزغ ألسنتهم، تجد أنهم لا يجاوزون معالم الدين البتّة، لكنهم يتفننون في إلباس ذلك بدروع سابغة لا تدري من أين جاءها الوسخ العالق بها، والله يعلم ذلك، لكنَّه يمُدُّ لهم، ويوسّع في أوقاتهم، وإذا أخذ الظالم لم يفلته. والله المستعان..

● إن أكثر درس يتركه حادث الإفك في حياة المسلمين: **أن أيام الفتن والأزمات أحوج ما نكون فيها إلى سدِّ منافذ الحديث، وتكميم الأفواه، ومحاولة فرض رقابة شديدة عليها حتى لا تزلَّ دون علم أو تقع دون يقين**.. وإذا أردت أن تعرف ذلك يقيناً فانظر كيف أن حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش؛ مع صحبتهم لرسولهم ﷺ، ومحبتهم له، وشعورهم بأنهم جسد واحد لا يمكن أن تفرّقهم الأحداث مهما كبرت، زلَّت بهم ألسنتهم فوقعوا في عرض الصديقة بنت الصديق، وحُدّ كل منهم بثمانين سوطاً تطهيراً لهم وتكفيراً.

وقد وعت بريرة ـ وهي خادمة ـ هذه القضية وعياً تامّاً، فلم يسعها في زحمة الحدث حين سألها رسول الله ﷺ إلا أن قالت: والذي بعثَكَ بالحقّ، ما رأيتُ عليها أمراً قطُّ أغمِصهُ، غيرَ أنها جاريةٌ حديثة السنِّ تنامُ عن عَجين أهلِها فتأتي الداجِنُ فتأكله. لله درها ما أحسن حديثها! وما أروع صدقها! وما أعف لسانها!..

ومثلها في ذلك زينب بنت جحش رضي الله عنها؛ سألَها ﷺ فقال لها: «**ماذا**

علمتِ أو رأيتِ؟» فقالت: يا رسولَ الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمتُ إلّا خيراً.

قالت عائشة: وهيَ التي كانت تُسامِيني من أزواج النبيِّ ﷺ، فعصَمَها اللّهُ بالوَرَع.. نعم إنه الورع لا غير، الورع الذي أدركه نساء، وما زال رجال كثير ليس من الدهماء العامة، كلا! لكن من الأصفياء؛ ما زالوا في حاجة ماسَّة إلى ذلك الورع. والله المستعان..

الحديث مجال خصب لكثير من المعاني، لكنني أتحدث عن السيرة فلا أود أن أبعثر مضامينها واتساقها. والله المستعان..





الفصل الثاني والعشرون

غزوة الخندق (الأحزاب)

أولاً ـ وقتها وأسبابها ومقدّماتها:

وقعت هذه الغزوة في شوال سنة خمس من الهجرة.

وسببها أن اليهود لمَّا رأوا انتصار المشركين على المسلمين يوم أُحد، وعلموا بميعاد أبي سفيان لغزو المسلمين، فخرج لذلك ثم رجع للعام المقبل، خرج أشرافهم، كسلّام بن أبي الحُقيق، وسلّام بن مِشكَم، وكنانة بن الربيع، وغيرهم.. إلى قريش في مكة يحرضونهم على غزو رسول الله ﷺ، ويؤلبونهم عليه، فأجابتهم قريش إلى ذلك، ثم خرجوا إلى غَطَفان فدعوهم فاستجابوا لهم، ثم طافوا في قبائل العرب يدعونهم لذلك، فاستجاب لهم من استجاب.

فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان في أربعة آلاف، ووافتهم بنو سليم بمرِّ الظهران، وخرجت بنو أسد، وفَزَارَة، وأشجع، وبنو مرَّة، وجاءت غطفان وقائدهم عُيينةُ بن حِصْن، وكان أن وافى الكفار عشرة آلاف.

ثانياً ـ الخندق:

لما سمع رسول الله ﷺ بمسير الأحزاب إليه، استشار الصحابة، فأشار عليه سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر خندق يحول بين العدو وبين المدينة، فأمر به رسول الله ﷺ، فبادر إليه المسلمون، وعمل بنفسه فيه،

وكان في الجهة الشمالية للمدينة ليربط بين حرة واقم وحرة الوبرة، وهي المنطقة الوحيدة المكشوفة أمام العدو، أما الجهات الأخرى فكانت كالحصن يربط بعضها ببعض.

وكانت مسافة الخندق طولاً خمسة آلاف ذراع، وعرضاً تسعة أذرع، وعمقاً ما بين سبعة إلى عشرة أذرع، تولَّى المهاجرون الحفر من ناحية حصن راتج في الشرق إلى حصن ذباب، والأنصار من حصن ذباب إلى جبل عبيد في الغرب.

وصاحَب هذا العمل من الجهد والمشقة والتعب ما لا يتصوّر، مع قلَّة العيش الذي يكون عوناً على إنجاز هذه المشاق، لقد كان طعامهم بعضاً من الشعير، يخلط بدهن متغيّر الرائحة، وأحياناً لا يوجد سوى تمرات يحتسون الماء عليها، وأحياناً يبقون اليوم، واليومين، والثلاثة لا يجدون طعاماً، ورسولهم وقائدهم وإمامهم ﷺ معهم يحفر وينقل التراب بنفسه، وقد شدَّ على بطنه حجراً لشدة الجوع، حتى تعلم أن الأعمال الشاقة، والمهمات الكبيرة لا تحتاج عدداً بقدر ما هي بحاجة ماسَّة إلى همم الكبار!.

لقد كتب الله تعالى في سننه الإلٰهية أن النصر لا يمكن أن تحققه الأماني البتَّة، وأن النجاح صنو التجربة والتعب والجهد والمشقة... وهذا ما كان بالضبط في خندق المدينة، إن بإمكان الله تعالى أن يصدَّ أعداءه عن أوليائه، وأن يكتب لرسوله نصراً دون هذا العناء، وهم بلا شك حقيقون به، لكنَّ سنن الله تعالى تأبى ذلك! فكان هذا العناء والتعب والمشقة!.. وهكذا هو النجاح يظل وليداً للتجربة المتكررة، والعرَق النازف من آثار المشقة.. والطامعون فيه من غير ذلك بينهم وبينه مفاوز لا تبلغها الآمال!..

أثر آخر يتركه القائد نبي الله ﷺ حين كان يشارك في التعبئة العملية للجهاد بنفسه، وهذا النوع من القادة هو الأكثر أثراً في حياة الأجيال! وإلا متى كان القادة يقبعون في بيوتهم والأتباع ينزفون عرَقاً، ويكتبون جهداً وعملاً؟!..

إن القادة الحقيقيين هم من يكتبون بالعمل أروع صور القيادة الحقيقية، ومن يوجِّه وهو قاعد على أريكته زاعماً أن هذه بعض صور القيادة هو أحق ألا يكون ضمن الأتباع؛ فكيف يكون على رأس الهرم؟!..

استمر حفر الخندق، **وكان القائد ﷺ يعلِّمنا درساً من دروس التحفيز**، كما علَّمنا هناك في بدر، وأُحد، كان يردد مع صحابته، الأهازيج المعبرة للواقعة، الداملة للجراح، الباعثة على الآمال:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلَن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

وكان المسلمون يحفرون ويرددون:

نحن الذين بايعوا محمدا على الإسلام ما بقينا أبدا

فكان يجيبهم بقوله:

اللهم لا خير إلا خير الآخرة فبارك اللهم في الأنصار والمهاجرة

استمر حفر الخندق، واستمرت معه صور المعاناة، لكن لاح في الأفق بعض الآيات العظيمة التي كانت طمأنينة لأهل الإيمان، وهم يواجهون ثُلل النفاق والكفر..

فهذا جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما لـمّا رأى ما أصاب

رسول الله ﷺ من الجوع؛ قال لزوجته: اصنعي لنا طعاماً، فطحنت زوجه صاعاً من شعير، وذبح معزى له، وذهب يدعو النبي ﷺ؛ لكن يدعوه على سبيل الخفاء لقلّة العيش، وضعف الزاد، والعدد كثير، فصاح النبي ﷺ بالمسلمين، ودعاهم إلى طعام جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، فحضر منهم ألف، والغداء الذي ينتظرهم صاع شعير لا غير، فما كان من النبي ﷺ إلا أن دعا على هذا الطعام بالبركة فكان ما يكفيهم، وزاد منه الكثير(١)..

وبينما عمار بن ياسر رضي الله عنه يحفر؛ إذ نظر إليه النبي ﷺ فقال له: «**تقتلك الفئة الباغية**»(٢).. فكان أن قتل في صفين.

وعرضت لصحابة رسول الله ﷺ صخرة كبيرة، فاستُدعي لها ﷺ، فضربها ثلاث ضربات، قال في الأولى: «**الله أكبر.. أعطيتُ مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة**».. ثم ضربها ثانية وقال: «**الله أكبر.. أعطيتُ مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض**».. ثم ضرب الثالثة وقال: «**الله أكبر.. أعطيتُ مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذه الساعة**»(٣).. كانت تلك الإشارات تدمل آثار الجوع، وتطمئن النفوس بوعد الله تعالى!..

وكان حفر الخندق أمام سَلْع، وسَلْع جبل خلف ظهور المسلمين، والخندق بينهم وبين الكفار..

ثم خرج ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين، ليواجه بهم عشرة آلاف من الأعداء! فتحصّن بالجبل من خلفهم، وبالخندق أمامهم، وأمر ﷺ

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه الإمام أحمد، والنسائي، وحسنه الحافظ.

بالنساء والذراري، فجُعلوا في حصن من الحصون، واستخلف عليهم ابن أم مكتوم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ثالثاً ـ بنو قريظة ينقضون العهد:

في هذه الأثناء انطلق حُيي بن أخطب إلى بني قُريظة، فدنا من حصنهم، فأبى كعب بن أسد أن يفتح له، فلم يزل يكلِّمه حتى فتح له، فلما دخل عليه قال له: لقد جئتك بعز الدهر، جئتك بقريش وغطفان وأسَدٍ.. فما زال به حتى نقض العهد الذي بينه وبين رسول الله ﷺ، ودخل مع المشركين في محاربته، فسُرّ بذلك المشركون، وشرط كعبٌ على حُيي إن لم يظفروا بمحمد ﷺ أن يجيء حتى يدخل معه في حِصنه فيصيبه ما أصابه، فأجابه إلى ذلك، ووفّى له به.

وبلغ رسول الله ﷺ خبر بني قُريظة ونقضهم للعهد، فبعث إليهم السعدين، وخَوّات بن جبير، وعبد الله بن رواحة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم ليتأكدوا من الخبر، فلما دنوا منهم وجدوا الخبر صدقاً، والحال كما وصف من قبل، فأخبروا رسول الله ﷺ، فعظم ذلك على المسلمين، وشق عليهم، ذلك أن ديار بني قُريظة في العوالي في الجنوب الشرقي للمدينة، وكان موقعهم يمكِّنهم من ضرب المسلمين من الخلف.

وقد صوّر الله تعالى ذلك الحال بقوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠ ـ ١١].

فما كان من النبي ﷺ إلا أن قال: «**الله أكبر.. أبشروا يا معشر المسلمين!**»..

وهكذا هم القادة إذا اشتدت عليهم الأزمات، واحلولك ليلها

الدامس، وجَدْت عندهم أملاً يرفرف في نفوسهم، ونوراً يشع من قلوبهم، وثقة في ربهم تتجاوز كل ما يتحدّث به الناعقون في تلك الأزمات:

اشتدي أزمة تنفرجي قد آذن ليلك بالبلجِ

وقد علَّمتنا الحياة بعضاً من آثار النبوة: أنه مهما طال ليل العصبة، إلا أنه مدبر بالبلج، وضوء الشمس العاجل قادر على تفتيت ظلمة الليل الدامس. والله المستعان..

رابعاً ـ تخاذل المنافقين:

اشتد البلاء، وظهر النفاق في صور شتى لا تحسن إظهارها بتلك الصور إلا آثار الأزمات، استأذن بنو حارثة في الذهاب إلى المدينة متعللين بقولهم: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾؛ فقال الله تعالى: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣].

وظهرت صوَر أخرى يجملها القرآن في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

وقد علمت فيما سبق به القلم في أحداث بدر وأحد أن الأزمات لها وجهان؛ الظاهر منها لا يقوى عليه إلا أهل الإيمان، والباطن منها لا يصل إليه إلا أهل التقوى والإحسان.. ولو لم يكن في هذه الغزوة إلا تمزّق سُتور هؤلاء المنافقين لكان كافياً. والله المستعان..

خامساً ـ بطولات إيمانية:

ظلَّ الحصار قائماً شهراً كاملاً، المشركون من خارج المدينة على أطراف الخندق، والمسلمون محاصرون لا يبرحون عن مكانهم.

وأنت على علم فيما سبق في بدر أن المشركين بادروا حين وصولهم بالنزال اغتراراً بكثرتهم فكان ما كان، واليوم يتكرر نفس المشهد من جديد، وإنني والله لأعجب وأقول: لو لم يكن في الإقدام والمبادرة إلا أنه برهان صادق على شجاعة تلك النفوس لكان كافياً.

● أقبل عمرو بن ود، وجماعة معه نحو الخندق، فلما رأوه قالوا: هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها، ثم تيمموا مكاناً ضيّقاً من الخندق، فاقتحموه، وجالت بهم خيلهم في السبخة بين الخندق وسَلْع، ودعوا إلى البراز، فانتدب لعمرو بن ود علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فالتقيا ودارت رحى المعركة بينهما، فلم تكن سوى لحظات فإذا بعمرو بن ود يودع الدنيا، ويسقط قتيلاً بين يدي البطل الهمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فللّه درُّك يا أبا الحسن! مشهد لا يحسن فنَّه إلا الأبطال الأفذاذ في تاريخ الأمة، ألا فلا نامت أعين الجبناء!.

إن أكبر ما يميّز الشجاعة عن غيرها من الأخلاق أنها لا تعرف الالتفات إلى الوراء البتة! ومتى كانت البداية تعجّل بالأقدار؟! ومتى كان الاستباق إلى موارد الهلاك مذلة إلا في أعراف الضعفاء الجبناء؟!..

ومن جرّب عرف، ومن ذاق آثار هذه المواقف صابر في مواقف الأزمات.

وصدق من قال:

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد لنفسي حياةً مِثل أن أتقدما

وكان موقف علي رضي الله عنه رسالة ليس لمن تقدّم مع عمرو بن ود.. كلا! وإنما للجيوش الحاشدة التي تنتظر زمن نفرتها، فرجع من تقدّم مرة أخرى إلى الصف..

وكان شعار المسلمين: «حم لا ينصرون». . وأثر الشعارات في النفوس أكثر من أن توصف، ومن تدبّر غزوات رسول الله ﷺ أدرك ذلك واضحاً جليّاً.

إن الكلمة لها شأن عظيم في جمع الصف، ورأب الصدع، وعزيمة النفوس، وهذا ما تصنعه الشعارات. . وهو ما أراده رسول الله ﷺ، وصحابته الكرام، ومن يمارس التربية اليوم سواءً كان أباً أو معلماً يدرك أن هذه الشعارات تُحدث آثاراً إيجابية عاجلة. . ومن جرّب عرف.

● طال الموقف، وحُصر رسول الله ﷺ وأصحابه في المدينة، فأراد النبي ﷺ أن يصالح عيينة بن حِصن، والحارث بن عوف رئيسي غطفان على ثُلث ثمار المدينة، وينصرفا بقومهما، فاستشار السعدين رضي الله عنهما في ذلك، فجاء جوابٌ عيب على الإنسان أن يكتبه دون أن يحتفي به!. .

عار في تاريخ الإسلام أن يمرَّ بمثل هذه الأقوال التي هي تاريخ في حدِّ ذاتها، ثم لا ينتبه لمضامينها أو مراميها!. .

لله درُّ السعدين! لمَّا استشارهما النبي ﷺ قالا: «يا رسول الله! إن كان الله أمرك بهذا، فسمعاً وطاعة، وإن كان شيئاً تصنعه لنا، فلا حاجة لنا فيه، لقد كنّا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله تعالى، وعبادة الأوثان، وهم لا يطمعون أن يأكلوا من ثمرها إلا قرًى أو بيعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزّنا بك نعطيهم أموالنا؟! والله لا نعطيهم إلا السيف».

وصدق الغزالي رحمه الله حين قال: «وطبائع النفوس تتفاوت تفاوتاً كبيراً لدى الأزمات العضوض، منها الهش الذي سرعان ما يذوب، ويحمله التيار معه كما تحمل المياه الغثاء والأوحال، ومنها الصلب الذي

تمرُّ به العواصف المجتاحة فتنكسر حدَّتها على متنه، وتتحوّل رغوة خفيفة وزَبَداً، ومنهم من إذا مسَّه الفزع طاش لبُّه فولَّى الأدبار، وكلَّما هاجه طلب الحياة وحب البقاء أوغل في الفرار». اهـ.

لمّا سمع رسول الله ﷺ رأي السعدين، قال ﷺ: «**إنما هو شيء أصنعه لكم؛ لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة**».

إن الأمة تربّت على العزَّة، وعاشت عليها زمناً طويلاً، ومن العار أن تُستذل أو يحاوَل استذلالها!..

إن أبرز معالم تلك الأمة التي عاشت في كنف النبوة، وشربت من أسرار التشريع أنها أمة عزيزة لا تقبل الضيم ولو ذهبت أشلاء في التاريخ.. ونحن بحمد الله تعالى نسل أولئك الكرام، وعقب أولئك الرجال العظماء، فلمَ نحني رقابنا وقد رفع الله شأنها؟! ولمَ نخفي أصواتنا وقد أعلى الله تعالى نبرتها؟!..

لكن حسبي أن أقول: إن النُّطف وإن كان أصلها عزيزاً إلا أنها بحاجة إلى نور من آثار الوحي، وحين تشرب من ذلك المعين حتى ترتوي يمكن بعد ذلك أن يصعب قيادها من ذيول الأمم أو دهماء البشرية!.

سادساً ـ الحرب خدعة:

وبعد جواب السعدين انتظر النبي ﷺ وصحابته الكرام فرج الله تعالى، فجاء أخيراً، وأنزل الله تعالى أمره، وكتب وعده..

ذلك أن رجلاً من غطفان يُقال له: نُعَيْمُ بن مسعود بن عامر رضي الله عنه، جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! إني قد أسلمت، فمرني بما شئت، فقال ﷺ: «**إنما أنت رجل واحد، فخذِّل عنَّا ما استطعت، فإن**

الحرب خُدْعة». .

فذهب من فوره إلى بني قُريظة، وكان عشيراً لهم في الجاهلية، فدخل عليهم وهم لا يعلمون بإسلامه، فقال: يا بني قُريظة! إنكم قد حاربتم محمداً، وإن قريشاً إن أصابوا فُرصة انتهزوها وإلا شمّروا إلى بلادهم راجعين، وتركوكم ومحمداً، فانتقم منكم، قالوا: فما العمل يا نُعيم؟ قال: لا تقاتلوا معهم حتى يُعطوكم رهائن، قالوا: لقد أشرت بالرأي. .

ثم مضى على وجهه إلى قريش فقال لهم: تعلمون ودِّي لكم، ونصْحي لكم، قالوا: نعم، قال: إن يهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه، وإنهم قد راسلوه أن يأخذوا منكم رهائن يدفعونها إليه، ثم يمالئونه عليكم، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم.

ثم ذهب إلى غطفان فقال لهم مثل ذلك.

فلما كان ليلة السبت من شوال بعثوا إلى اليهود: إنا لسنا بأرض مقام، وقد هلك الكُراعُ والخف، فانهضوا بنا حتى نناجز محمداً. . فأرسل إليهم اليهود: إن اليوم السبت، وقد علمتم ما أصاب مَن قبلنا حين أحدثوا فيه، ومع هذا فإنا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن. . فلما جاءتهم رسلهم بذلك قالت قريش: صدقكم والله نُعيم. . فبعثوا إلى يهود: إنا والله لا نرسل إليكم أحداً، فاخرجوا معنا حتى نناجز محمداً، فقالت قُريظة: صدقكم والله نُعيم. . فتخاذل الفريقان.

سابعاً ـ الريح والجنود:

وأرسل الله على المشركين ريحاً؛ فجعلت تقوّض خيامهم، ولا تدع لهم قِدْراً إلا كفأتها، ولا خيمة إلا قلعتها، ولا ناراً إلا أطفأتها، ولا

رحلاً إلا دفنته، قال الله تعالى حاكياً ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

يحكي حذيفة مواقف تلك الليلة فيقول: لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب وأخذتنا ريح شديدة وقرّ، فقال ﷺ: «**ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟**» فسكتنا فلم يجبه أحد، ثم كرّر قوله مرَّتين فلم يجبه أحد، فقال: «**قم يا حذيفة فائتنا بخبر القوم**»، فلم أجد بُدّاً إذ دعاني باسمي أن أقوم، قال: «**اذهب فائتني بخبر القوم ولا تذعرهم عليّ**». .

فلما وليت من عنده جعلت أمشي في حمَّام حتى أتيتهم، فرأيت أبا سفيان يُصْلي ظهره بالنار فوضعت سهماً في كبد القوس، فأردت أن أرميه فذكرت قول رسول الله ﷺ: «**ولا تذعرهم عليّ**» ولو رميته لأصبته، فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمَّام، فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم وفرغت قَرَرْتُ، فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائماً حتى أصبحت، فلما أصبحت قال: «**قم يا نومان**»(١).

وهكذا انفضَّ الأحزاب عن المدينة، وتركوها راغمين، قال الله تعالى ممتناً بذلك على المسلمين: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

ثامناً ـ نتائج الغزوة:

استشهد في هذه الغزوة ثمانية من المسلمين، أعظمهم شأناً، وأعلاهم منزلة، وأكرمهم مكانة الصحابي الجليل الذي اهتز لموته عرش

(١) رواه مسلم.

الرحمن: سعد بن معاذ رضي الله عنه، أصيب في أُكحله ـ عرق وسط الذراع ـ فضرب له النبي ﷺ خيمة في المسجد ليعوده من قريب، ثم مات بعد غزوة بني قُريظة، حيث انتقض جرحه رحمه الله تعالى، ورضي عنه، وجمعنا به في الفردوس الأعلى، ولا أعلم إلى هذه الساعة رجلاً من بني البشر تحرّك له جماد لا حياة فيه، واضطرب يوم وداعه من الدنيا؛ إلا هذا الرجل حين اهتز عرش الرحمن لموته، ولا أعلم ميزة لهذا الرجل اختلف بها عن غيره من أمم الأرض سوى الهمَّة التي ناطح بها السحاب، وأجبر جماداً على أن يتزعزع يوم رحيله. والله المستعان!وهو المسؤول أن يأخذ بهممنا إلى منازل الأبرار.

قُتل من المشركين يومئذ أربعة.. فالحكمة الإلٰهية التي دبَّرت سلمان الفارسي لهذا الرأي، وجعلت رسول الله ﷺ وصحابته يقبلونها على جدَّتها ولم تكن بأرضهم، حالت دون لقاء الأجساد، لكن الموقف مهول، والزمن طويل، لهذا هلك من هلك من المنافقين فراراً بالأرواح من الموت، ونسوا أن الآجال مكتوبة، قال تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٦ ـ ١٧].

وهذه مناسبة لطيفة يمكن أن يقال فيها:

إن الحروب، والأزمات، والفتن لا تقرب آجالاً ولاتبعد أخرى.. كلا، وإنما لكل إنسان أجل قدّره الله تعالى قبل ذلك.

لقد وضع علي بن أبي طالب رضي الله عنه نفسه موضع الهلكة مرتين، قابل فيها صناديد المشركين قبل النزال على أرض المعركة، قابلهم وهو يدرك

أنه يقابل رجالاً من نوع خاص، ومع ذلك كتب لنفسه هذا التاريخ المشرق الجميل!..

وأبو سفيان ظلَّ يركض مع الباطل سنين طويلة، وظلَّ قدر الله يخبئ له أمراً غير ما هو فيه!..

إن هناك فرقاً بيّناً بين من شارك وشق صفوف الجهاد ـ وهو يعلم يقيناً أن كل ما يمكن أن يصيبه قد كُتب في علم الله تعالى قبل ذلك بزمن طويل، فلا يبالي بما يجد في ثنايا الطريق ـ وبين آخر لو عثر جواده لقال: هذا فرط العجلة وسوء التقدير...

إن الفرق واضح جدّاً، وهو ما جعل أهل الإيمان يقولون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وهو نفسه ما جعل أهل النفاق يقولون: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣].

وهذا الأمر ـ أعني الإيمان بالقدر ـ حين حلَّ في نفوس تلك الأمة المؤمنة فرض لها هيبة غير طبيعية في تاريخ الأمم التي شهدت معها النزال. والله المستعان..

تاسعاً ـ غزوة بني قريظة:

عاد ﷺ إلى بيته بعد أن وضعت الحرب أوزارها، عاد فدخل بيت أم سلمة، فجاءه جبريل فقال: «أوضعتم السلاح؟ إن الملائكة لم تضع أسلحتها، انهض إلى غزو هؤلاء» يعني بني قُريظة، فنادى ﷺ في صحابته: **«من كان سامعاً مطيعاً، فلا يصلينّ العصر إلا في بني قُريظة»** فخرج المسلمون سراعاً.. وكان النصر للمسلمين.

عاشراً ـ في أعقاب الخندق (سرية الخَبَط أو سيف البحر):

أرسل رسول الله ﷺ أبا عُبيدة بن الجراح في ثلاثمئة رجل من المهاجرين والأنصار لرصد قافلة قريش عند ساحل البحر، فأصابهم الجوع حتى أكلوا الخبط ـ وهو ورق الشجر المتساقط ـ فسمي جيش الخبط، وقد نحروا بعض الإبل، ثم نهاهم أبو عبيدة رضي الله عنه لحاجتهم إليها إذا لقوا العدو..

فألقى إليهم البحر بحوت عظيمة، فأكلوا منها نصف شهر، وحملوا بعضاً منها إلى النبي ﷺ فأكل منها[١].

وكانت هذه السريَّة آخر ما أُرسل من سرايا وبعوث لتهديد تجارة مكة، وتوقّف ذلك بعد معاهدة صلح الحديبية.



(١) متفق عليه.

الفصل الثالث والعشرون



غزوة الحديبية

أولاً ـ موقعها ووقتها ومقدماتها:

الحديبية اسم بئر تقع على بعد اثنين وعشرين كيلاً إلى الشمال الغربي من مكة، وتُعرف الآن بالشميسي، وهو مكان معروف ظاهر للداخل إلى جدة أو الخارج منها على طريق مكة.

وقد كان خروج رسول الله ﷺ في يوم الإثنين مستهل ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة، وكان قصده ﷺ العمرة، وكان في صحبته ﷺ ألف وخمسمئة أو ألف وأربعمئة من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، فلما كان بذي الحُليفة قلّد رسول الله ﷺ الهدي، وأشعره، وأحرم بالعمرة، وبعث بين يديه عيناً له من خزاعة هو بشر بن سفيان الخزاعي يُخبره عن قريش، وفي الطريق أرسل رسول الله ﷺ أبا قتادة ـ ولم يكن محرماً ـ مع جمع من الصحابة إلى غيقة على ساحل البحر الأحمر، حيث بلغه وجود بعض المشركين الذين يُخشى من مباغتتهم للمسلمين، وقد اصطاد لهم أبو قتادة حماراً وحشيّاً وهم حُرُم، فأكلوا منه ثم شكّوا في ذلك، فالتقوا برسول الله ﷺ فسألوه، فأذن لهم إذا لم يعينوه[1].

---

(١) رواه مسلم.

ثانياً ـ استعداد قريش للقتال:

مضى المسلمون إلى أن وصلوا إلى عُسفان على بعد ثمانين كيلاً من مكة، فجاءهم بشر بن سفيان الخزاعي بخبر قُريش، وأنها سمعت بمسير رسول الله ﷺ، وجمعت لهم الجموع لصدِّهم عن دخول مكة، وأن خالد بن الوليد خرج بخيلهم إلى كُراع الغميم ـ على بعد أربعة وستين كيلاً من مكة ـ طليعة، فاستشار ﷺ أصحابه في أن يغير على ديار الذين ناصروا قريشاً، واجتمعوا معها؛ قائلاً: «**أشيروا أيها الناس عليَّ؛ أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدُّونا عن البيت، فإن يأتونا كان الله ﷻ قد قطع عيناً من المشركين، وإلا تركناهم محروبين؟ . .**» قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد، ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدَّنا عنه قاتلناه، قال ﷺ: «**امضوا على اسم الله**»(١).

وإني لأعجب لروعة القيادة الفذة في تاريخ الإسلام والمسلمين التي كانت أنموذجاً حيّاً في حياة هذا النبي الكريم ﷺ.

إن الاستبداد بالرأي أنانية بحتة، وغلو في تعظيم الذات، وإسراف في تحميل العقل فوق طاقته، وهي قبل ذلك وبعده مرض يدب في النفوس الخالية من معاني العزة الحقيقية!.

فهذا النبي ﷺ لا يخطو خطوة إلا على نور الشورى، فأين هذا في أزماننا ممن يحسن التمثيل فيه إلى أسوأ صور العبث، فيجتمع اجتماعات طويلة لتفعيل هذا المبدأ، زاعماً أنه على آثار الرسالة، ثم تراه يحاول جاهداً بفكره تعميم ثقافته الشخصية على أجواء اللقاء، فإن وجد لذلك

---

(١) رواه البخاري.

سبيلاً، وإلا تفنّن بنفسه في إعادة ترتيب الأفكار حتى تتواءم مع الفكرة والمنهج الذي يريده. والله المستعان..

صلى رسول الله ﷺ بأصحابه بعسفان صلاة الخوف، وذلك عندما علم بقرب المشركين منهم، وهذه أول صلاة خوف صلّاها رسول الله ﷺ..

وعلم خالد بن الوليد بمَقْدم المسلمين وقربهم، فانطلق يركض نذيراً لقريش، ثم سلك رسول الله ﷺ طريقاً وعرة عبر ثنية المرار، وهي مهبط الحديبية وقال: «**من يصعد الثنية ثنية المرار يُحط عنه ما حط عن بني إسرائيل..**» فكان أول من صعدها خيل الخزرج[1].. وقائد لا يعرف هذه اللغة أحق بالتبع، فكيف برأس القوم ومقدِّمتهم؟!..

هكذا ظلَّ النبي ﷺ في صور عذبة، تستنهض الهمم، وتبني الآمال، وتركض بالرجال نحو المستحيل.. وما ماتت همم الرجال وعزائمهم إلا حين أخذت كلمة الواجب على أفواهنا أكثر من حقها.. وأي واجب أكبر من أن يخوض صحابة رسول الله ﷺ جهاداً يرفعون به راية الإسلام، ومع ذلك كانت هذه اللطائف التحفيزية برد اليقين على قلوب ينالها من لأواء الطريق شيء عظيم.

إن الناس بشر يصيبهم ما يصيب الإنسان من استلذاذ الراحة، وحُب السكون، وحين يستنفرون لمثل هذه الواجبات هم في أمسِّ الحاجة إلى لغة ترفع أرواحهم إلى أعالي الجنان. والله المستعان..

---

(١) رواه مسلم.

ثالثاً ـ الوصول إلى الحديبية:

خرجت قريش فعسكرت، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يُهبَطُ عليهم منها بركت به ناقته، فقالوا: خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: «**ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل، والذي نفسي بيده لا يسألونني خطة يعظّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها**»(١)..

ثم عدل عن دخول مكة إلى أقصى الحديبية فنزل على بئر قليلة الماء، فاشتكى المسلمون العطش، فانتزع سهماً من كنانته فأمرهم أن يجعلوه فيها، فما زال يجيش بالري حتى صدروا عنه(٢).

رابعاً ـ سفارة عثمان رضي الله عنه:

وفزعت قريش لنزوله إليهم، فأحب رسول الله ﷺ أن يبعث إليهم رجلاً من أصحابه، فدعا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليبعثه إليهم، فقال عمر رضي الله عنه: «يا رسول الله! ليس لي بمكة أحدٌ من بني كعب يغضب لي إن أوذيت، فأرسل عثمان بن عفان، فإن عشيرته بها وإنه مبلّغ ما أردت».

فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرسله إلى قريش، وقال: «**أخبرهم أنّا لم نأتِ لقتال، وإنما جئنا عُمّاراً، وادعهم إلى الإسلام**».. وأمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين، ونساء مؤمنات، فيدخل عليهم، ويبشرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله تعالى مظهر دينه بمكة حتى لا يُستخفى فيها بالإيمان.

فانطلق عثمان رضي الله عنه، فمرَّ على قريش فقالوا: أين تريد؟ فقال:

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

بعثني رسول الله ﷺ أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، وأخبركم أنّا لم نأتِ لقتال، وإنما جئنا عمّاراً، فقالوا: قد سمعنا ما تقول، فانفُذ لحاجتك، وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص، فرحّب به، وأسرج فرسه، فحمل عثمان على الفرس، وأجاره، وأردفه أبانُ حتى جاء مكة، وسمحت له قريش أن يطوف بالكعبة فأبى أن يسبق الرسول ﷺ بالطواف..

وأخّرته قريش، فحسب المسلمون أنها قتلته[1]، فقال المسلمون: خلص عثمان قبلنا إلى البيت، وطاف به، فقال ﷺ: «**ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون**» فقالوا: وما يمنعه يا رسول الله وقد خَلَص؟ قال: «**ذاك ظني به ألا يطوف بالكعبة حتى نطوف معه**».

إن القائد لا يصلح أن يتلبّس بهذا اللباس، ويُعرف بهذا الاسم ما لم يكن على دراية تامة بأعوانه وأصحابه.

إن النبي ﷺ حين أراد أن يرسل مفاوضاً خصَّ بها البطل الشجاع الذي لا يخاف في الله لومة لائم، فمثل هذه المواقف تحتاج إلى رجال من نوع خاص، وعمر رضي الله عنه كذلك، إلا أن مثل هذه المواقف لا تحتاج الشجاع الصرف، وإنما يلعب في هذه المواطن دور القبيلة، ومن كان له داخل مكة أعوان وأنصار وأهل وعشيرة فهو أحق بالإرسال من غيره، لذا كان موقف عمر سديداً موفقاً، رحمه الله تعالى، ورضي الله تعالى عنه وأرضاه.

وهنا دخل عثمان رضي الله عنه إلى مكة ومع ذلك كان يرى ﷺ أنه لا يطيب لعثمان أن يطوف بالبيت حتى يطوف معه؛ مع أن الفرصة سانحة، والوقت مهيأ، وقد لا يتيسّر لرسول الله ﷺ ذلك، خاصة أنه سمع ذلك منهم

---

(١) رواه الإمام أحمد بإسناد حسن. انظر: السيرة النبوية الصحيحة، للعمري.

مباشرة، إلا أنه كان جديراً بظنِّ نبيه ﷺ. . فإنه لمَّا قدم قال له المسلمون: اشتفيت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت، فقال: «بئسما ظننتم بي، والذي نفسي بيده، لو مكثت بها سنة، ورسول الله ﷺ مقيم بالحديبية ما طفت بها حتى يطوف بها رسول الله ﷺ، ولقد دعتني قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت».

إننا نخطئ كثيراً في تحفيز الأتباع؛ لأننا نريد أن نحفِّزهم بنوع واحد يمكن تطبيقه عليهم جميعاً، وهذا مكمن الخلل الكبير الذي يقع فيه كثير منا. . وما لم نعرف كل من نعمل معه معرفة لصيقة قريبة واضحة المعالم، وإلا فلا يمكن أن نحقق النجاح المأمول.

ويعجبني في الأتباع موقف عثمان رضي الله عنه، إنه يدعى إلى فرصة العمر، وهي طاعة، والزمن بينه وبينها طويل، والشوق إليها كبير، والفرصة مواتية، لكنَّه يعلم أن الدرس البليغ الذي ينبغي أن تفقهه قريش ليس المسارعة إلى موقف من المواقف، واستثمار الفرصة فيه؛ بقدر ما هي القدرة على ضبط النفس، والتحرّك بناءً على توجيهات القادة والمصلحين.

إن في موقف عثمان رضي الله عنه درساً بليغاً في الطاعة التي يتحلَّى بها الأتباع لقادتهم، وهي درس آخر لقريش: أن هؤلاء الأفراد لا يتحركون لمطامع فردية أو لمنجزات شخصية، كلا! وإنما يتحركون وفق الآلية التي رُسمت لهم، والمعالم التي حددها القادة في تعاليمهم.

ولا تعجب كثيراً فالقائد أعظم رسول، والأتباع من مثل عثمان، رجل تستحيي منه الملائكة. والله المستعان. .

خامساً ـ بيعة الرضوان:

تأخّر عثمان رضي الله عنه عند القوم، فظنَّ المسلمون أنهم قتلوه، فدعا رسول الله ﷺ صحابته للبيعة تحت شجرة سمرة، فبايعوه جميعاً سوى الجد بن قيس ـ وكان منافقاً ـ وكانت المبايعة على الموت، وأول من بادر إلى البيعة أبو سنان عبد الله بن وهب الأسدي، ثم تتابع صحابة رسول الله ﷺ على ذلك، فلما رأى ﷺ إقبالهم قال: «**أنتم خير أهل الأرض**»[(١)]. وقال ﷺ: «**لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد بايع تحتها**»[(٢)].

إن النفوس تكلُّ، وتجهد، وتتعب، فلا بد لها من زاد معنوي كبير، لقد كان النبي ﷺ يملك الزاد، ويعرف متى يعطيه، ويحسن طريقة العطاء! صلى الله عليك يا رسول الله ما بقيت الدنيا عامرة.. وهذه الثلاثة إذا تخلّف واحد منها تخلّف الأثر في غالب الأحيان.

إن كثيراً من المربِّين يملكون زاداً كبيراً، لكنَّهم لا يحسنون معرفة وقت عطائه، أو لا يملكون الطريقة المناسبة للعطاء، فيذهب هباءً لا نفع فيه! أما إذا كان القائد لا يملك زاداً من أصله، فهو من الأتباع لم يصل بعد لرُتب القادة العظماء!.

ولمّا كان عثمان رضي الله عنه محبوساً في قريش فقد ضرب ﷺ بيده اليمنى على يده اليسرى وقال: «**هذه لعثمان**»[(٣)].

ثم عاد عثمان رضي الله عنه بعد بيعة الرضوان..

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخاري.

سادساً ـ المفاوضات:

ومن ثم أرسلت قريش عدداً من الرسل تفاوض رسول الله ﷺ:

● وأول هؤلاء **عروة بن مسعود الثقفي**، وبعد مفاوضة مع النبي ﷺ عاد بعد أن رأى صوراً من حب الصحابة لنبيهم ﷺ، فإنه ﷺ ما تنخّم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها جلده ووجهه، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدّون النظر إليه تعظيماً له.. فلما رجع عروة إلى قريش قال: لقد وفِدْت على قيصر، وكسرى، والنجاشي، والله ما رأيت مِلكاً قط يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحاب محمدٍ محمداً(١).

● ثم أرسلت قريش **الحُليس بن علقمة الكناني** سيّد الأحابيش، فلما رآه رسول الله ﷺ مُقبلاً طلب من أصحابه أن يظهروا أمامه الإبل المشعرة، وأن يلبّوا، لأنه من قوم يعظّمون ذلك، فلما رأى ذلك رجع إلى قريش فقال: «رأيت البدن قد قلّدت وأشعرت؛ فما أرى أن يُصدُّوا عن البيت»(٢)، فقالوا: اجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك.

● ثم أرسلت قريش **مكرز بن حفص**، ثم أتبعته قُريش بـ **سهيل بن عمرو** فلما رآه النبي ﷺ قال متفائلاً: **«لقد سهل أمركم»**(٣)، وقال ﷺ: **«لقد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل»**.. وكانت قريش قد ألزمت سهيل بن عمرو ألا يكون في صلحه إلا أن يرجع المسلمون دون عمرة في ذلك العام.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري.

إنه ليس من العجب أن تجد القائد على معرفة تامة بأصحابه، بل هذا هو الأصل في القادة أنهم يدركون مكامن العظمة في أتباعهم، ويعلمون نقائص النفوس في ذواتهم، لأنه بغير هذين المَعْلَمَيْنِ لا يمكن أن يتحقق لهم شيء البتة...

لكن أن تجد القائد يعرف الآخرين كأنما يعرف أصحابه، ويدرك معالم الفأل والتشاؤم فيهم؛ فذلك المَعْلَمُ الذي لا يحسنه إلا القادة الكبار!..

● وإنني والله أعجب من طبائع النفوس وما جُبلت عليه، وكيف أن هذه الطبائع تحوّل اتجاهات، وتكتب آراء، وتحقق مطالب عظيمة لا يمكن أن تحصل بدون ذلك، لقد أقبل الحليس الكناني؛ ولأنه من قوم يعظّمون الهدي دخل عليه النبي ﷺ من الباب الذي يؤثّر في نفسه أولاً، ثم لم يبرح منه ولم يتجاوزه البتة، لقد قام ثائراً لأن من أُرسل لم يحقق المطلوب، ثم ما لبث أن أعادته البُدن المشعرة والتلبية إلى قريش مستسلماً لهذه الآثار الكبيرة.

● إن النفوس جُبلت على تعظيم أشياء معينة، وللبيت والبيئة في ذلك أثر كبير، والناس عموماً ـ والدعاة على وجه الخصوص ـ عليهم وهم يتعاملون مع الناس أن يدركوا هذه المداخل، فإن لها أثراً كبيراً.. والقائمون في لجان الإصلاح الخيرية هم أحوج فئة لفهم هذا الجانب فإنه عظيم في تحقيق الإصلاح المنشود.. فكم من كلمة لا يحسب لها حساب في ميزان بعض الناس، تغيّر النفوس، وتسبب الفرقة، وتحدث من الآثار السلبية ما الله تعالى به عليم. والله المستعان...

● **ثم إن تفاؤل النبي ﷺ يعطينا إشارة إلى أن للأسماء أثر في معاني الرجال**، قال ابن القيّم رحمه الله: «لمّا كانت الأسماء قوالب للمعاني، ودالة

عليها؛ اقتضت الحكمة أن يكون بينها ارتباط وتناسب، وألا يكون المعنى معها بمنزلة الأجنبي المحض الذي لا تعلّق له بها، فإن حكمة الحكيم تأبى ذلك، والواقع يشهد بخلافه، بل للأسماء تأثير في المسميات، وللمسميات تأثير في أسمائها في الحسن والقبح والخفة والثقل واللطافة والكثافة كما قيل:

وقلما أبصرت عيناك ذا لقب إلا ومعناه إن فكرت في لقبه». اهـ.

سابعاً ـ إبرام الصلح:

لما وصل سهيل بن عمرو قال للنبي ﷺ: هات، اكتب بيننا وبينكم كتاباً، فدعا النبي ﷺ الكاتب فقال: «**اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم**»، فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما ندري ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللهم، ثم قال: «**اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله**»، فقال سهيل: فوالله لو كنّا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال النبي ﷺ: «**على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به**»، فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنّا أُخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل.. فكتب.

فقال سهيل: على ألا يأتيك منّا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، فقال المسلمون: سبحان الله! كيف يُرد إلى المشركين، وقد جاء مسلماً؟!..

فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سُهيل في قيوده قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين، فقال سُهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن تردَّه إليّ.. فقال النبي ﷺ: «**إنّا لم نقض الكتاب بعد**» فقال: فوالله لا أصالحك على شيء أبداً، فقال

النبي ﷺ: «**فأجزه لي**» فقال: ما أنا بمجيزه لك، قال: «**بلى فافعل**» قال: ما أنا بفاعل، قال مِكرز: بل قد أجزناه لك(١).

فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين أُردّ إلى المشركين، وقد جئت مسلماً؟! ألا ترون ما لقيت؟!..

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ، فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله: ألست نبي الله حقّاً؟ قال: «**بلى**» قلت: ألسنا على الحق وعدوّنا على الباطل؟ قال: «**بلى**» قلت: علام نُعطي الدنيَّة في ديننا إذاً، ونرجع ولم يحكم الله بيننا وبين أعدائنا؟ فقال ﷺ: «**إني رسول الله، وهو ناصري، ولست أعصيه**»، قلت: أو لست كنت تحدثنا أنّا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «**بلى، أفأخبرتك أنّك تأتيه العام؟**» قلت: لا، قال: «**فإنّك آتيه ومطوّف به**». قال: فأتيت أبا بكر فقلت له كما قلت لرسول الله ﷺ، وردّ عليّ كما رد عليّ رسول الله ﷺ سواء، وزاد: فاستمسك بغرزه حتى تموت، فوالله إنه لعلى الحق، قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً»(٢).

● **إن من أعظم صفات القادة: أنهم يملكون رؤية استشرافية لمآلات الأمور، وحدسهم في ذلك كبير للغاية، وفرق كبير بين هؤلاء، وبين من لا يتجاوز نظره أطراف قدميه**. لقد كانت الشروط التي يمليها سهيل عند الكبار من الصحابة رضوان الله عليهم لا تستحق الرفض المجرّد بقدر ما تستحق أن تداس على أرض تلك الديار، ولكن النظرة الاستشرافية لدى رسول الله ﷺ والنظر إلى أفق النصر وإن كان بعيد المسافة، بعيد الشُّقة، مقصورة على أولئك الذين لا تستجيشهم الرغبات

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الإمام أحمد بإسناد حسن. انظر: السيرة النبوية الصحيحة، للعمري.

العاجلة، وعندهم من الصبر، والحلم، والأناة؛ ما يمكّنهم من ترقّب المستقبل وإن كان بعيداً . . وهذا ما حدث هنا في هذا الصلح الكبير.

● لقد استجاشت هذه الشروط قلب الخليفة الراشد عمر رضي الله عنه، حتى طاش مغضباً، ووصل به الحال إلى أن قال: «والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ»، وليس هذا فحسب بل راح يعاتب رسول الله ﷺ، ويعاتب صاحبه أبا بكر رضي الله عنه.

● لقد تأملت في قصة أبي جندل فرأيت أمراً لا يحتمله إلا أصحاب الإيمان، مؤمن بالله تعالى، يعذّب في سبيل الله، وهو صابر على إيمانه، ثم ما يلبث أن يجد الفرصة سانحة للفرار بهذا الدين إلى أعوانه من أهل الإيمان، ثم يفاجأ أن أهله، وعشيرته، ومن على دينه يرفضونه، ويعيدونه إلى المكان الذي جاء منه! إنها قاسية على النفس! مؤلمة غاية الألم في المشاعر! ضاربة على القلب بسياط موجعة، وآثار ظاهرة.

إن العجب الذي استولى على نفسي هو أن الرجل لم يفكّر في ترك الطريق مع هذه اللأواء! لم يفكّر في العودة إلى الوراء مع هذه الرجعة البائسة إلى ديار الأعداء! وكثير ممن استقام على دين الله تعالى ما إن يتعرّض لموقف من المواقف من إخوانه حتى لو كان لهذا الموقف ظروفه وملابساته إلا رأيت آثاراً جانبية لا يمكن أن يمحيها التاريخ، وقد يترتّب عليها ترك الطريق من أصله، فليتنبّه لهذا، فإن الإيمان يلعب فيه دوراً كبيراً!.

● وفي قول أبي بكر رضي الله عنه: «فاستمسك بغرزه حتى تموت، فوالله إنه لعلى الحق» دليل على صدق الاتّباع، وروعة التسليم والانقياد، وهكذا ظلَّ أبو بكر الصديق رضي الله عنه بمثل هذه المعاني معلَماً من معالم الأمة الحقيقية في تاريخها.

إن كثيراً من الأتباع يحسنون الحديث عن القدوة بشكل كبير، ثم يرسبون في أول امتحان عملي يواجهونه في حياتهم، ذلك أن التطبيق هو محك العاملين بصدق، وهو ميدان التجربة العملية الحقيقية، وإنني أقول عن تجربة: **إن القدوة العملية شرط من شروط القبول في الأرض**.

إن هذا النبي ﷺ جاء يحمل منهج الله تعالى ويبلِّغه على هذه الأرض، ومن لم يشرب من هذا المعين، ويعبَّ منه كأبي بكر رضي الله عنه، فلن تتحقق معالم الهداية التي يريدها على وجه الأرض. والله المستعان..

ذكّرني أبو بكر رضي الله عنه بقوله: «والله إنه لعلى الحق»، بقوله أول أيام الدعوة حين قال في حادث الإسراء: «إن كان قاله فهو حق وصدق»، ذكّرني ببعد المدى بين هاتين الكلمتين، وعلّمني أن **أصحاب المنهج مهما طال بهم الطريق لا يمكن أن يتصنعوا أو يتغيروا أو تتشوه نظراتهم وأفعالهم**، فرحمه الله تعالى ورضي عنه وجمعنا به في الفردوس الأعلى!.

علَّمني كذلك أن التاريخ يحفظ حتى فلتات اللسان، ويدوِّنها، ويكتبها تاريخاً في حياة قائلها، فكيف بحياة الأفعال؟!.

● كُتب الكتاب بين رسول الله ﷺ، وسهيل بن عمرو، وجاء الاتفاق على:

- وضع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس، ويكفُّ بعضهم عن بعض.
- وأن يعود عنهم عامه ذلك، حتى إذا كان العام المقبل قدِمها وخلَّوا بينه وبين مكة، ويقيم بها ثلاثاً، وألا يدخلها إلا بسلاح الراكب، والسيوف في القِرَب.
- وأن من أتى من أصحاب رسول الله ﷺ إلى المشركين لم يردُّوه، ومن أتى رسول الله ﷺ من أهل الشرك مسلماً ردَّه عليهم، فقال الصحابة:

يا رسول الله! نُعطيهم هذا؟ فقال: «**من أتاهم منَّا فأبعده الله، ومن أتانا منهم فرددناه إليهم جعل الله له فرجاً ومخرجاً**».

- وأن بينهم وبين رسول الله ﷺ عَيْبَة مكفوفة ـ أي صدوراً سليمة في المحافظة على العهد ـ وأنه لا إسلال ولا إغلال(١).

- وأن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فتواثب خزاعة فقالوا: نحن مع عقد رسول الله ﷺ وعهده، وتواثب بنو بكر وقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم.

ثامناً ـ الأمر بالنحر والحلق:

في نهاية الكتاب الذي تمَّ بين رسول الله ﷺ وسهيل بن عمرو؛ قال ﷺ: «**قوموا فانحروا ثم احلقوا**»، فما قام منهم رجل واحد، حتى قال ذلك ثلاث مرَّات، فلم يقم منهم أحد.

فقام ﷺ فدخل على أم سلمة رضي الله عنها فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا رسول الله أتحب ذلك؟.. اخرج ثم لا تكلّم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنك، وتدعو حالقك فيحلقك.

فقام فخرج فلم يكلّم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بُدْنه، ودعا حالقه فحلقه، فلمّا رأى الناس ذلك، قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً(٢).

● في هذا الموقف درس مهم للغاية؛ وهو أن الجيل الذي كان

---

(١) **الإسلال**: السرقة، وقيل: سلُّ السيوف. **والإغلال**: الخيانة، أو لبس الدروع.

(٢) رواه البخاري.

بالأمس أنموذجاً في الهداية، يكتب تجربة مغايرة، ووقفات مختلفة إلى حدٍّ بعيد، فإذا كان النبي ﷺ يقف ويطلب من صحابته، وممّن تربَّى على يديه، وممن عاش في كنف الدعوة هذا الزمن الطويل أن ينحروا بُدْنهم ويحلقوا رؤوسهم، ويكرر ذلك ثلاثاً؛ ومع ذلك لا أحد يقوم البتة.. بل لم أرَ خبراً يذكر شيئاً عن أبي بكر رضي الله عنه وأنه بادر أو كان له رأي غير رأي الصحابة، والدرس الذي ينبغي أن نَعِيَه هنا هو أن الأتباع، والمدعوين أيّاً كانوا في سموِّهم، ورفعتهم، وتطلعاتهم، وتربيتهم هم بشر يضعفون أحياناً لبشريتهم، وعلينا أن ندرك أن حالات الضعف شيء ملازم للناس مهما بلغ إيمانهم، أو ارتفعت نفوسهم في هذه الحياة!.

إن كثيراً ممن دوَّن التاريخ ـ لحسن نيَّته ـ حرص أن يظهر الجوانب الإيجابية، ويدعمها، ويبرز حروفها على الواقع الحالي، ظنّاً منه أن في هذا التاريخ شحنات نفسية تفرض إيقاعها على الجيل الجديد، وتؤثّر فيه، وتكتب فيه معالم الأسوة، وهي كذلك! لكنه نسي أنها مع كل ذلك تجعل بين الناس وبين النجاح خنادق كبيرة، يخيّل لقارئ التاريخ أنه يصعب اقتحامها، وبالتالي تذبل القدوة، ويقل التأسي، ويضعف الاقتداء، وقد عُمّم على الأمة ذلك التاريخ دون أن يراعي الفرق الكبير بين ذلك الجيل، وهذا الجيل، ذلك الجيل الذي يكفيه أنه صحب رسول الله ﷺ على نفس الأرض، وبين هذا الجيل الذي حيل بينه وبين الدعوة الصحيحة أو القدوة الناصعة، ثم يحمّل ما ينوء بحمله، ويؤثّر في سيره.

وكم نحن بحاجة إلى إعادة بعض سطور التاريخ لدراستها، وتمحيصها، ثم خلطها بالجوانب الأخرى التي تجعل القارئ والسامع يرى ملامح مهمة من الاعتدال، ويتشجّع على القدوة والاتباع. والله المستعان..

إن تاريخنا مليء بالجوانب المشرقة، وهي بحمد الله تعالى الغالبة على صفحاته، والبادية من أسطره، ونحن في أمسِّ الحاجة إليها لقشع كثير من الحواجز الوهمية في تاريخ الواحد منَّا، لكن مع ذلك قد يختلف طرحها باختلاف الزمان، والمكان، والحال!..

فقط أردت أن أميط اللثام عن مثل هذه القضية التي أجزم أن الخطاب الإسلامي اليوم هو في أمسِّ الحاجة لفقهها، ومن ثم تطبيقها تطبيقاً صحيحاً.

● وأجدني كذلك مندهشاً من هذا القائد العظيم نبينا ﷺ: يقف ويردّد، ويحاول أن يستجاب له، ومع ذلك لا يلوي أحد منهم عنقه إلى ذلك البتة!..

يحاول أن يجد طريقاً آخر للتأثير على صحابته، لدرجة أنه لم يجد أحداً من الرجال ممن يشير إليه، ولم يجد بُدّاً من استشارة زوجه أم سلمة رضي الله عنها، في حين أن القادة في عصورنا المتأخرة التي نعيشها لو يجدون أبعاض ذلك لما كان يحجب ألسنتهم، ويحول بين زعاف ريح غيظهم شيء البتة، حتى إن الأتباع لا يستطيعون أن يقولوا في أحيان كثيرة: لا! لأنهم يعلمون أن هناك قراراً مخبوءاً في أدراج المقاعد العملاقة التي تنوء بأمثال هؤلاء القادة..

وليعذرني من يقرأ أسطري في أن أقول عن مثل هؤلاء قادة، من باب تقريب الصورة، وإلا هم أعرف بما يستحقون أن يلقّبوا به.

● وأجدني كذلك مندهشاً من **مبدأ الشورى عند هذا القائد!**.. إن المسألة مسألة منهج لا تخضع لآراء وعواطف، وتوجُّهات، كلا! وإنما هي رسالة وفق منهج عظيم يعلِّمه محمد ﷺ لكل من يأتي خلفه، ويركب

موجة القيادة، يستشير امرأة، وينفذ رأيها دون تحفّظ، وفي أسرع وقت دون تروٍّ، ويخرج رأي المرأة رأياً لا يستطيعه الرجال!..

حتى نتعلّم في حياتنا أن عقول الآخرين كنوز تحتاج من يملك أسرار فتحها؛ ليخرج نورها إلى عالم الأرض من جديد.

● وأجدني مندهشاً كذلك **لأثر القدوة العملية في حياة الناس**، لقد ظلَّ النبي الكريم ﷺ يصيح بصحبه، ويحاول فيهم دون جدوى، ثم لمّا نحر بُدْنه، وأسلم رأسه للحلاق، وحلق، كاد الصحابة يقتل بعضهم بعضاً، فللَّه درُّ القدوة العملية كم لها من آثار!..

إن العمل فن لا يحسنه إلا القادة الأفذاذ! ومتى كانت القيادة أوامر مجرَّدة من القدوة العملية؟! متى كانت القيادة ثوباً فضفاضاً، ومسبحة طويلة؟! متى كانت القيادة وسماً يُعرف بها أصحابها من تنطُّعهم، وارتفاعهم عن الأرض؟! متى كانت القيادة خطابات صارمة، وكلمات جارحة، واجتماعات طارئة؟! لا أعرف إلى تاريخ هذه الأسطر أن هذه قيادة إلا في لغة العنف، والقوة، والسيطرة، والاضطهاد، وجرح المشاعر، وهؤلاء خسارة أن يكون الواحد منهم تبعاً، فكيف يكون قائداً؟!.

تاسعاً ـ نسوة مؤمنات:

ثم جاءه نسوة مؤمنات، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ الآية [الممتحنة: ١٠]؛ وهذه الآية حرّمت المسلمات على المشركين، وقد كان جائزاً في ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة، وكذلك جاء الأمر بفسخ نكاح المشركات: ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠].

وبعد أن حلَق الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم تحلَّل المسلمون من عمرتهم، ، ثم شرع المسلمون في العودة إلى المدينة بعد أن أقاموا بالحديبية عشرين يوماً، وبلغ مجموع أيام رحلتهم كلها شهرونصف الشهر.

عاشراً ـ أحداث متفرقة:

● وفي هذه الغزوة حصلت قصة كعب بن عجرة رضي الله عنه في القمل الذي كان في رأسه، وكيف أن النبي ﷺ كان يتفقّد أصحابه، ويُعنى بشأنهم، ويهتم بأحوالهم، بل يعرف ﷺ الدقيق من أحوالهم، ألم تره هنا كما جاء في ثنايا قصة كعب يقول له: «**هل يؤذيك هوام رأسك؟**».

● وفيها إذن النبي ﷺ للصحابة بالصلاة في منازلهم عندما نزل المطر، وصلى الصبح ﷺ وقال: «**أتدرون ماذا قال ربكم الليلة؟**» الحديث[1]..

● وفي طريق العودة حصلت قصة نوم النبي ﷺ في صلاة الصبح، حين كان بلال موكلاً بحراستهم، فلم يصلوا الصلاة إلا بعد خروج وقتها..

● وفي طريق العودة حصلت معجزة الرسول ﷺ في تكثير الطعام والماء؛ قال سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، فأصابنا جهد حتى هممنا أن ننحر بعض ظهرنا، فأمر النبي ﷺ فجمعنا أزوادنا فبسطنا لها نطعاً، فاجتمع زاد القوم على النطع، قال: فتطاولْت لأحزره كم هو؟ فحزرته كربضة العنز، ونحن أربع عشرة مئة، قال: فأكلنا حتى شبعنا جميعاً، ثم حشونا جربَنا، فقال نبي الله ﷺ: «**فهل من**

---

(١) رواه البخاري.

وضوء؟» قال: فجاء رجل بإداوة له فيها نطفة، فأفرغها في قدح، فتوضأنا كلّنا ندغفقه دغفقة، أربع عشرة مئة[(١)].

● وفي الطريق إلى المدينة نزلت سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، حتى عبّر النبي ﷺ عن فرحته بذلك فقال: **«أنزلت عليّ الليلة سورة لهي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس»**[(٢)].

فانقلبت كآبة المسلمين وحزنهم إلى فرح غامر، قال أنس رضي الله عنه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، قال: الحديبية، قال أصحابه: هنيئاً مريئاً؛ فما لنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ. . .﴾ [الفتح: ٥][(٣)].

● ولما وصل النبي ﷺ إلى المدينة جاءه نساء مؤمنات منهن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، فجاء أهلها يسألونها رسول الله ﷺ بالشرط الذي كان بينهم، فلم يرجعها إليهم، ونهاه الله تعالى عن ذلك، قال ابن القيّم رحمه الله: «فقيل: هذا نسخ للشرط في النساء، وقيل: تخصيص للسنَّة بالقرآن؛ وهو عزيز جدّاً، وقيل: لم يقع الشرط إلا على الرجال خاصة، وأراد المشركون أن يعمموه في الصنفين، فأبى الله تعالى ذلك». اهـ.

حادي عشر ـ فوائد الصلح:

وهذا الصلح ترتّبت عليه فوائد عظيمة، ونتائج كبيرة؛ أدرك المسلمون بها أن ما اختاره لهم رسول الله ﷺ هو الأولى والأفضل بكل حال، ومن تلك النتائج العظيمة:

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري.

١ ـ أن قريشاً اعترفت بكيانهم لأول مرَّة، فعاملتهم معاملة الند بعد أن كانت لا تريد مجرد الاعتراف بهم.

٢ ـ لأول مرَّة في التاريخ تبادر خزاعة للتحالف مع المسلمين دون هيبة قريش.

٣ ـ الصلح كان فيه تمكين المسلمين من الدخول للبيت في العام القادم دون مقاومة لهم من غيرهم.

٤ ـ كان الصلح فرصة للمسلمين للتفرّغ ليهود خيبر آخر معاقل اليهود.

٥ ـ كان الصلح بمثابة الفتح الحقيقي في حياة المسلمين، فإنه أتاح الفرصة لنشر الإسلام أكثر من ذي قبل، حتى قال الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فما فُتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه». اهـ.

قال ابن هشام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والدليل على قول الزهري: أنه خرج مع رسول الله ﷺ إلى الحديبية ألف وأربعمئة، ثم خرج عام الفتح بعد ذلك بسنتين عشرة آلاف.

٦ ـ ومن أروع ما حدث في ذلك: أنه بعد وصول النبي ﷺ إلى المدينة جاءه **أبو بصير** مسلماً فارّاً من قريش، فأرسلت قُريش في طلبه رجلين، فسلمه رسول الله ﷺ إليهما، فخرجا حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا جيداً، فاستلَّه الآخر وقال: أجل والله إنه لجيد، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه به حتى برد، وفرَّ الآخر يعدو حتى بلغ المدينة، فدخل المسجد، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «**لقد رأى هذا ذعراً**»، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قُتل والله صاحبي، وإني لمقتول، فجاء أبو بصير فقال: قد أوفى الله

ذمتك، قد رددتني إليهم ثم نجاني الله تعالى منهم، فقال النبي ﷺ: «**ويل أمِّه مسعّر حرب لو كان له أحد**»، فلما سمع ذلك عرف أنه سيردّه، فخرج حتى أتى سيف البحر.

وانفلت كذلك منهم **أبو جندل بن سهيل** فلحق بأبي بصير، فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله لا يسمعون بِعِيْرٍ لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم، فمن أتاه منهم فهو آمن، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤] إلى قوله تعالى: ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾.. وكانت حميتهم أنهم لم يُقرّوا أنه نبي الله تعالى، ولم يقرّوا بسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت(١).

٧ ـ وهذا الصلح قد أتاح للنبي ﷺ توسيع نطاق الدعوة، والاتصال بالآخرين من داخل الجزيرة العربية وخارجها

فقد أرسل ﷺ دحية الكلبي إلى قيصر، وعبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى، وعمرو بن أمية الضمري إلى نجاشي الحبشة، وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس حاكم مصر، وسليط بن عمرو العامري إلى هوذة بن علي الحنفي في اليمامة.. وفي هذه الخطابات وتلك الرسائل ما يشير إلى عالمية هذا الدين.. وهذه بعض آثار هذا الصلح المبارك، والله المستعان..

وفي البخاري نص كتاب الرسول ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم

---

(١) رواه البخاري.

بصرى فدفعه إلى هرقل، وأهل الحديث على أنه النص الوحيد الذي ثبتت صحَّته وفق شروط المحدثين من بين سائر نصوص الكتب التي وجهت إلى الملوك والأمراء.



الفصل الرابع والعشرون



غزوة ذات القَرَد
وقصة عكل وعرينة

أولاً ـ غزوة ذات القرد:

وقعت قبل غزوة خيبر بثلاث ليال، وذلك حين أغار عبد الرحمن بن عيينة بن حصن الفزاري على إبل لرسول الله ﷺ، فأخذها وقتل راعيها، فلحقه سلمة بن الأكوع بعد أن أنذر المسلمين، فخرج رسول الله ﷺ ووجد سلمة بن الأكوع قد خلّص الإبل، واضطرَّهم للهرب، وانتهى رسول الله ﷺ إلى ماء ذي قرد، ورجع إلى المدينة.

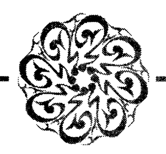
ثانياً ـ قصة عُكل وعُرينة:

بعد غزوة ذات القَرَد قدم رجال من قبيلتي عكل وعرينة إلى المدينة معلنين إسلامهم، وطلبوا أن يسكنوا الريف لأنهم يستوخمون المدينة، فأمر لهم الرسول ﷺ بإبل وراع، فخرجوا إلى الحرّة فارتدّوا وقتلوا الراعي، وأخذوا الإبل، فأرسل إليهم رسول الله ﷺ بعثاً، فجاؤوه بهم، ثم حكم عليهم بسَمْلِ أعينهم، وقطع أيديهم، وتركهم في الحرَّة حتى ماتوا، ثم نهى النبي ﷺ عن المُثلة بعد هذه الحادثة[١].

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه البخاري.



الفصل الخامس والعشرون

غزوة خيبر

أولاً ـ وقتها ومقدماتها:

لما قدم النبي ﷺ المدينة من الحديبية مكث بها عشرين ليلة أو قريباً منها، ثم خرج غازياً إلى خيبر، وقد كان في السنة السابعة من شهر محرم، وقد وعده الله تعالى إياها وهو قافل من الحديبية، قال تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ..﴾ [الفتح: ٢٠] أي: خيبر.

واستخلف على المدينة سِباع بن عُرْفُطة، وقدم أبو هريرة المدينة فوافى سباع بن عرفطة في صلاة الصبح، فزوَّدوه حتى قدِم على رسول الله ﷺ وكلّم المسلمين، فأشركوه وأصحابه في سهامهم[١].

فأتى رسول الله ﷺ خيبر، فحاصروهم، حتى أصابتهم مخمصة شديدة، فلما أمسوا أوقدوا نيراناً كثيرة؛ فقال ﷺ: «**ما هذه النيران؟ على أي شيء توقدون؟**» قالوا: على لحم، قال: «**على أي لحم؟**» قالوا: على لحم حمر إنسية، فقال ﷺ: «**أهريقوها واكسروها**».

ثانياً ـ صاحب الراية:

● وفي تلك الليلة قال ﷺ: «**لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه**»..

---

(١) رواه الإمام أحمد، وقوىٰ إسناده شعيب وعبد القادر الأرناؤوط.

فبات الناس يدوكون أيهم يُعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يُعطاها، فقال رسول الله ﷺ: «**أين علي بن أبي طالب؟**».

قالوا: يا رسول الله! هو يشتكي عينه.

قال: فأرسلوا إليه، فأُتي به، فبصق رسول الله ﷺ في عينه، ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال: يا رسول الله! أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ قال: «**انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى، فوالله لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير من أن يكون لك حُمْرُ النعم**»[(١)].

وهكذا **يظل القادة على منوالهم يصنعون بذلك رجال المستقبل** بإذن الله تعالى، لقد استخدم النبي ﷺ أسلوباً جميلاً حين قال: «**لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله**».. وأثّر ذلك في نفوسهم كثيراً، حتى إنهم باتوا يدوكون ليلهم كله في من يُعطاها!..

وفي القصة كبير **ما عليه القائد من فطنة وحذاقة في معرفة أصحابه،** وهذا النوع من القادة هو الذي يأخذ بالألباب، فيعلّم الأتباع القدرات العظيمة التي يتمتع بها القادة في أزمان الملمات، وهذا النوع من القادة هو الذي يصلح على رأس الهرم لأنه جدير به، وباتت اليوم هذه المسؤوليات تُناط بمن يحسن النفاق الاجتماعي، والكذب، ويحسن الانبطاح تحت رِجل من يولِّيه، ويمنُّ عليه بهذه الأمانة العظيمة، وصدق نبي الله ﷺ حين قال: «**إذا وسّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة!**».

---

(١) متفق عليه.

ثالثاً ـ ساء صباح المنذرين:

صلّى النبي ﷺ بخيبر الصبح، وركب رسول الله ﷺ، وركب المسلمون، فخرج أهل خيبر بمساحيهم ومكاتلهم، ولا يشعرون، خرجوا لأرضهم، فلما رأوا الجيش قالوا: محمد والله، محمد والخميس، ثم رجعوا هاربين إلى حصونهم، فقال النبي ﷺ: «**الله أكبر.. خربت خيبر، الله أكبر.. خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المنذرين**»[1].

عاد اليهود إلى حصونهم، فتحصّنوا بها من المسلمين، وخرج مرحب اليهودي وهو يردد:

أنا الذي سمتني أمي مرحَبُ   شاكي السلاح بطل مجرّبُ
إذا الحروب أقبلت تلهّبُ

فبرز إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو يردد:

أنا الذي سمّتني أمي حيدره   كليثِ غابات كريهِ المنظره
أوفيهم بالصاع كيل السّندره[2]

فضرب عليٌّ مرحباً، وفلق هامته، وسقط أمام أعين اليهود شُجاعهم، فهل للقلوب أن تتجاسر، أو للحصون أن تتماسك وهي ترى هذه البدايات المهيبة؟!..

لقد أثبت عليٌّ رضي الله عنه أنه حقيق بوصف الشجاعة، لقد كان يوم بدر سبباً في صراع المتوثبين من قريش، وعاد مرة أخرى في الخندق ليكتب

---

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.

شرارة المعركة من جديد، ويسقط ذلك النوع الذين يبرزون لساحات الوغى في ظلِّ غياب الكثيرين، واليوم في خيبر يعطي درساً معتاداً للمتبخترين، فهل نستغرب أن رسول الله ﷺ يدعوه بهذه الصفة؛ وقد نكأ في الأعداء، وفلَّ قادتهم، وهتك أستارهم، وكشف عوارهم؟!..

لله درُّك يا أبا الحسن، إما شجاعة الرجال الأبطال من أمثالك، وإما تراب المقابر أستر من عوار يخلِّفه جبان ضعيف!..

أقبل المسلمون على الحصون فتساقط حصن خلف آخر، وقُتل من المشركين ثلاثة وتسعون رجلاً، وسبيت النساء والذراري، وكانت منهم صفية بنت حيي بن أخطب، فأعتقها رسول الله ﷺ وتزوجها، واستشهد من المسلمين عشرون رجلاً.

رابعاً ـ بطل إلى النار:

وكان في جيش المسلمين رجل لا يدع شاذّة ولا فاذّة إلا أتبعها ضربة بسيفه، فقال ﷺ: «**أما إنه من أهل النار**»، فقالوا: أيّنا من أهل الجنة إذا كان هذا من أهل النار؟! فقال رجل: والله لا يموت على هذه الحال أبداً.. فاتّبعه حتى جُرح فاشتدت جراحته، واستعجل الموت، فوضع سيفه بالأرض، وذبابه بين ثدييه ثم تحامل عليه فقتل نفسه..

فجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أشهد أنك رسول الله؟ قال: «**وما ذاك؟**» فأخبره، فقال النبي ﷺ: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة في ما يبدو للناس، وإنه لمن أهل النار، ويعمل بعمل أهل النار في ما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة**»[١].

(١) متفق عليه.

وهذا والله موضع عبرة! وموقف حقيق بالتأمّل! **وما تنطوي عليه القلوب هو ما يختم الله عليه النفوس**. والله المستعان. .

إن القلوب إذا خربت فلا تسأل عن النهايات المرَّة في حياة أي إنسان، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واعلم أن سوء الخاتمة ـ أعاذنا الله تعالى منها ـ لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، ما سُمع بهذا، ولا عُلم به، ولله الحمد، وإنما تكون لمن له فساد في الأصل أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة، فيأخذه قبل إصلاح الطويَّة، فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة والعياذ بالله. . . فعياذاً بالله من سوء العاقبة وشؤم الخاتمة». اهـ.

خامساً ـ قدوم جعفر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

وفي هذه الغزوة قدم جعفر بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ على رسول الله ﷺ، فقبَّل رسول الله ﷺ جعفراً بين عينيه، وقال: «**ما أدري بأيهما أنا أسرّ؛ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟**». .

وهذا الترحيب سرٌّ من أسرار القادة الأفذاذ على وجه الأرض! لقد بلغت هذه الكلمة في تاريخ الأمة الآفاق، وقبل ذلك حملت قلب جعفر إلى الآفاق، **وهكذا هم القادة بحق، يتحيَّنون الفرص المناسبة ثم يقذفون بكلمات التحفيز التي تظلُّ وساماً للتاريخ كلّه، وليس لزمن فحسب**.

وقدوم جعفر هذا من الحبشة هو وأبو موسى الأشعري وجماعة من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم كان بعد رحلة بلغت بضعة عشر عاماً في تلك الديار.

سادساً ـ صدق اللهَ فصدقه:

وفي هذه الغزوة جاء رجل من الأعراب إلى النبي ﷺ فآمن به واتَّبعه، فقال: أهاجر معك. . فأوصى به بعض أصحابه.

فلما كانت غزوة خيبر غنم رسول الله ﷺ شيئاً، قسمه، وقسم للأعرابي، فقال الأعرابي: ما هذا؟ قالوا: قَسْمٌ قسمه لك رسول الله ﷺ، فأخذه ثم جاء به إلى النبي ﷺ، فقال: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «**قسْمٌ قسمته لك**»، قال: ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أُرمى هاهنا ـ وأشار إلى حلقه ـ بسهم، فأموت فأدخل الجنة، فقال ﷺ: «**إن تصدق الله يصدقك**».

ثم نهض إلى قتال العدو، فأُتي به إلى النبي ﷺ وهو مقتول، فقال: «**أهو هو؟**» قالوا: نعم، قال: «**صدق الله فصدقه**»، فكفّنه النبي ﷺ في جبَّته، ثم قدّمه فصلى عليه، وكان من دعائه: «**اللهم هذا عبدك، خرج مهاجراً في سبيلك، قُتل شهيداً، وأنا عليه شهيد**»[١].

فيا لله ما هذه الأخبار العطرة؟! ما غبطت رجلاً في الدنيا ما غبطته على إخلاصه وصدقه!. . فوالله ثلاثاً **ما رأيت أحداً ذاع صيته في الدنيا إلا وبينه وبين الله تعالى أسرار! ومن صدق الله تعالى صدقه، ومن خبّأ عمله عن الناس نشر الله تعالى فضيلته، ومن تجمّل به لنظر مخلوق أو تسربل به لكلمة ثناء ضاع عمله هباءً، وذهب في طيِّ النسيان!** والله المستعان. . والموقف هنا حقيق بالحديث لولا أن هذه الأسطر في سيرة الحبيب ﷺ.

---

(١) رواه النسائي، وصححه الألباني.

سابعاً ـ غنائم خيبر:

ثم قسم رسول الله ﷺ غنائم خيبر على ستة وثلاثين سهماً، جمع كل سهم مئة سهم، فكانت ثلاثة آلاف وستمئة سهم، لرسول الله ﷺ سهم كأحد المسلمين، وعزل النصف الآخر؛ وهو ألف وثمانمئة سهم لنوائبه، وما ينزل به من أمور المسلمين.

وخيبر فُتحت عَنوة؛ حيث استولى على أرضها بالسيف. قال ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإنما قُسمت على ألف وثمانمئة سهم لأنها كانت طُعمة من الله تعالى لأهل الحديبية؛ من شهد منهم، ومن غاب، وكانوا ألفاً وأربعمئة، وكان معهم مئتا فرس، لكل فرس سهمان، ولم يغب عن خيبر من أهل الحديبية إلا جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فقسم له رسول الله ﷺ كسهم من حضرها».

ثامناً ـ الشاة المسمومة وغدر اليهود:

وفي هذه الغزوة حصل لرسول الله ﷺ حادث السم، حين أهدت له زينب بنت الحارث اليهودية ـ امرأة سلام بن مِشْكَم ـ شاة مشوية قد سمَّتها، وسألت: أي اللحم أحب إليه؟ فقالوا: الذراع، فأكثرت من السم في الذراع، فلما انتهش ﷺ من ذراعها أخبره الذراع بأنه مسموم، فلفظ الأكلة ثم قال: «**اجمعوا لي مَن هاهنا من اليهود**»..

فجمعوا له، فقال لهم: «**إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقيّ فيه؟**» قالوا: نعم يا أبا القاسم.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «**من أبوكم؟**» قالوا: أبونا فلان.

قال: «**كذبتم؛ أبوكم فلان**» قالوا: صدقت وبررت.

قال: «**هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟**» قالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا!.

فقال ﷺ: «**من أهل النار؟**» فقالوا: نكون فيها يسيراً، ثم تخلفوننا فيها.

فقال ﷺ: «**اخسؤوا فيها، فوالله لا نخلفكم فيها أبداً**».

ثم قال: «**هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟**» قالوا: نعم.

قال: «**أجعلتم في هذه الشاة سُمّاً؟**» قالوا: نعم.

قال: «**فما حملكم على ذلك؟**» قالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح منك، وإن كنت نبيّاً لم يضرك[١].

وجيء بالمرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: أردت قتلك، فقال ﷺ: «**ما كان الله ليسلطك عليّ**» قالوا: ألا نقتلها؟ قال: «**لا**».. ولم يتعرّض لها ولم يعاقبها[٢].

وفي رواية: أن بشر بن البراء بن معرور أكل من هذه الشاة فمات، فأرسل ﷺ إلى اليهودية فقال: «**ما حملك على الذي صنعتِ؟**» قال جابر: فأمر بها رسول الله ﷺ فقتلت[٣].

قال ابن القيم رحمه الله: «وقد وفّق بين الروايتين بأنه لم يقتلها أولاً، فلما مات بشر قتلها.

وقد أكل النبي ﷺ من تلك الشاة وبقي بعد ذلك ثلاث سنين حتى

---

(١) رواه البخاري.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه الحاكم والبيهقي، وسنده حسن، قاله شعيب وعبد القادر الأرناؤوط.

قال في وجعه الذي مات فيه: «**ما زلت أجد من الأكلة التي أكلت من الشاة يوم خيبر؛ فهذا أوان انقطاع أبهري منّي**»[١].

قال الزهري: فتوفي رسول الله ﷺ شهيداً». اهـ.

هؤلاء هم اليهود! هم هم بغدرهم وحقدهم وحسدهم! هؤلاء هم في صورة تبدو واضحة جدّاً مع رسل الله! هؤلاء هم على حقيقتهم! فهل بعد هذه الصورة صورة أخرى؟!..



(١) رواه البخاري.



الفصل السادس والعشرون

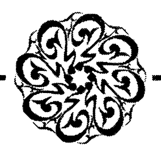
غـزوة ذات الرقـاع

أغار رسول الله ﷺ على بني محارب، وبني ثعلبة من غطفان، سار إليهم في أربعمئة، وقيل: سبعمئة، ولما وصل ﷺ إلى ديارهم خافوا وهربوا إلى رؤوس الجبال تاركين نساءهم وأطفالهم وأموالهم.

وحضرت الصلاة فخاف المسلمون أن يغيروا عليهم، فصلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف، وعاد ﷺ إلى المدينة.

وقد ورد أن تسميتها بذات الرقاع لأنهم كانوا يربطون أرجلهم بالخِرَق والرقاع، اتقاء الحر، لحديث أبي موسى الأشعري قال: «خرجنا مع النبي ﷺ ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه، فنقّبت أقدامنا، ونقّبت قدماي، وسقطت أظفاري، وكنّا نلف على أرجلنا الخِرَق، فسميت غزوة ذات الرقاع لما كنا نعصب بالخرق على أرجلنا».





الفصل السابع والعشرون

عمرة القضاء

في ذي القعدة من السنة السابعة من الهجرة؛ خرج النبي ﷺ إلى مكة قاصداً العمرة، كما اتفق مع قريش في صلح الحديبية، موفين لقريش بالشروط التي وقعت بينهم من عدم حمل السلاح إلا ما ذُكر أنهم حملوه ثم جعلوه خارج الحرم، وقد بلغ عدد من شهد هذه العمرة في صحبة رسول الله ﷺ ألفين، سوى النساء والصبيان، وكان عبد الله بن رواحة رضي الله عنه يمشي بين يديه ويُنشد:

خلُّوا بني الكفَّارِ عن سبيله   اليومَ نضربُكم على تنزيلِهِ

ضرباً يزيلُ الهامَ عن مقيله   ويذهلُ الخليلَ عن خليلِهِ

فطاف المسلمون بالكعبة، وأمرهم النبي ﷺ أن يظهروا القوة والجلد في طوافهم؛ لأن قريشاً أشاعت عنهم أن حمَّى يثرب وهنتهم، فرملوا في الأشواط الثلاثة الأولى[1]. . وكانت قُريش تركت مكة إلى جبل قُعيقعان تنظر إليهم وهم يطوفون، وقُيعقعان يواجه ما بين الركنين من الكعبة.

فلما انتهت الأيام الثلاثة جاء المشركون إلى علي رضي الله عنه؛ فقالوا: «قل لصاحبك: اخرج فقد مضى الأجل، فخرج النبي ﷺ»[2].

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري.

وقد أنزل الله تعالى في هذه العمرة قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧].

وفي عمرة القضاء تزوّج نبي الله ﷺ ميمونة بعد أن حلَّ من إحرامه. والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁



الفصل الثامن والعشرون

غـزوة مؤتـة

أولاً ـ وقتها وجيشها وقادتها:

عاد النبي ﷺ إلى المدينة بعد عمرة القضاء، ثم أقام بقية شهر ذي الحجة والمحرم وصفر وربيع الأول والثاني، وفي جمادىٰ الأولى من السنة الثامنة بعث جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل إلى الشام، وعيّن زيد بن حارثة رضي الله عنه أميراً عليه، وقال: «**إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب، وإن أصيب فعبد الله بن رواحة**»[1].

وهـذه هي المرة الأولى التي يُتخذ فيها مثل هذا الترتيب على مستوى القادة، مما يدلُّك على أثر القادة في إدارة الأزمات والحروب.

لم يكن النبي ﷺ يتخذ مثل هذا الترتيب الإداري في إدارة المعركة من قبل إلا هذه المرة، وذلك لظروف الشام من حيث الكثرة والبعد.

إن سقوط القائد في جنبات المعركة شهيداً يؤثّر في الجيش أيما تأثير، فيخدش قوتهم، ويسهم في زعزعة بنائهم داخل المعركة، لذلك كانت العناية به عظيمة. . وكم من قائد اليوم ـ وإنما أقول: قائد؛ تجوّزاً ـ يطيش أمام صفوف الأتباع، فلا يعرف لهذه المنزلة قدرها، وإنما يجترّهم كما تجتر المواشي في ساحات المراعي، ويرى بأن ذلك نوع جديد من القيادة يسطّره عبر تجربة ميدانية طائشة! .

---

(١) رواه البخاري.

ثانياً ـ وداع الجيش:

خرج المسلمون وخرج الناس معهم يودِّعونهم، وسلّم الناس على الأمراء مودِّعين لهم، فإن اللقاء قد لا يتكرر إلا على ساحات الجنان، فيا لله ما أعظم الفراق! وما أشد أثره على النفوس وهي تودّع ديارها، وأهلها، وأبناءها، وإذا كان الفراق شديداً في سفر قريب، فما بالك بالوداع الذي فراقه أكثر من لقائه، وخوفه أشد من أمنه.

وفي أثناء الوداع بكى ابن رواحة، وفاضت دموعه على عينيه، فسأله الناس: ما بالك يا بن رواحة؟ وقد ظن كثير أن الفراق عزيز، فقال: أما والله لا أبكي على دنياكم، ولا صبابة بكم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية في كتاب الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]؛ فلست أدري كيف لي بالصدور بعد الورود؟!.

نعم هذه هي النفوس الجديرة بكتابة التاريخ، هذه هي النفوس التي تتكسّر على هممها شهوات البيوت والديار وارفة الظلال! هذه هي النفوس التي تستحق أن تعيد ترتيب الأمة من جديد!..

فقال المسلمون: صحبكم الله بالسلامة، ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين..

فقال عبد الله بن رواحة مستشعراً ساحات القتال:

لكنَّني أسألُ الرحمنَ مغفرةً ... وضرْبةً ذات فرْغٍ تقذفُ الزَّبَدَا

أو طعنةً بيدي حرّان مُجهزةً ... بحربةٍ تنفذُ الأحشاءَ والكَبِدا

حتى يقالَ إذا مروا على جَدَثي ... يا أرشدَ الله من غازٍ وقد رَشَدا

إن كتابة التاريخ صعبة، لا يجيدها إلا أصحاب الهمم العالية!..

إن الأسطر التي يكتبها القلم قد لا تنجح كثيراً في تصوير الهمم التي تحملها القلوب! **واستشراف النهايات طموح لا يستنفر المغرقين في دنياهم، وإنما هو خاص بمن تجرّد من دنيا البسطاء، وراح يسطّر على أرضها دماء الشهداء، إن الماء مع كثرته يملأ الأرض لكن سرعان ما يذهب أثره لخفته، والدماء مع قلّتها إذا سالت على أرض ملأتها، ولثقلها تبقى أياماً شاهدة لصاحبها!** فموتي يا نفوس الضعفاء! موتي يا نفوس الجبناء! موتي فلا حياة كريمة في هذه الدنيا إلا لدين الله تعالى على الأرض شامخاً.. إن الحياة بلا دين حياة دهماء الناس! وحياة بلا عزة حياة رعاع الناس! وحياة بلا هدف وتاريخ حياة البهائم التي تعيش لملء بطنها فحسب!..

ثالثاً ـ تشجيع عبد الله بن رواحة للجيش:

وصل جيش المسلمين إلى معان[1]، ووصلته أخبار نزول هرقل بأرض مآب ـ وهي البلقاء ـ في مئة ألف من الروم، ومئة ألف من نصارى العرب، فبقي المسلمون ليلتين يتشاورون في أمرهم، فشجّع عبد الله بن رواحة رضي الله عنه الجيش قائلاً:

«يا قوم والله إن التي تكرهون لَلتي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد، ولا قوة، ولا كثرة، ولا نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله تعالى به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور، وإما شهادة».

وصدق والله، وهكذا هم القادة يستجيشون أرواح الأتباع لينفروا بها في عالَم الكبار!..

---

(١) **معان**: من أرض الشام، وهي الآن محافظة من محافظات الأردن.

إن القائد لا يمكن أن يكون جباناً البتة، ومن كان كذلك فبيته أحق ببقائه من ساحات المعارك! إلى وقتي الحالي وأنا لا أتخيّل قائداً ضعيفاً، جباناً؛ مهما كانت الظروف والملابسات، وفرق والله كبير بين الجبن والخوف، وبين المصالح والمفاسد، لكن مع كل أسف باتت المصلحة درعاً ساتراً لكثير من الضعفاء والجبناء!..

لقد علَّمتني الحياة أن القائد الشجاع يهابه الأتباع، فإذا تحلَّى بالقيم مع هذه الشجاعة بات معلَماً في حياة الكثيرين من الأتباع. والله المستعان..

وما زلت أقول: **مهما كان الفرد قويّاً فهو بحاجة إلى شيء من التحفيز**، لقد وقف ذلك الجيل لما سمع بهول تلك الأعداد، وقف وقوفاً تمليه طبيعة النفس البشرية، لكن سرعان ما قشَعت تلك الكلمات عنهم أحلام الدنيا العريضة، لقد أحدثت كلمات ابن رواحة هزة في قلوبهم من جديد، فغسلت الوهن، وجرَّدت الخوف، وصقلت تلك النفوس بماء الأنهار في جنان الخلد:

فإمَّا إلى النَّصْرِ فوقَ الأنامِ وإمَّا إلى الله في الخالدين

رابعاً ـ بدء المعركة واستشهاد القادة الثلاثة:

بدأ القتال، والراية في يد القائد زيد بن حارثة رضي الله عنه، ولم يزل رافعها، ورافع الحق الذي معه، يقاتل عن دينه، ويشرف بكتابة التاريخ على ساحات مؤتة، فإذا به يودع الدنيا، ويسقط على أرض مؤتة شهيداً، فرحمك الله يا حبَّ رسول الله ﷺ، وجزاك عن إخوانك خير الجزاء، وجمعنا بك هناك على ساحات الفردوس الأعلى.

ثم ما لبثت الراية أن ارتفعت من جديد بعد سقوطها وهي في يد

القائد الأول، ارتفعت في يد جعفر بن أبي طالب ﵁، فذهب في وسط القوم على فرسه، وهو يتم أسطر التاريخ التي بدأها زيد ﵁، فلما رأى أن خيله غير منجدة له في ساحة لا يقوم فيها مثل الإقدام، ولا يكِرُّ فيها سوى الأبطال، عقر جواده، وقاتل على قدميه، وجاءت ساعة الصفر التي تنبأ بها رسول الله ﷺ؛ فخرَّ صريعاً، وودّع الدنيا، ورحل إلى عالم الجنان هناك، فيا لله ما أروعك يا جعفر! استبطأ نفسه على الخيل فتركه ليقابل الموت وهو يركض على قدميه، وسقطت الراية مرة أخرى وهي في يد القائد الثاني الذي وارت مؤتة جثمانه، ورحل إلى لقاء ربه.

عقر جعفر جواده فكان أول جواد يُعقر في الإسلام، لقد نازل القوم وهو يركض على قدميه طلباً لجنات النصر، وتمنياً للشهادة، ولقد برهن ـ رحمه الله تعالى ورضي عنه ـ ذلك صدقاً؛ فقطعت يمينه، فأخذ الراية بشماله وذهب يقاتل، فقطعت يساره، فاحتضن الراية بعضديه وظلَّ يقاتل حتى فارق الحياة وهي بين عضديه، فارق الحياة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فارق الحياة وهو في ريعان الشباب، فارق الحياة تاركاً أحلام الدنيا خلف ظهره، فارق الحياة بعد أن تقطّع إرباً وهو في نشوة الجهاد، لا يدري ما الذي سقط.. حتى لامس التراب!..

وإني والله لأعجب من هذه الأشواق التي لا يشعر معها بأجزائه وهي تتساقط في سبيل وصولها إلى غاياتها الشريفة العظيمة!..

إنني والله لأعجب من تلك الآمال التي تطمس حتى الإحساس بالألم!..

فإمَّا إلى النَّصر فوقَ الأنامِ   وإمَّا إلى الله في الخالدين

ثم وصلت الراية إلى آخر أمير نص عليه نبي الله ﷺ: عبد الله بن

رواحة، ذاك الذي دفع بهم إلى هذه الساحات، الشاعر المجاهد، أقبل يركض على فرسه يتتبّع مآثر أصحابه الذين رحلوا، ويكتب على أثرهم حياة الخالدين. . تقدّم على فرسه وأخذ يقاتل في القوم، ثم رأى أن قدميه أخف له في رحلة الجنان من قدمي فرسه، فتركه ونزل يصارع الكفار، ويجاهد الباطل، وما هي إلا لحظات فإذا بالقائد يُصرع على أرض المعركة. .

خامساً ـ النقل المباشر:

وهذه اللحظات التي تمت على أرض مؤتة بالشام، نقل أحداثها مباشرة النبي ﷺ، نقلها من أرض الشام على مسامع أهل المدينة، نقل تلك الأخبار المروِّعة، والأحداث الكبيرة من أرض الشام إلى أهل المجاهدين وهم يستمعون. . فيا لله ما تشوّف إنسان لأخبار ما تشوّف لأخبار أهله وأصحابه! وما تشوف إنسان لأخبار تشوفه لأخبار أحبابه وذكرياته! . .

إن هذه اللحظات حرجة في حياة السامعين، حرجة لأنها حديث عن الوداع! وحرجة لأنها أخبار رحيل وفراق ووداع لهذه الأرض. . **أخذ الراية زيد فقتل، وأخذها جعفر فقتل، وأخذها ابن رواحة فقتل**[١] . . فيا لله ما أقسى هذه اللحظات! . .

وتأمل في هذا الخبر وهو يعرض على أهلهم، وأصحابهم، خبر يستدر الدموع من العيون، وهذا التصريح في القادة؛ فما بالك بالأتباع؟! ثم قال ﷺ: «**ثم أخذها سيف من سيوف الله تعالى خالد بن الوليد**». اهـ.

---

(١) رواه البخاري.

سادساً ـ تولي خالد لقيادة الجيش:

انتهى القادة، لقوا ربهم تبارك وتعالى، ورحلوا إلى عالم الجِنان، فبادر ثابت بن أقرم؛ فقال: يا معشر المسلمين! اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فأخذ الراية خالد خبير المعارك، وصاحب ساحات الوغى، ورجل المواقف الكبار.

وفعل ثابت بن أقرم في هذه اللحظات فعلاً يستحق العجب، وخلقاً يستحق الوقوف له إجلالاً وتقديراً!..

إن خَلق المبادرة بات في الأمة أندر من الكبريت الأحمر! أرأيت كيف كان لهذا الخلق هذا الأثر الفعّال في تحقيق هذا النصر العظيم؟!.

إن الأمة اليوم لا ينقصها عدد، بقدر ما ينقصها مبادرون!..

فدافع خالد رضي الله عنه القوم، وانحاش بهم، ثم انحاز بالمسلمين، وانصرف بالناس. وانصرف الروم إلى جهة أخرى مقابلة..

سابعاً ـ لمن كان النصر في هذه المعركة؟:

في تلك اللحظات التي مرت أثناء سقوط القادة جهشت نفسي بالبكاء، لا لشيء إلا إعجاباً بهذه النفوس التي ترى أصحابها يولُّون أدبارهم عن الدنيا، ويستقبلون ساحات الآخرة، ويرحل الواحد منهم وهو ملء السمع والبصر، يرحل على مرأى من الجميع، ويسقط والأعين تشهده، ومع كل ذلك لا يبالون، يمضون كأن لم يكن في الساحة حدث!..

إنني أجزم أن دين الله تعالى لا يُنصر إلا بنفَر هذه طموحاتهم،

وهذه نفوسهم، وتلك التي رأيت في ساحات المعركة هي هممهم وأفعالهم.. فللَّه درُّهم سطَّروا صحائف خالدة، وعجائب ماثلة، وكتبوا في ساحات الدنيا وعلى أرض المعارك وبين آثار الدماء التي ملأت الأرض هناك؛ كتبوا:

إن الحياة الكريمة ليست في العيش على ساحات الدنيا بالذل والضعف والهوان، لكنها هناك في ساحات الآخرة بالإيمان، والشجاعة والإقدام!..

ثلاثة آلاف مقاتل فقط يوقفون زحف مئتي ألف مقاتل!.. وإنني والله على يقين أن تلك الجموع الغاشمة من الروم لولا أنها رأت في ساحات المعركة صوراً من الإقدام لم تحتملها عقولهم، ولم تستوعبها نفوسهم لم يتراجعوا عنهم حتى يجعلوهم حطاماً على الأرض!.. لكنها الروح تطير بالأجساد، والهمم تسمو بالنفوس، والأحلام ترحل بهم هناك إلى ساحات الجنان، إلى الموعد المنتظر، فيا رب سألتك في هذه الساعة:

فإما حياةٌ تَسُرُّ الصَّدِيقَ وإمَّا مَمَاتٌ يُغيظُ العِدا

انسحب خالد بجيش المسلمين، انسحاباً منظّماً، بعد أن أثخن المسلمون في الروم جراحاً واسعة، وكتبت المعركة شهادات لأولئك الرجال، لم يسقط جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه حتى تقطعت يداه، ووجِد في جسده أكثر من تسعين ضربة بالسيف، ولم تفلح تلك السهام في إيقافه عن الحرب، وقد انكسرت في يد خالد بن الوليد تسعة أسياف، وغير ذلك كثير دوَّنه تاريخ هذه المرحلة ما بين راحل في وسط دمائه شهادة يلقى بها ربه تعالى يوم القيامة: اللون لون الدم، والريح ريح المسك، وما بين

مثخن بالجراح لم يزل مع تطلّبه الشهادة على ساحات هذه الدنيا . . حتى قال النبي ﷺ وهو يصف فوز هؤلاء الشهداء بما وصلوا إليه: «**ما يسرني ـ** أو قال: **ما يسرهم ـ أنهم عندنا!**»[١].

ثامناً ـ رعاية النبي ﷺ لآل جعفر رضي الله عنهم:

عاد الجيش إلى المدينة؛ استقبلهم الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، وجيء بأبناء جعفر بن أبي طالب فداعبهم النبي ﷺ، وأمر بحلق رؤوسهم، ودعا لهم وقال لأمهم وهي تذكر يتمهم: «**العَيْلة تخافين عليهم، وأنا وليهم في الدنيا والآخرة؟!**».

وهكذا يرحل جعفر ويودع الدنيا، ويترك أيتاماً يشقُّون طريقهم في حياتهم الدنيا، رحل الوالد فهل رحلت عواطف الأبوة؟ . . توارى جعفر في آثار الدار الآخرة وبقيت تلك الزوجة العفيفة تنظر إلى صبيتها الأيتام لا معيل لهم، فإذا بالقائد ﷺ يُذكّر تلك المرأة أن الدعوة مع ما تحققه للإنسان من مكاسب دنيوية وأخروية هي كذلك تكفل الدعاة في غيبتهم، وتلم شعثهم بعد فرقتهم، وتدمل جراح أبنائهم وزوجاتهم بعد غيابهم، «**العيلة تخافين عليهم، وأنا وليهم في الدنيا والآخرة؟!**» . . . كم أبقى الأبناء من تخلّف في حياة آبائهم: «**الولد مجبنة مبخلة**» كما قال ﷺ . . إن الدعوة التي هيأت الدعاة لهذا التاريخ الطويل قادرة على أن تحفظهم بعد رحيلهم . . . هكذا يشير النبي ﷺ في حديثه لزوج جعفر . . .

● إن الدعاة حين يعرقون ويجهدون ويتعبون؛ حسبهم أنهم يكتبون تاريخاً لأنفسهم، وهم على قدر من الإخلاص الذي يجعلهم لا يلتفتون لما وراءهم، فإن من ضحَّوا من أجله قادر على أن يحفظهم بعد رحيلهم،

---

(١) رواه البخاري.

لكنهم مع ذلك كله بشر من الناس، مع كل ما يقدِّمونه يتلفَّتون لمن وراءهم. .

ألا فما أروع هذا النبي الكريم ﷺ وهو يكتب تاريخ القادة مرتين:

الأولى: حين يـزج بالجنود لتحقيق آمال دينهم.

والثانية: حين يلتفت وبصدق إلى ما خلَّفه أولئك الراحلون فيكتب من خلالهم أروع مآثر المصلحين.

❁ ❁ ❁



الفصل التاسع والعشرون

غزوة ذات السلاسل

كانت هذه الغزوة في السنة الثامنة في شهر جمادى الأولى، بعد عودة المسلمين من مؤتة.

حيث جهّز النبي ﷺ جيشاً بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى ذات السلاسل، وذلك لتأديب قُضاعة التي شاركت في حرب المسلمين مع الروم في مؤتة، وتجمَّعت تريد المدينة.

فتقدّم عمرو بن العاص إلى ديارهم ومعه ثلاثمئة من المهاجرين والأنصار، وقد بلغ عمرو بن العاص كثرة جموع هؤلاء، فأرسل إلى رسول الله ﷺ يريد المدد، فأمده بمئتين من المهاجرين فيهم: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وأمَّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه.

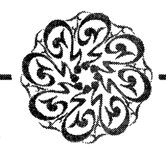
فلما وصل جيش المسلمين فرّت قضاعة، وتفرَّقت جموعها.

وفي تلك الغزوة صلى عمرو بن العاص بعد أن تيمم من الجنابة خوفاً على نفسه من المرض، وقد أقرَّ النبي ﷺ هذا الاجتهاد(١).

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني.



الفصل الثلاثون

فتح مكة (الفتح الأعظم)

أولاً ـ وقتها وأسبابها:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الفتح الذي أعزّ الله به دينه، ورسوله، وجنده، وحزبه الأمين، واستنقذ به بلده، وبيته الذي جعله هدى للعالمين من أيدي الكفار والمشركين، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عِزّه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس به في دين الله أفواجاً، وأشرق به وجه الأرض ضياءً وابتهاجاً، خرج له رسول الله ﷺ بكتائب الإسلام، وجنود الرحمن سنة ثمان لعشر مضين من رمضان، واستعمل على المدينة أبا رُهم، كلثوم بن حصين الغفاري، وقيل: بل استعمل عبد الله بن أم مكتوم». اهـ.

وكان سبب ذلك أن بني بكر عَدَت على خزاعة وهم على ماء يُقال له: الوتير، فبيَّتوهم وقتلوا منهم، وكان الذي هاج ذلك: أن رجلاً من بني الحضرمي يقال له: مالك بن عبّاد؛ خرج تاجراً، فلمّا توسّط أرض خزاعة عدوا عليه فقتلوه، وأخذوا ماله، فعدت بنو بكر على رجل من خُزاعة فقتلوه، فعدت خزاعة على بني الأسود فقتلوهم بعرفة عند أنصاب الحرم، وهذا كله قبل المبعث، فلما بُعث رسول الله ﷺ، وجاء الإسلام حجز بينهم، وتشاغل الناس بشأنه.

فلمّا كان صلح الحديبية وقع فيه: أن من أحب أن يدخل في عقد

رسول الله ﷺ وعهده فعل، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فعل، فدخل بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ، فلما استمرت الهدنة اغتنمها بنو بكر وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة الثأر القديم، فخرج نوفل بن معاوية الديلي في جماعة من بني بكر، فبيّت خزاعة وهم على الوتير فأصابوا منهم رجالاً، وتناوشوا واقتتلوا، وأعانت قريش بني بكر بالسلاح، وقاتل معهم من قريش من كان مستخفياً ليلاً . .

ثانياً ـ تجهز الرسول ﷺ للغزو:

أمر ﷺ صحابته بالتجهّز للغزو، ولم يعلمهم بوجهته، وحرص على السرِّية لئلا تستعد قريش للقتال، واستنفر القبائل التي حول المدينة، فمنهم من وافاه بالمدينة، ومنهم من لحقه بالطريق، وقد بلغ عدد جيش المسلمين عشرة آلاف مقاتل، ولم يتخلّف من المهاجرين والأنصار أحد.

ثالثاً ـ رسالة حاطب إلى أهل مكة:

وفي الطريق أرسل حاطب بن أبي بلتعة رضي الله تعالى عنه وأرضاه كتاباً إلى قريش يخبرها بأن المسلمين يريدون غزوهم، وحملت الكتاب امرأة عجوز.

فجاء الوحي إلى رسول الله ﷺ، فأرسل عليّاً والزبير والمقداد رضي الله عنهم، فأمسكوا المرأة في روضة خاخ على بعد اثني عشر ميلاً من المدينة، وهددوها أن يفتشوها إن لم تخرج الكتاب، فسلمته لهم.

فقال ﷺ لحاطب: «**ما هذا؟**» قال: يا رسول الله لا تعجل عليّ، إني كنت امرأً ملصقاً في قريش ـ أي: لم يكن من قريش ـ وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون أهلهم وأموالهم، فأحببت إذا فاتني

ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً، يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال ﷺ: «**أما إنه قد صدقكم**».

فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «**إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**».. فأنزل الله تعالى سورة الممتحنة؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ..﴾ الآية [الممتحنة: ١][(١)].

إن الشرفاء وأهل التقوى بشر من الناس تزل بهم أقدامهم، وذلك محض بشريتهم وآدميتهم فحسب، إننا لا نشك أن إيمان حاطب كالجبال الرواسي، ويكفيه شرفاً وعزّاً ورفعة أنه ممن شهد بدراً، ثم مع ذلك تزل به القدم، ويخرج بآماله من بين صفوف المسلمين بما فيهم رسول الله ﷺ، وهو يعلم يقيناً أن الله تعالى لا يتركه، ومع ذلك يكتب خطاباً يفتح به باباً على رسول الله ﷺ...

إنه ينبغي علينا أن نعامل الناس مهما بلغ تقواهم في هذا الميزان فحسب، ميزان البشر، وأن الخطأ طبيعة ملازمة للإنسان لا تنفك عنه البتة.

إننا نخطئ كثيراً فنصوّر هؤلاء الشرفاء على أنهم ملائكة وحين يخطئون يقع ما لا يتصوّره الإنسان البتة، وفي قصة حاطب هذا المعْلَم الذي نحن بحاجة إلى تذكُّره ونحن نعامل الناس مهما بلغوا في إيمانهم وعملهم!.

---

(١) متفق عليه.

قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لكن الإنسان الكبير تعرض له فترات يصغر فيها، والله تعالى أبرّ بعباده من أن يؤاخذهم بسَوْرات الضعف التي تعرو نورهم فيخبو، وسعيهم فيكبو». اهـ.

ويبرز موقف القادة في الموازنة بين السيئات والحسنات، إن هذه السيئة التي اقترفها حاطب كبيرة لو لم يكن فيها إلا إفشاء سرّ رسول الله ﷺ على الأعداء بما يوجب نكاية الأعداء في صفوف المسلمين، ومع ذلك امتد نظر القائد إلى الجانب الآخر؛ جانب الحسنات فخلطهما، فإذا بالماء الصافي يغلب أجاج الأمواج الراكدة، ويزيح قذر الحشرات المتهافتة في الماء الصافي! وإذا بلغ الماء قلّتين لم يحمل الخبث!.

إن العدل ميزان لا ينبغي أن يكال لأحد من الناس في غيبته، وإلا حصل من الظلم والحيف وسوء الآثار ما الله تعالى به عليم!.

إن العجِلِين في تجريم الناس، وتحميلهم أخطاءهم، ونسيان حسناتهم السالفة تدثرٌ بدثار النساء، وفي أخلاقهن من الحيف ما قال عنه نبي الله ﷺ: «**لو أحسنت إلى إحداهن الدهر، ثم رأت منك شيئاً؛ قالت: ما رأيت منك خيراً قط!**».

رابعاً ـ مسير الجيش من المدينة:

خرج المسلمون من المدينة في رمضان سنة ثمان للهجرة، وكان المسلمون صياماً حتى بلغوا كُديداً ـ وهي عين جارية تبعد عن مكة ستة وثمانين كيلاً ـ وقد وصل الجيش الإسلامي إلى مر الظهران دون أن تعلم قريش بحركته، وكان خروجه من المدينة لعشر خلون من رمضان، ودخوله مكة لتسع عشرة خلت منه، وفي الطريق قدم بعض زعماء مكة المشركين فأعلنوا إسلامهم، ففي الأبواء قدم أبو سفيان بن الحارث الزعيم العظيم

الذي صاول المسلمين زمناً طويلاً، ثم أسلم وحسن إسلامه فشهد فتح مكة.

خامساً ـ إسلام أبي سفيان بن حرب:

وفي إسلام أبي سفيان درس عظيم في عدم اليأس من إسلام الناس مهما بلغ إعراضهم، وبُعدهم، وتطاولهم على دين الله تعالى، وإنما علينا البلاغ، ويخطئ كثير من الناس حين ينقل هذا الإعراض إلى مواقف شخصية، ويبني على ذلك نوعاً من التعامل، ويرتّب عليه كثيراً من مواقع النزال الشخصية، فليتنبّه لهذا فإنه ظاهر!.

ولما أسلم أبو سفيان وهو السيد المطاع في مكة، أراد النبي ﷺ أن يستوثق من الأمور بعيداً عن الحرب والضرب، فأوصى العباس ـ وهو الذي قدم مهاجراً وقد أسلم قبل خيبر ـ أوصاه أن يحتجز أبا سفيان في مضيق الوادي حتى يستعرض القوى الزاحفة أمامه.

قال العباس: فخرجت بأبي سفيان حتى حبسته بمضيق الوادي، ومرَّت القبائل على راياتها، كلما مرّت قبيلة قال: يا عباس من هؤلاء؟ فأقول: كذا، وهو يقول: ما لي ولهم؟! حتى مرَّ رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء، وفيها المهاجرون والأنصار لا يُرى منهم إلا الحَدَق من الحديد، فقال: سبحان الله يا عباس من هؤلاء؟ قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، فقال: ما لأحد بهؤلاء من قِبَل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً!. . فقال العباس: يا أبا سفيان: إنها النبوة. قال: فنعم إذاً.

سادساً ـ مقولة سعد بن عبادة ﵁ وأخذ الراية منه:

وكان سعد بن عبادة ﵁ يحمل راية الأنصار عند استعراض الجيش، فقال لما مرَّ بأبي سفيان: اليوم يوم الملحمة، اليوم تُستحل الكعبة، فاشتكى أبو سفيان لرسول الله ﷺ من مقولة سعد، فقال ﷺ: «**كذب سعد، ولكن هذا يوم يعظِّم الله فيه الكعبة، ويوم تُكسى فيه الكعبة**»(١) . . وأخذ الراية من سعد بن عبادة فدفعها إلى ابنه قيس، ثم كلّم سعد رسول الله ﷺ أن يأخذ الراية من ابنه قيس، مخافة أن يقع في خطأ، فأخذها منه.

إن الحرب النفسية أضر على الأفراد والمجتمعات والأمم من تروس الأعداء ورماحهم، وإذا أُضر الإنسان في قلبه فلا تسأل عن خوار جسده، وكثير من هؤلاء تحملهم قلوبهم فزعاً وذعراً مع حجم أجسادهم! وهذا ما أراده النبي ﷺ في قلب أبي سفيان.

إن الأمة بقاداتها، ولا تسقط الأمة في الأصل إلا بعد أن يسقط كبراؤها، وكان لهذا الموقف أثر عظيم في قلب أبي سفيان؛ لدرجة أنه عاد إلى مكة فأخبر قريشاً بقوة المسلمين ونهاهم عن المقاومة.

وفي موقف رسول الله ﷺ مع سعد من التأليف لأبي سفيان ما فيه، وفيه بُعد نظر القائد ﷺ؛ فإنه لما أخذ الراية دفعها إلى ابنه حتى لا تتسع رقعة الخلاف.

وفي موقف سعد الرائع ما يدلُّك على عظيم أثر التربية في الأتباع، فإنه لم ينبس ببنت شفة، وإذا كانت القلوب كبيرة فعلاً لم تحتفل بصغائر الأمور البتة، ومع ذلك مع كل ما حدث كان حدبه على الرسالة عظيماً؛

---

(١) رواه البخاري.

فشاور رسول الله ﷺ في ردِّ الراية حدباً على الإسلام، وحرصاً على حياضه.

سابعاً ـ الزحف إلى مكة:

وفي مرّ الظهران قرر النبي ﷺ الزحف إلى مكة، فعيّن القادة، وقسّم الجيش، فكان خالد بن الوليد على الميمنة، والزبير بن العوام على الميسرة، وأبو عبيدة على الرجالة، وكانت راية رسول الله ﷺ سوداء، ولواؤه أبيض، وتجمعت قريش مع قبائل شتّى لمواجهة المسلمين، ودخل جيش المسلمين حتى وصلوا إلى الصفا، ما يعرض لهم أحد إلا قتلوه، ودخل ﷺ مكة من أعلاها من جهة كداء، ودخل خالد بن الوليد من أسفلها، وكانت المقاومة ضعيفة؛ حيث بلغ عدد قتلى المشركين بضعاً وعشرين قتيلاً، وقد جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! أبيحت خضراء قريش؛ لا قريش بعد اليوم!.. فقال ﷺ: «**من دخل دار أبي سفيان فهو آمن**»[١].

نعم إن الكبراء الذين عاشوا زعماء أمة في أزمان متطاولة تقتضي حكمة القادة أن لا يسلب هذا العرش منهم في الحال، وأن يزكوا ببعض الحالات التي تسقي تلك الأحلام التي تعيش في نفوسهم، فإن أبا سفيان عاش قريباً من عشرين عاماً على رأس قريش كبيرهم، ومُطاعهم، أفيكون الإسلام قاسياً إلى درجة أن يسلب ذلك التاريخ في لحظة من لحظات العمر، ويرمي بها في عالم النسيان؟! كلا! بل **من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل بيته فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.**

إن بداية الطريق شاقَّة لكل إنسان، وعلى القادة أن يدركوا أنهم في

(١) رواه مسلم.

مثل هذه المرحلة أحوج إلى شيء من فقه هذه النفوس، لدق أجراسها بين حين وآخر حتى يصعد الأمل، ويستمر النجاح. والله المستعان..

ثامناً ـ إهدار دم بعض المشركين:

وكان النبي ﷺ وهو في مسيره لفتح مكة قد أمر قادة الجيش ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم، وأعلن الأمان للناس؛ سوى أربعة رجال وامرأتين أباح دماءهم ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة؛ وهم: عكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن خطل، ومقيس بن صبابة، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح، وقد قُتل ابن خطل وهو متعلّق بأستار الكعبة، وقتل مقيس بن صبابة في سوق مكة، وتمكن عكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح من الوصول إلى رسول الله ﷺ؛ حيث أعلنا إسلامهما وحقنا بذلك دماءهما.

إن هناك فئات بلغت حدّاً لا يمكن معه العفو والتجاوز، ولا يستقيم أمر الدين إلا بإركاسهم تحت بيارق السيوف ليركعوا للحق راغمين، وليسجد خلفهم من رآهم آمنين مطمئنين، فلا ترتفع على راية الحق راية، ولا يخرج مشؤوم يعكر صفو المياه الصافية، لذلك كان هذا الإعلان على الملأ.

وفي مبادرة عكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن أبي السرح للخبر، وإزهاق الإعلان بالذلة بين يدي رسول الله ﷺ دليل عظيم على فضيلة هذا الخُلق، وعظيم آثاره، لقد كابر عبد الله بن خطل وظن أن أستار البيت حاميته من جرمه، وما درى أن العقائد الفاسدة، والكبر الخبيث؛ تحلل أستار الكعبة فلا تُبقي لها حرمة. والله المستعان..

تاسعاً ـ مكة بين الخروج والدخول:

دخل النبي ﷺ مكة، وعاد إليها من جديد، وبين خروجه راغماً منها ووقوفه على الحزوّرة وقوله: «**والله إنك لأحب أرض الله إليّ، ولولا أن قومك أخرجوني ما خرجت**»، وبين هذا اليوم وهو الراشد الفالح، المستعلي بدين الله تعالى في وسط أهل الكفر، وهو يفرّق جمعهم؛ **دليل على أن طريق الحق مهما طال ليله إلَّا أن صُبحه مؤذن بالبلج، الله أكبر ما أكرم الصبر في حياة المؤمن! وما أروعه في حياة الصالحين!..**

ولك أن تحسب الأيام العصيبة بدءاً ببدر، وانتهاء باليوم ـ فتح مكة ـ لتعلم يقيناً **أن طريق النجاح لا يستمر فيه إلا الصابرون المثابرون، ولا يصل فيه في الغالب إلا الطامحون!** وليت شعري متى ندرك هذه المسافة بين الأمل والفوز؟! ما طال طريق على سالك! ولا أظلم ليل على سائر! ومن تطلّب المجد ناله، ومن سعى إليه جادّاً تعلّق بأستاره فرحاً! والله المؤمل أن يمد في أرواحنا بالأمل، ويكسو نفوسنا بالحياة، فيعلي ذكرنا بدينه... فهو المؤمل وعليه التكلان.

دخل النبي ﷺ مكة خاشعاً متذللاً، شاكراً لأنعمه، دخل وهو يقرأ سورة الفتح ويرددها، دخل وهو على راحلته، وطاف بالكعبة، وأبان ﷺ أن مكة لا تغزى بعد اليوم، كما أنه أعلن أنه لا يُقتل قرشي صبراً بعد يوم الفتح إلى يوم القيامة(١)..

عاشراً ـ هدم الأصنام:

وقد أمر ﷺ بتحطيم الأصنام، وقد كان عددها في بيت الله تعالى ثلاثمئة وستين صنماً، وشارك في تكسيرها وتحطيمها بقوسه وهو يقول:

---

(١) رواه مسلم.

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١][(١)] . . كانت هذه الحجارة بالأمس آلهة يُتعبّد لها، وتضرب إليها الأكباد، وتطلب في أيام الغوث، وصارت اليوم ركاماً لا حاجة لها إلا في استنزاف العذرة، وأثافي القدور! . .

وفتح ﷺ الكعبة ورأى صورة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وهم يستقسمون بالأزلام، وكانت صورة مريم كذلك، فلطّخ صورهم بالزعفران، ومحيت تلك الصور، وقال ﷺ: «**قاتلهم الله ما كان إبراهيم يستقسم بالأزلام**»[(٢)] . . ثم لما طمست هذه المعالم صلى داخل الكعبة ركعتين، في العمودين المتقدمين منها، وكانت الكعبة مبنية على ستة أعمدة متوازية، وجعل ﷺ في الصلاة باب الكعبة خلفه، ثم خرج فدعا عثمان بن طلحة فأعطاه مفتاح الكعبة، وكانت الحجابة في بني شيبة في الجاهلية فأبقاها فيهم، ثم استلم الحجر الأسود، وطاف بالبيت مهللاً مكبراً ذاكراً شاكراً، وكان غير محرم، وعلى رأسه المغفر، ثم لبس ﷺ عمامة سوداء.

ونزل في هذا الفتح قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ. . .﴾ [النصر: ١] وقد عبّر عن هذا الظهور فضالة بن عبيد حين قال:

لو قد رأيت محمداً وقبيلَهُ بالفتح يوم تُكسَّرُ الأصنامُ
لرأيت دين الله أضحى بيّناً والشِّرك يغشى وجْهَهُ الإظلامُ

وبعد هذا الفتح أرسل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى نخلة لهدم

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مسلم.

العزّى التي كانت مضر تعظمها، فهدمها، وأرسل عمرو بن العاص إلى سواع ـ صنم هذيل ـ فهدمه، وأرسل سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة بالمشلل فهدمه، فأزيلت معالم الوثنية التي ذكرها الله تعالى في كتابه الكريم بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢٠].

حادي عشر ـ سرية خالد إلى بني جذيمة:

وأرسل ﷺ خالداً رضي الله عنه في شوال من سنة ثمان للهجرة إلى بني جُذيمة في يلملم جنوب مكة بثمانين كيلاً، ودعاهم إلى الإسلام، فلما رأوا جيش المسلمين فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، بل جعلوا يقولون: صبأنا، صبأنا. . فقتل منهم وأسر، ثم أمر بعد حين بقتل الأسرى، وتوقف عبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن عوف وبعض الصحابة في قتل الأسرى حتى قدموا إلى النبي ﷺ، فتبرّأ رسول الله ﷺ مما صنع خالد مرتين.

ثاني عشر ـ خطب النبي ﷺ بمكة:

وقد خطب ﷺ بمكة ثلاث خطب:

الأولى: كانت على باب الكعبة بيّن فيها دية خطأ شبه العمد، وألغى مآثر الجاهلية وثاراتها، واستثنى سقاية الحج وسدنة البيت فاستبقاهما.

وأعلن في **الخطبة الثانية**: إبطال أحلاف الجاهلية إلا ما كان من المعاقدة على الخير ونصرة الحق وصلة الأرحام.

وأعلن في **الخطبة الثالثة**: تحريم مكة، وتحريم صيدها وخلاها وشجرها ولقطتها، وتحريم القتال فيها، وبيّن أن الله تعالى أحلّها له ساعة

وقت الفتح فقط، وأبان ﷺ أنه لا هجرة بعد فتح مكة، ولكن جهاد ونيَّة.

وبفتح مكة تحوّل ثقل معسكر الشرك من قريش إلى قبيلتي هوازن وثقيف اللتين سارعتا لملأ الفراغ وقيادة المشركين لحرب الإسلام؛ فكانت غزوة حنين وحصار الطائف.

لله درُّ الزمان حين يأتي بأفراحه الكبار! لله درُّ الكبار من القادة والعظماء حين يستميتون لأهدافهم! لله درُّهم بهذا الصبر، وهذه الأحلام، وهذه الإرادة العظيمة! ما أروع الفرج بعد الشدة، والآمال بعد الآلام! والأحلام بعد التضحيات، هذه تجربة مع ضخامة حجمها، وطول زمنها، وبُعد شُقّتها إلا أنها صورة مصغرة للنهايات التي ينتظرها الدعاة والمصلحون في كل زمان ومكان، وما هي على الأخيار المتقين بإذن الله تعالى ببعيد.



الفصل الحادي والثلاثون



غزوة حنين (أوطاس)

أولاً ـ تسميتها وسببها ومقدماتها ووقتها:

حنين وأوطاس موضعان بين مكة والطائف، فسميت الغزوة باسم مكانها، وتسمى غزوة هوازن، وهوازن قبيلة عربية شهيرة؛ منها قبيلة ثقيف، حيث استقرت ثقيف في الطائف وما حولها، حيث كانت أسواق العرب في الجاهلية كسوق عكاظ بين نخلة والطائف، وسوق ذي المجاز قرب عرفات على فرسخ منها من جهة الطائف، وسوق مَجَنّة بمر الظهران بين مكة والطائف.

ولما سقطت راية قريش حملت هوازن راية الشرك، فجمعت الجموع الغفيرة في حنين بعد نصف شهر فقط من فتح مكة، وقد حشدوا الرجال والنساء والأموال والأبناء حتى لا يفر أحدٌ دون ماله وأهله، وكان يقودهم مالك بن عوف النصري، وقد رتّبوا جيوشهم ترتيباً بليغاً فقدموا الخيل، ثم الرجال، ثم النساء، ثم الغنم، ثم الإبل، وكان مالك النصري في الثلاثين من عمره؛ وقد عُرف بالشجاعة وحسن البلاء في القتال، وقد وصل جيشهم إلى قريب من ضعف جيش المسلمين؛ قريباً من عشرين ألفاً.

قال ابن القيم رحمه الله: «كان الله عز وجل قد وعد رسوله ـ وهو صادق الوعد ـ أنه إذا فتح مكة دخل الناس في دينه أفواجاً، ودانت له العرب بأسرها، فلمّا تمَّ له الفتح المبين، اقتضت حكمته تعالى أن أمسك قلوب

هوازن ومن تبعها عن الإسلام، وأن يجمعوا ويتألبوا لحرب رسول الله ﷺ والمسلمين ليظهر أمر الله، وتمام إعزازه لرسوله ﷺ، ونصره لدينه، ولتكون غنائمهم شكراناً لأهل الفتح، وليُظهر الله سبحانه رسوله وعباده، وقهره لهذه الشوكة العظيمة التي لم يلق المسلمون مثلها، فلا يقاومهم بعدُ أحدٌ من العرب». اهـ.

أرسل إليهم النبي ﷺ عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي للتعرّف على أمرهم، فمكث فيهم يوماً أو يومين ثم عاد إلى المسلمين بخبرهم.

واستعار النبي ﷺ مئة درع من صفوان بن أمية، وكان لا يزال على الشرك، وأعادها ﷺ بعد الغزوة.

وفي اليوم الخامس من شوال انطلق جيش المسلمين، وقد مضى على فتح مكة خمس عشرة ليلة؛ إذ كان فتحها في التاسع عشر من رمضان، ووصلوا إلى حنين في مساء العاشر من شهر شوال؛ وهي ما تُعرف الآن بالشرائع على بعد عشرين كيلاً شرقي مكة، واستخلف ﷺ على مكة عتاب بن أسيد.

وقد كان في معية المسلمين جموع من مُسلمة الفتح، وقد كانوا حديثي عهد بالإسلام، وما زالت رواسب الشرك وآثار الجاهلية في صفوفهم، لهذا لمَّا وجدوا في الطريق شجرة تُعرف بذات أنواط يعلّق عليها المشركون أسلحتهم، قالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال: «**سبحان الله! كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلٰهاً كما لهم آلهة، والذي نفسي بيده لتركبنّ سنة من قبلكم**»(١).

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني.

ثانياً ـ المفاجأة والفرار:

صار لتلك الكثرة في جيش المسلمين أثر كبير في النيات، فاعتمدوا على الأسباب المادية الحسِّية ونسوا معية الله تعالى وفضله، فقالوا: «لن نغلب اليوم من قلَّة»!..

سبقت هوازن إلى وادي حنين، فاختاروا مواقعهم، وبثوا كتائبهم في شعاب الوادي ومنعطفاته وأشجاره، وتقدَّم المسلمون إلى الوادي قبيل الفجر تتقدّمهم الخيالة عليها خالد بن الوليد، ثم بقية الجيش في شكل صفوف منتظمة..

وبدأ القتال، وتراجعت طلائع هوازن في بداية الأمر تاركين بعض الغنائم التي أقبل على جمعها جند المسلمين ظانين أنهم انهزموا، وفاجأتهم هوازن بالسهام، وكان بعض المسلمين تعجلوا الخروج دون استكمال عدة الحرب؛ فبعضهم كانوا حاسري الرؤوس، وبعضهم لم يحمل معه سلاحاً، وكانت المفاجأة بسهام هوازن حتى ما يكاد يسقط لهم سهم، فرشقوهم رشقاً ما يكادون يخطئون، كما وصف ذلك البراء بن عازب أحد شهود المعركة، فانكشفت خيالة المسلمين، ثم المشاة، وفرَّ الطلقاء والأعراب ثم بقية الجيش حتى إنه لم يصمد مع الرسول ﷺ سوى فئة قليلة صمدت لصموده ﷺ.

واستمر القتال من الفجر إلى الليل فانكشف المسلمون وأدبروا، وكان الحر خلال النهار شديداً، فكان المسلمون يأوون قبل المعركة إلى ظلال الأشجار في النهار، أما في وقت المعركة فكانوا متعرضين للشمس الملتهبة، وكانت الأرض رملية، وكان الغبار يرتفع في وجوههم فيحد من قدرة المقاتلين على الرؤية كما عبّر أحدهم بقوله: فما منّا أحدٌ يبصر كفَّه.. في حين استفادت هوازن من كمائنها والشعاب التي تحصّنت

بها . . وكان ﷺ على بغلة له، وهو ينظر إلى إدبار المسلمين، ويدعوهم للثبات ويقول: «**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**»[١].

هكذا يظل القادة معلَماً من معالم النجاح في كل واقعة تداهم صفوف المسلمين. . لقد أدبر الجيش وولى بعد أن رأى صنيع السهام في السابقين، وبقي القائد يجول بين الأعداء على بغلته، وهو يردد ويذكّر الأمة بقوله: «**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**».

إن الأفعال هي الوحيدة التي تكتب سمو القادة ورفعتهم، وقدرتهم على المواجهة، وأنت ترى أن أبرز صفة تميّز القائد عن غيره الشجاعة، والثبات في المواقف، لا أولئك الذين يحسنون القول ثم لا تجد لهم أثراً في أوقات النزال! . .

إن القيادة شرف ومقام رفعة؛ لكن لأولئك الذين يحسنون فرضها على الواقع بشيء من المبادئ والقيم، والثوابت. والله المستعان . .

لقد ولّى المسلمون وأدبروا في هذه اللحظة عن ساحات الشرف والعز، وخلّفوها وراء ظهورهم مع كثرة عددهم وقوة شوكتهم.

قال ابن القيّم رَحِمَهُ اللهُ: «ليطامن رؤوساً رُفعت بالفتح، ولم تدخل بلده وحرمه كما دخله رسول الله ﷺ واضعاً رأسه منحنياً على فرسه، حتى إن ذقنه لَتمسّ سرجه تواضعاً لربه وخضوعاً لعظمته، واستكانة لعزته أن أحلَّ له حرمه وبلده، ولم يُحلّ لأحد قبله ولا لأحد بعده، وليبين سبحانه لمن قال: لن نُغلب اليوم من قلَّة: أن النصر إنما هو من عنده سبحانه، وأنه من ينصره لا غالب له، ومن يخذله فلا ناصر له غيره، وأنه هو سبحانه الذي تولَّى نصر رسوله ودينه لا كثرتكم التي أعجبتكم، فإنها لم تُغنِ

(١) رواه مسلم.

عنكم شيئاً فوليتم مدبرين، فلما انكسرت قلوبهم أرسلت إليها خِلَعُ الجبر مع بريد النصر». اهـ.

ثالثاً ـ الثابتون مع النبي ﷺ:

أدبر المسلمون ولم يبق مع النبي ﷺ إلا العباس عمَّه، وأبو سفيان بن الحارث يمسكان بعنان بغلته لئلا تسرع به إلى العدو، وعدد لا يتجاوز عشرة أو اثني عشر كانوا يحيطون به فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم، وأمر النبي ﷺ عمَّه العباس أن ينادي في الناس: فنادى للعودة، ثم خصَّ الأنصار وأصحاب الشجرة بالنداء، ثم خصَّ بني الحارث بالنداء.. فتلاحقوا نحوه حتى صاروا ثمانين أو مئة فقاتلوا هوازن.

إن استغلال القائد للمواقف، وتوظيفها التوظيف الأمثل دليل على قدرة رائعة، **فإن أعظم مآثر القادة أنهم يعلمون أسرار الأتباع، وجوانب التميّز عندهم، ثم يوظفونها التوظيف الأمثل في الأوقات المناسبة..**

في ظني أنه لولا أن النبي ﷺ استثمر تلك الأوصاف ووظَّفها في هذا الوقت بالذات لما كانت الإجابة بمثل هذه الصورة البتة، إنهم يعلمون عواقب الجهاد، ومآلات النصر حين فرّوا، ولا يمكن لصيحات في الوقت الضائع أن تعيد صورة النصر إلى أذهانهم بمثل هذه الصور الكبيرة، فكانت الأوصاف التي نادى بها العباس بأمر النبي ﷺ بمثابة الجرس الذي أعاد للأذهان الصور الرائعة في زمن الانتصارات!.

هكذا هم القادة، يحفظون المواقف الإيجابية في حياة أتباعهم فيشعلون بها حماسهم في الأوقات المناسبة! لجأ نبي الله ﷺ إلى ربه

تبارك وتعالى وكان يدعو، ويقول في دعائه: «**إنك إن تشأ لا تعبد بعد اليوم**» . .

رابعاً ـ شجاعة وثبات القائد ﷺ وطلائع النصر:

حتى إذا غشيه الأعداء نزل عن بغلته ﷺ وترجّل، حتى كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم إذا اشتد البأس والتحم القتال يتقون به لشجاعته.

إن لم أكن واهماً فإنه أول مرة ينزل النبي ﷺ عن بغلته، ويقف في المعركة على رجليه، حاملاً سيفه، إن الحال وصل إلى صورة من الشتات لم تشهدها المعارك السابقة البتة، وكان الموقف عصيباً، وقد وجد الفارُّون عذراً في الفرار، لكن القائد ﷺ لم يجد أي عذر يخرج به وهو يصاول عن مبدأ، ويقاوم لمعتقد! . .

علَّمتنا المعارك والمواقف أن أثر الأتباع على أنفسهم فحسب، أما أثر القادة فعلى الكل، لذا مع كل ما يمكن أن يقال في صورة المعركة الأولية، وما حصل، إلا أن النبي ﷺ كان يدرك عواقب التخلي كلها، ولو كان ذلك لَهَدم هذا الموقف كل البناء الذي ظلَّ يسطره ﷺ من حين دخل مكة إلى أن واجه هوازن كلها، ومن المعلوم أن المبادئ والقيم والمعتقدات مهما واجهت من أعاصير تجبرها على الانحناء ليس لها عذر في ذلك البتة، وعليها إما أن تبقى في صورتها الأساسية وإما أن تنخنس من الأرض، وتخرج إلى غير رجعة. والله المستعان. .

أقبل المدبرون يتلاحقون نحو رسولهم، يستجيبون لنداء العباس ويرددون: لبيك لبيك؛ حتى إن من لم يستطع أن يثني بعيره ويعود به أخذ سلاحه وتركه! . .

واشتد القتال، وبدأت جولة أكثر عزيمة على النصر، حتى قال ﷺ: «**الآن حمي الوطيس**»[١]، وأخذ تراباً أو حصيات فرمى بها وجوه الكفار وهو يقول: «**شاهت الوجوه، انهزموا ورب محمد**»[٢].

قال تعالى واصفاً هذه الحال: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [التوبة: ٢٦].

وأمام هذا الإعصار العائد فرّت هوازن من الميدان، ولاحقهم المسلمون، فرُّوا تاركين قتلاهم وأموالهم، وأمر النبي ﷺ بملاحقتهم، واستئصال جمعهم، وإضعاف شوكتهم، وتشجيعاً منه ﷺ لذلك أباح سلب المشرك لقاتله.

إن هذه الأمم التي تجمعت بهذا القدر الهائل لا يكفي في فلِّ جموعها ساحات المعركة فحسب، بل لا بد أن تطارد حتى تتشرد بأجمعها، وتُلاحق حتى تعلم أنه لا سبيل للعودة مرة أخرى إلى مواجهة هذه الأعاصير، لكن هذه المطاردة مهما بلغ صدق صاحبها تتم في ظروف من الوهن والضعف في صفوف أهلها؛ فلا بد من حافز يرفع عقيرتها، ويشد عزمها، ويسير بأجسادها نحو النصر الموعود، فكانت هذه المكافأة كافية في تحقيق ذلك.

وهذا درس بليغ للغاية في التحفيز، إن هذه الأمة ما جاءت تجاهد إلا لله تعالى، وهي صادقة النية في تحقيق ذلك، ومع ذلك **هي نفوس بشرية تحتاج لدعم لا يمسّ أثر النية لكن يزيد في العزم، ويحقق الفوز**، فلننتبه لهذا، ولينته أولئك الذين كلَّما حدَّثتهم بهذه الأسرار في التعامل مع مرؤوسيهم أو أتباعهم سال على ألسنتهم لفظ الواجب، وليتهم حين

---

(١) رواه مسلم. (٢) رواه مسلم.

يحسنون بديع الكلام بذلك يمارسونه مع أنفسهم! . . لكنها الغفلة أحياناً، وضعف المعرفة والتجربة أحياناً أخرى، وثالثة الأثافي نزغات كبر تسللت على أعتاب تلك الكراسي كبيرة الحجم، فأورثت تلك الألفاظ.

خامساً ـ الرحمة والحكمة النبوية:

مع أنه ﷺ أمر بملاحقة المشركين وقتلهم إلا أنه نهى عن قتل النساء عندما رأى امرأة مقتولة قال: «**ما كانت هذه تقاتل**» . . ونهى عن قتل الذراري، ولم يعنّف ﷺ أحداً ممن فرَّ عنه، بل لما قالت له أم سليم: «يقتل الطلقاء لفرارهم» قال: «**إن الله قد كفى وأحسن**».

وموقف آخر من مواقف القادة يحكيه الواقع، لقد فرَّ الصحابة، وعادت النفوس البشرية إلى طبع لا يكاد يفارقها البتة، وإن حامت بها الروح في يوم من الأيام في ملكوت السماء، طاشت بها الأجساد في يوم آخر على تراب الأرض، وأمام كل ما حدث، ويكفي في تصويره أن نبيَّهم وقائدهم ومقدَّمهم بدون خيل، على رجله ينازل الأعداء في ضوء أفراد من بين عشرة آلاف تركوه خلف ظهورهم، ومع ذلك لم يعنّفهم بكلمة، بل لم يتحدث معهم فيما حصل البتة، وهذا فن يجيده أفراد فقط في مستوى الأمة يأتي نبي الله ﷺ في مقدِّمتهم، وعلى رأسهم.

إن أسهل ما رأيت حين يقع الأتباع في خطأ أن يسارع القائد في التنبيه، وهي صورة يضبطها العوام، ويتفننون فيها، ويمارسها الجهلة بشيء من الصراخ، والضجيج، والوعيد، حتى أصبحت وسماً يعرف به هؤلاء دون غيرهم، أما نبي الله تعالى فلا، وقع الخطأ، وانتهى الحدث، وليست المسألة مسألة الخطأ كما يظنها هؤلاء، وإنما **الخطأ صورة تظهر، وتخفي خلفها معاني عظيمة من القيم والمبادئ والتصورات هي حقيقة بالعلاج.**

إن بعضاً من القادة يرسبون حين يعالجون الأخطاء، وينسون ما يندَسُّ خلفها، والباعث عليها! ومن تأمّل عرف، ومن جرّب أدرك.

والقيادة على كل حال فن لا يحسنه إلا أفراد، لكن المشكلة أن الزمان فرض على الأمة أن يكون من لا يصلح إلا تبعاً قائداً، فنشأت الأخطاء، وحصل الخلل، وتربّت الأجيال على هذه الصور، تظنها الفلاح والرشاد. والله المستعان..

سادساً ـ هزيمة وخسارة هوازن:

لقدكانت خسارة هوازن كبيرة جدّاً؛ فقد قُتل جمع منهم يصل إلى المئات، أما الأسر فقد كان شيئاً كبيراً بلغ ما يزيد على ستة آلاف، حتى وصف الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثرة ذلك بقوله: «وملئت عُرُش مكة منهم، وكانت الأموال أربعة آلاف أوقية فضة، والإبل أربعة وعشرين ألفاً، والشاة أكثر من أربعين ألفاً، ولم تكن خسائر المسلمين سوى استشهاد أربعة منهم، وجروح في آخرين». اهـ.

انهزمت هوازن وتفرَّقت في الجبال والأودية، وتحصّن مالك بن عوف النصري بالطائف، وقد تتبع جيش المسلمين الفارِّين من هؤلاء..

سابعاً ـ الحب العظيم:

وأرسل ﷺ أبا عامر الأشعري إلى أوطاس فقاتلهم، وقُتل دُريد بن الصمة، ثم أصيب أبو عامر الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بسهم وهو يقاتلهم، فاستشهد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بعد أن استخلف أبا موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وأوصاه بتبليغ السلام لرسول الله ﷺ، وأن يستغفر له[١].

---

(١) متفق عليه.

تُرى ماذا يصنع القائد في أتباعه؟ ماذا يفعل فيهم؟ تُرى كيف نتخيّل هذه الصور على وجه الحقيقة؟ يرحل أبو عامر الأشعري ويخلّف الدنيا بما فيها، ولا ينسى قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة في الأوقات الحرجة من إرسال سلامه العابق بالذكريات إلى قائده، رحل وقد أرسل بالأشواق إلى من أحبه، رحل وكانت صورة نبيه في ذهنه أشد الصور أثراً وأقواها لمعاناً، رحل وهو يردد سلاماً عاطراً على نبي الهدى ﷺ.

هكذا هو ذلك الجيل! هكذا هي الأرواح إذا حييت على الأرض حلّقت في ملكوت السماء، هكذا هي المعاني العظام إذا استحكمت في قلب صاحبها صرخت به في ضحى النهار ليركب جواد العزيمة، ويكتب مآثر الأبطال.



الفصل الثاني والثلاثون



غزوة الطائف

أولاً ـ حصار الطائف:

بعد أن تشتت هوازن، فرَّ من فرَّ منهم إلى الطائف، ومن هؤلاء مالك بن عوف النصري قائد هوازن، وصلوا إلى الطائف وتحصّنوا بها، والطائف تمتاز بموقعها الجبلي وبأسوارها القوية وحصونها الدفاعية، وليس إليها منفذ سوى الأبواب التي أغلقتها ثقيف، بعد أن أدخلت من الأقوات ما يكفي لسنة كاملة

وصل المسلمون إلى الطائف في حدود العشرين من شوال، وحاصروا الطائف بضع عشرة ليلة، وكان نزول المسلمين في متناول سهام ثقيف، فأصيب بعضهم، فتحولوا بعسكرهم إلى الموضع الذي بُني فيه مسجد عبد الله بن عباس اليوم، والطائف كانت قديماً في الجنوب الغربي من المسجد، وكان القتال تراشقاً بالسهام على بعد، وضرب المسلمون الحصون بالمنجنيق.

وفي سبيل إضعاف قوى المقاومة حاول النبي ﷺ إحراق بساتين الطائف، وناشدته ثقيف ألا يفعل، فترك، ثم وجه ﷺ نداءه للعبيد أن من ينزل منهم من الحصن ويخرج إلى المسلمين فهو حر، فخرج ثلاثة وعشرون من العبيد؛ منهم: أبو بكرة الثقفي؛ فأسلموا فأعتقهم.

وقد كثرت الجراح في المسلمين بسبب سهام المتحصنين، واستشهد

من المسلمين اثنا عشر رجلاً، ولم يقتل من المشركين إلا ثلاثة بسبب تلك الحصون.

ولم يكن النبي ﷺ يقصد بحصار الطائف فتحها، بل أراد كسر شوكة ثقيف، وكان ﷺ يحب لهم الهداية كما كان يحب ذلك لقريش.. قال له الصحابة: يا رسول الله! ادع على ثقيف، فقال ﷺ: «**اللهم اهدِ ثقيفاً**»(١).

ثانياً ـ فك الحصار وقسمة الغنائم:

دعا ﷺ إلى فك الحصار، فضج الناس لذلك وقالوا: نرحل ولم يُفتح علينا الطائف، فقال ﷺ: «**اغدوا على القتال**»، فغدوا فأصابت المسلمين جراحات، فقال ﷺ: «**إنا قافلون غداً إن شاء الله**»، فسرّوا بذلك وأذعنوا وجعلوا يرحلون، وعادوا إلى الجعرانة فوصلوها في اليوم الخامس من ذي القعدة.

وكانت هناك الغنائم من آثار الحرب مع هوازن لم يقسّمها ﷺ، فقسّمها ﷺ، وآثر في قسمتها ﷺ الطلقاء الأعراب تأليفاً لقلوبهم لقرب عهدهم بالإسلام؛ كعيينة بن حصن من زعماء غطفان، والأقرع بن حابس من زعماء تميم، وحكيم بن حزام، وأبي سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، اثنا عشر رجلاً من هؤلاء أعطى النبي ﷺ كل واحد منهم مئة من الإبل، وخمسة آخرين وزّع عليهم أقل من مئة، ووصل عدد هؤلاء إلى اثنين وخمسين رجلاً من المؤلفة قلوبهم.

وقد أثّرت هذه الأعطيات في قلوب هؤلاء فأظهروا الرضا، وزادت

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني.

رغبتهم في الإسلام، ثم حسن إسلامهم جميعاً فأبلوا في الإسلام بلاء عظيماً، وخدموه بأموالهم وأنفسهم إلا يسيراً منهم؛ مثل عيينة بن حصن لم يزل مغموزاً، قال أنس بن مالك ﷺ: «إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يُسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها»(١).

وقد عبّر صفوان بن أمية عن أثر هذه الأعطيات فقال: «لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ»(٢)..

وقد حصل في نفوس بعض الصحابة رضوان الله تعالى عليهم شيء من هذه القسمة، فقال ﷺ: «**والله إني لأعطي الرجل، والذي أدع أحبّ إليّ من الذي أعطي، ولكن أعطي أقواماً لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع، وأكِلُ أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير**»(٣).

ثالثاً ـ قصة الأنصار مع تقسيم الغنائم:

وجد الأنصار في قلوبهم في تقسيم الغنائم، حتى إنهم قالوا: «يُعطي قُريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم»، وقال الآخر: «لقي والله رسول الله ﷺ قومه».

فدخل عليه سعد بن عبادة ﷺ فقال: يا رسول الله! إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لِما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عِظاماً في قبائل العرب ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء.

---

(١) رواه مسلم. (٢) متفق عليه.
(٣) رواه البخاري.

فقال ﷺ: «**فأين أنت من ذلك يا سعد؟**».

فقال: يا رسول الله ما أنا إلا من قومي.

قال: «**فاجمع لي قومك**».

فجمعهم، فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «**يا معشر الأنصار! ما قالة بلغتني عنكم وجِدَةٌ وجدتموها في أنفسكم، ألم آتكم ضلّالاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وأعداءً فألّف الله بين قلوبكم؟**».

قالوا: الله ورسوله أمنُّ وأفضل.

ثم قال: «**ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟**».

قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله، لله ولرسوله المنّ والفضل.

قال: «**أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم، ولصدّقتم: أتيتنا مكذَّباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك، أوجدتم عليّ يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألَّفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكم، فوالذي نفس محمد بيده لَمَا تنقلبون به خيرٌ مما ينقلبون به، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شِعباً ووادياً، وسلك الأنصار شعباً ووادياً لسلكت شعب الأنصار وواديها، الأنصار شعار، والناس دثار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار**».

قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسْماً وحظّاً.. ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا.

هناك فرق كبير بين من طال طريقه على هذا الإسلام، وبين آخر

على بداية الطريق، فإن طول الطريق في الأصل مؤذن إلى الكمال، بخلاف الآخر الذي لم يعرف من الإسلام إلا اسمه فقط، فالأول لا حاجة إلى تأليفه على دين ذاق طعمه، وشعر بحلاوته، ولقي في طريقه أيام النعيم! والثاني: ما زالت قدمه لم تثبت على الطريق، ولم يجد من النعماء ما يملأ قلبه، ولم يعرف من أسرار الدين ما يؤيد به معاني الروح الحقيقية في حياته، لذا كان الثاني أحوج إلى شيء من لعاعات هذه الدنيا، لتنير له طريق الإسلام الطويل.

الصالحون على وجه الأرض مهما بلغ إيمانهم، وعلت رتبتهم هم بشر من الناس يعرض لهم ما يعرض للآخرين، فيحزنون، ويتألمون لفوات شيء من الدنيا يرون أن لهم فيه حقّاً، فهؤلاء هم الأنصار مع جلالة قدرهم، وسموّ منزلتهم، ورفعة مكانتهم لما رأوا الأموال تحدَّرت عنهم تجاه قريش حزنوا لفواتها، بل قال بعضهم ما قال عفا الله عنهم.

ما بلغ الرجل منزلة عظيمة مثل ما يبلغها الصادق في حياته، لقد جاء سعد بن عبادة رضي الله عنه يعرض حال الأنصار، فسأله نبي الله ﷺ: أين هو من قومه؟ وكانت الفرصة مواتية أن يتجمّل من رسول الله ﷺ، وقد تجمّل من الأنصار، فإذا به يقول: ما أنا إلا من قومي، **فما أجمل الصدق في حياة الرجال! وما أروع مواقف الصادقين!** والله المستعان..

رابعاً ـ هوازن تعلن إسلامها:

قسّمت الغنائم، فإذا بقبائل هوازن تعلن إسلامها، وتطلب من نبي الله ﷺ رد أموالهم إليهم، فخيرهم ﷺ بين السبي والمال، فاختاروا السبي، فخطب ﷺ المؤمنين وقال: «**إن إخوانكم هؤلاء جاؤونا تائبين، وإنّي أردت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل،**

ومن أحب أن يكون على حظه حتى نُعطيه إياه من أوّل ما يفيء الله تعالى علينا فليفعل»، فقال الناس: طيّبنا يا رسول الله لهم.

هكذا هم القادة، وإنني والله ليزداد عجبي في مواقف هذه السيرة من هذا النبي الكريم ﷺ الذي أراد الله تعالى أن يكون منهجاً في الأرض ينير طريق المسلمين، لقد كان الأمر لازماً حتميّاً، ومع ذلك يترك خيارات يختار فيها الإنسان ما يريد إبقاءً لحظه، ووفاء له بجهده.

لقد تنازل معظم الجند عن السبي سوى الأقرع بن حابس، وتكلّم باسم قبيلة تميم كلها، وعيينة بن حصن وتكلَّم باسم قبيلة فزارة، فوعدهم الرسول ﷺ بتعويضهم عنها.

وقد سُرّ رسول الله ﷺ بإسلام هوازن وسألهم عن زعيمهم مالك بن عوف النصري، فأخبروه أنه بالطائف مع ثقيف، فوعدهم برد أهله وأمواله عليه، وإكرامه بمئة من الإبل إن قدم عليه مسلماً، فجاء مالك مسلماً، فأكرمه وأمّره على قومه وبعض القبائل المجاورة الأخرى.

خامساً ـ قصة ثقيف مع الإسلام:

لحق عروة بن مسعود الثقفي برسول الله ﷺ في طريق عودته إلى المدينة بعد تقسيمه للغنائم فالتقى به وأعلن إسلامه ثم عاد للطائف، وكان من زعماء ثقيف ومحبوباً عندهم، فدعاهم إلى الإسلام وأذّن في أعلى منزله، فرماه بعضهم بسهام فأصابوه، فطلب من قومه أن يدفنوه مع شهداء المسلمين في حصار الطائف.

وبقي أهل الطائف كذلك، ثم لما رأوا ما أصابهم أرسلوا في شهر رمضان من العام التاسع بعد عودة النبي ﷺ من تبوك وفداً برئاسة

عبد ياليل بن عمرو ومعه جمع من ثقيف وأعلنوا إسلامهم، ومكث الوفد خمسة عشر يوماً في المدينة ثم عادوا إلى الطائف ومعهم أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة الثقفي ليهدما اللات. . وبذلك دانت ثقيف كغيرها تحت حكم الإسلام. ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين.





الفصل الثالث والثلاثون

غـزوة تبـوك

أولاً ـ وقتها وسببها وتسميتها:

وقعت هذه الغزوة في العام التاسع للهجرة في شهر رجب بعد العودة من حصار الطائف بستة أشهر تقريباً، وإنما كانت لأن قريش دانت، فأراد النبي ﷺ قتال الروم، وتبليغهم دين الله تعالى.

وهذه الغزوة اتجاه جديد، فإن الفترة الماضية ما عدا غزوة مؤتة كانت لأهل الشرك والوثنية من أهل الجزيرة العربية.

وهذه الغزوة لها بُعد آخر خارج إطار الجزيرة العربية، وتبعد تبوك عن المدينة سبعمئة وثمانية وسبعين كيلاً.

وسميت هذه الغزوة تبوك، وسميت العسرة لما أصاب المسلمين فيها من الضيق والشدة، قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧]. .

ثانياً ـ تجهيز جيش العسرة:

وقبل بداية الرحيل حث ﷺ على النفقة في سبيل الله تعالى، حتى قال: «**من جهّز جيش العسرة فله الجنة**»، فسارع الأغنياء والضعفاء بالنفقة، وكان لعثمان رضي الله عنه ذلك اليوم القدح المعلّى؛ حتى قال ﷺ: «**ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم**»، وكان يرددها مراراً.

لقد كان هذا الرجل وسام شرف في تاريخ الأمة منذُ أسلم، وهو

اليوم يكتب تاريخاً آخر في حياته لدعم رسالة الإسلام! وما تشوّق متشوّق للمال حتى يرى أفعال الرجال تاريخاً يكتب مآثرهم في أيام الحاجة والبأساء.. وما فرح الإنسان بالمال ما فرح به عند سماع هذه الأخبار!..

ثالثاً ـ أفعال المنافقين:

تسابق الضعفاء يشاركون في البناء؛ فقدم خيثمة الأنصاري بصاع تمر، فلمزه المنافقون، وجاء أبو عقيل بنصف صاع من تمر، فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا! وما فعل الآخر إلا رياء!.. فنزل قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾ [التوبة: ٧٩].

مع ضرورة الحاجة إلى المال وأهميته في هذه الغزوة إلا أن المشاركة في حد ذاتها مطلب لتهييج النفوس على المرحلة القادمة.

إن مشكلة الأمة اليوم ليست في ضعف الإنفاق ـ وإن كان ذلك بارزاً واضحاً ـ لكن مشكلتها الحقيقية أنها ترسب في المبادرة مراراً، وهذا الرسوب ولّد على مستوى الأمة إخفاقات عظيمة كبيرة! وما أصاب الأمة مرض كمرض النفاق، وهذا المرض يستطيع التلوّن والتخفّي في أيام الرخاء، لكنه سرعان ما يريك وجهه الكالح في أيام الشدة والبأساء!.

في هذه الغزوة المسافة بعيدة، والحر شديد، لذا ارتفع صوت النفاق مبكراً لأنه لا حيلة إلى التخفّي البتة... وصف الله تعالى تثبيطهم فقال: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾ [التوبة: ٨١]، وجاؤوا إلى نبي الله تعالى وهم يقولون: ﴿لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ﴾ [التوبة: ٤٢]، وجاء بعضهم وهو

يقول: ﴿ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ [التوبة: ٤٩]. . . وغير ذلك كثير مما أنبأت عنه المرحلة، وأبانته وعثاء الطريق. . ولم يكن ذلك قولاً فحسب.

رابعاً ـ النفير:

أعلن ﷺ النفير، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٨ ـ ٣٩].

وقال تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

نفر الصحابة رضوان الله تعالى عليهم إلى تبوك، ولم يتخلّف منهم إلا نفر يسير من أصحاب الأعذار، وثلاثة آخرون من غير عذر؛ وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع.

وطلب النبي ﷺ من علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يخلفه في أهله، فقال: يا رسول الله تخلّفني في النساء والصبيان؟ فقال ﷺ: «**أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؛ غير أنه لا نبي بعدي؟!**».

إن علي بن أبي طالب رضي الله عنه يتخيّر الشمس الحارقة، وشقة المسافة، على الظلال الوارفة، والينابيع الجارية، فللّه درُّ هذه العقيدة كيف تسحب أصحابها إلى مراضي الله تعالى ولو كانت لأواؤها مؤذنة بالهلاك!. .

لله درُّ الإيمان حين يرى الصعاب، والأخطار كحادٍ لا غير! ولله درُّ رسول الله ﷺ كيف يمتلك قلوب أصحابه بلغة من الإقناع لم يسمعها الإنسان إلا في ظلال هذه السيرة النبوية العطرة!. .

إن فنون القيادة في شخصية رسول الله ﷺ من الصعوبة بمكان أن يحيط بها قلمي، لكن حسب اللبيب إشارات يهتدي بها إلى ما بعدها، والله المستعان..

خامساً ـ دموع الرجال:

انطلق رسول الله ﷺ تجاه تبوك، وتحسّر الفقراء المؤمنون أنهم لم يكونوا في صحبته ﷺ، حتى إن عُلبة بن زيد صلى من الليل وبكى، وقال: «اللهم إنك أمرت بالجهاد، ورغَّبت فيه، ولم تجعل عندي ما أتقوّى به مع رسولك، وإنّي أتصدّق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني بها في جسد أو عرض»، فأخبره النبي ﷺ أنه قد غُفر له.

وبكى كثير منهم شوقاً إلى الجهاد؛ حتى قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩١ ـ ٩٢].

إن القلوب المؤمنة لا تكاد تتماسك أمام رايات الجهاد، ويؤسفها أنها لا تشارك في بناء الأمة، ووالله الذي لا إلٰه إلا هو ما ترسّب الإيمان في قلب بشر إلا وطار به شوقاً إلى معاني الكرام، وما حصل الجبن والذعر والخوف، والتهاون والكسل في قلوب بعضنا إلا حين نضب الزاد. والله المستعان..

وهؤلاء أوصلتهم قلوبهم إلى فرط البكاء نظير عدم المشاركة؛ فكانت التسلية لهم عظيمة من رسولهم ﷺ حين قال: «**إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم**» قالوا: يا رسول الله،

وهم بالمدينة؟! قال: «**وهم بالمدينة؛ حبسهم العذر**».

لله درُّ النيات ترحل بأصحابها فتعانق بهم الجهاد في الأراضي القفار، وتهبط بآخرين فتسوقهم إلى دركات النار!..

لقد رحلت النية بهؤلاء الفقراء إلى أنهم كمن مشى على أرض الجهاد وهم في بيوتهم، وسقطت بآخرين في الحضيض.

سادساً ـ عدد المسلمين وراياتهم:

لقد كان جيش المسلمين كبيراً جدّاً وهو يزحف إلى تبوك، حتى قال كعب بن مالك ﵁: والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ.. وقال في رواية: يزيدون على عشرة آلاف. وقال الحاكم وجماعة: كانوا أربعين ألفاً، وحمل أهل العلم كلام كعب في قوله: عشرة آلاف على عدد الفرسان.

وفي تلك الغزوة أعطى ﷺ اللواء الأعظم للصديق أبي بكر ﵁، والراية للزبير، وراية الأوس لأسيد بن حضير، ولواء الخزرج لأبي دجانة، ويقال: إلى الحبَّاب، وأمر كل بطن من الأنصار أن يتخذوا لواء وراية.

سابعاً ـ المتخلفون:

وتخلّف عن الغزوة ثلاثة من كرام الصحابة: كعب بن مالك: وقد شهد سائر الغزوات قبلها سوى بدر، وقد غلب عليه التسويف ولم يكن ينوي التخلّف، فمال إلى الظلال والثمار حتى خرج الناس. وأما مرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، فقد شهدا بدراً.

وتخلّف عن الغزوة بضعة وثمانون رجلاً غير هؤلاء من صحابة

رسول الله ﷺ، وفي الطريق رأى ﷺ سواداً مقبلاً فقال: «**كن أبا خيثمة**»[١] فكان هو، ورأى سواداً آخر فقال: «**كن أبا ذر**» فكان ما قال.

ثامناً ـ الوصول إلى تبوك وما جرى من أحداث بعدها:

ولما وصل ﷺ إلى تبوك أرسل خالد بن الوليد مع عدد من الصحابة إلى دومة الجندل، فأسروا أكيدر بن عبد الملك الكندي، ملكها، وهو في الصيد خارجها، فصالحه النبي ﷺ على الجزية، وقد تعجّب الصحابة رضوان الله عليهم من قباء كان أكيدر لبسه!.. فقال ﷺ: «**أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا**»!.

نعم **إن القائد الفذ هو الذي يستثمر الفرصة فلا يفوتها، بل يلقي فيها الطُّعم فيصطاد من آثارها قلوب الرجال**، إن الفرصة مواتية لغرس شيء من معاني العلو والرفعة والنظرة الاستشرافية عند المؤمن؛ فكان هذا الموقف العجيب، وعلى القائد أن يستثمر الأحداث ليربِّي من خلالها القيم والمثل في نفوس الأتباع، وإلا تعلّق المتعلقون بآثار الدنيا الفانية، وشاهت وجوههم إلى جوانب الطريق فعثروا في البدايات.

وصلت إلى تبوك هدية ملك أيلة للنبي ﷺ؛ وهي بغلة بيضاء وبرد، فصالحه على الجزية..

ولم يقع قتال في هذه الغزوة، بل انتهى المسلمون إلى تبوك ولم يلقوا جموع الروم، وآثر حكّام المدن الصلح على الجزية.

تاسعاً ـ في طريق العودة إلى المدينة:

مكث الجيش عشرين ليلة في تبوك، ثم عادوا إلى المدينة، وفي

---

(١) رواه مسلم.

طريق العودة إلى المدينة مرَّ المسلمون بالحِجْر، في ديار ثمود، وسارع الناس إلى دخول بيوت الحجر، فنهاهم ﷺ وقال: «**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم؛ أن يصيبكم ما أصابهم، إلا أن تكونوا باكين**»(١) . . ثم قنّع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي، كما نهاهم عن شرب الماء من بئرها أو الوضوء منه، وأن يعلفوا إبلهم ما عجنوه من عجين بمائها.

إن أماكن العذاب أماكن وبال وخزي في تاريخ من وقع فيها، وهي معالم ماثلة أبقاها الله تعالى لتستفيق قلوب المعتبرين، والعبرة الحقيقية في تجنّبها، وتذكّر حال أهلها المعذبين، والنُّفرة من طريقها، والنجاة بالنفس أن يتكرر عليها مشهد العذاب هناك، لذا جاء هذا التوجيه النبوي الكريم. . فأين هذا التوجيه من أولئك الراكضين على أرضها باسم السياحة؟! فليعتبر المعتبرون، وإلا فليتحمّل كل إنسان تبعة تخلّفه عن منهج رسوله ﷺ! . .

اشتكى المسلمون إلى النبي ﷺ ما أصاب إبلهم من الجهد في طريق العودة، فدعا ربه تبارك وتعالى وقال: «**اللهم احمل عليها في سبيلك، إنك تحمل على القوي والضعيف، وعلى الرطب واليابس، في البر والبحر**»، فنشطت بهم حتى أبلغتهم المدينة ولم يشتكوها(٢).

وفي ثنايا الطريق شرق المنافقون بهذا النصر فتلثّموا وأرادوا تنفير ناقة نبي الله ﷺ، ففطن لهم وأمر بإبعادهم.

ولما اقترب الجيش من المدينة خرج الصبيان إلى ثنية الوداع يتلقونه وهم يرددون:

---

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه الإمام أحمد بإسناد حسن. انظر: السيرة النبوية الصحيحة، للعمري.

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

عاشراً - قصة الثلاثة الذين خلفوا:

دخل ﷺ المدينة فصلى في مسجده ركعتين ثم جلس للناس، وجاءه المتخلفون من المنافقين فاعتذروا فقبل منهم علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى.

وجاء كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع؛ فأقروا أنه لا عذر لهم في تخلفهم عن الغزوة، فنهى ﷺ عن كلامهم، فاجتنبهم الناس خمسين ليلة، وأُمرت نساؤهم باعتزالهم، فذهبن عند أهلهن إلا زوجة هلال إذ كان شيخاً كبيراً فبقيت لخدمته بإذن رسول الله ﷺ.. فضاقت بهم الدنيا.

وحاول ملك غسان استغلال الموقف، فراسل كعباً ليلحق به، لكن كعباً أحرق الرسالة..

واستمرت المقاطعة حتى نزل القرآن يعلن توبتهم، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

فرق كبير بين حساب المنافق الظالم في تاريخ الإسلام، وبين حساب المجاهد المناضل، إن تاريخ الثلاثة كعب وهلال وأمية تاريخ يكفيه أن تكون بدر في صدره، ومع ذلك كان الأولى بتلك الأنفس المتطلّعة إلى غايات الفالحين بالأمس ألا ترسب اليوم لظل وارف، أو لزوجة حسناء، أو لطريق يذهب بأثر النعماء، كلا!.. كان الأولى بها

اليوم أكثر من ذي قبل أن تقف مع رسولها ﷺ، وألا تتركه لحثالة النفاق تعيق الطريق، فأما إذا فعلت ووقعت، وتفيأت الظلال، وتركت أهل الإيمان في مسالك الضيق والشدة والشقَّة، فعليها أن تتأدّب حتى لا تؤثر نفسها مرة أخرى.

ظل كعب وصاحباه أربعين ليلة تنكّرت لهم الأرض فليست بالأرض التي يعرفون، وتنكّر لهم الصحْب فليسوا أولئك الصحب الذين يعرفون، وبعد أربعين ليلة من هذا البلاء وهم ينتظرون الفرج جاء العقاب أشد، بعزل نسائهم عنهم، والبقاء في غربة أضيق مما كانوا فيها، أما كعب فظل يجوب الأرض، ويبحث عن معين، ويتلهّث وراء الفرج الموعود، وأما صاحباه فبقيا يبكيان.

في يوم من الأيام وبينما كعب يجوب الأرض؛ إذا برسول قادم من ملك غسان: أين كعب؟.. فيدلُّ عليه، فيرمي بين يديه رسالة مفادها: «أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله تعالى بأرض مهانة، فالحق بنا نواسك..».

لكنها لم تقع في يد مرتاب أو منافق أو مغموس في الرذيلة ليمتّع بها ناظريه حين يجد أذى الهجر أو مسّ الفرقة، بل وقعت في يد مؤمن صادق، فأخذها وجعلها حطباً للتنّور، ذلك أن أمثال هذه الرسائل هي خيوط حين تبقى غير بعيدة يتسلل منها الشيطان في أوقات ضعف فيخدش القلب، فيجترّ صاحبها إلى غفلة.

لقد تسوّر كعب يوماً حائطاً لابن عمِّه فوجده يسقي في بستانه، فقال له: أنشدك الله هل تعرف أني أحب الله تعالى ورسوله؟.. فلم يزد أن قال له: الله ورسوله أعلم.. فلم يجد كعب مناصاً من أن يتحدّر الدمع على خديه فيتسوّر الجدار من جديد فيخرج لا يجد ما يشفي صدره.

وظلَّ كعب يصلي مع الجماعة في مسجد رسول الله ﷺ، لكنه ما كان يعرف من معاني الجماعة سوى أجساد يلامسها، أما القلوب فقد ترحّلت عنه لأمر رسول الله ﷺ، ظل يدخل المسجد فيقبل على رسول الله ﷺ فيسلّم عليه فيقول: «فوالله ما أدري هل ردَّ السلام عليّ أو لا» مع عظيم حبِّ نبي الله ﷺ له، وشوقه إليه.

وهكذا ظل هذا الدرس بليغاً في ظل خطأ حمل عليه التهاون، والكسل، والتسويف، والرجال العظماء في تاريخ الإسلام حين يقعون بمحض إرادتهم ينبغي أن ينالوا جزاء ذلك عاجلاً حتى ينتظم الصف، ويستقيم الطريق. والله المستعان..

وأخيراً نزلت توبة كعب بن مالك وصاحبيه، نزلت كالغيث حين يصيب الأرض الموات، نزلت على قلوب طال ظمؤها، ولأول مرة في تاريخها بعد دخول الإسلام، لكن سقيها كان عظيماً، فاعشوشب القلب، وازدانت الروح، وبرزت الأسارير بعظيم الفرح، فللّه درُّهم، ابتلوا وصبروا، وتاب الله تعالى عليهم فشكروا، وقليل ما هم أولئك الصابرون في مثل هذه المحن، والله المستعان..

حادي عشر ـ مسجد الضرار:

مسجد الضرار، وما أدراك ما الضرار! بدأت النية فيه في أوائل الغزو إلى تبوك من المنافقين الأراذل، جاء هؤلاء إلى رسول الله ﷺ بعد ما بنوا المسجد ليصلي لهم فيه، فقال لهم: «**إنا على سفر، وحال شغل، ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه**».. فلما قفل عائداً، ونزل بذي أوان جاءه خبر المسجد في قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

دعا ﷺ مالك بن الدُّخشم، ومعن بن عدي العجلاني، ثم قال

لهما: «**انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرِّقاه**» ففعلا.

إن الضرب بمعاول الهدم في بناء الإسلام ظلم لا يستعمله إلا أهل السوء من أهل النفاق، والمِعْول الذي يحاول الهدم به ينبغي أن يكسر، ويحرّق أمام الملأ والعامة حتى لا يقع في الخطأ مرة أخرى، وهو درس لكل من تسول له نفسه مصاولة جماعة المسلمين أو تشتيت رؤيتهم.

وليعذرني قارئ هذه الأسطر فإنني أرى الجماعات الإسلامية في الساحة قدَّمت خيراً كبيراً، ونفعت الأمة، وهي جزء لا يتجزأ من البناء، غير أن النزاع على الشرعية، والخلاف في الوسائل؛ ولّد عصبية مقيتة، وأخرج أحزاباً متناحرة.

لست أدري هل هؤلاء يعون قول الله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ...﴾ [آل عمران: ١٠٣] حق الوعي، أم أن هذا المفهوم أصابه غبش هذا التنازع الموهوم.

لست أدري إلى هذه الساعة لماذا يقام منشطان مختلفان في مكان واحد، ونزعم أن الهدف واحد، ويسود من خلال ذلك بعثرة الجهود، وانتثار الصف، وضحك المغرضين؟!..

لست أدري كم هي روح الإخلاص لله تعالى في ذلك التنازع؟!..

لست أدري هل هذا التنازع هو ولاء لله تعالى أو ولاء لأشخاص ومنظمات وأحزاب؟!..

على كل حال أرجو ألا أكون مسرفاً في هذه التساؤلات، لكنَّ ريح هذا التنازع بدأت تتفشّى، وصور الاختلاف بدأت تظهر، وأخشى والله أن يكون الولاء للأشخاص والأحزاب ـ في مثل هذه الأعمال ـ يغلب الولاء لله تعالى. والله المستعان..

وقد صدق محمد قطب رَحِمَهُ الله حين قال: «وإذا كانت الأمة قد غفت قرنين من الزمان أو أكثر، ثم بدأت تصحو، وتنتبه إلى حالها، وإلى ما يحيط بها من أحداث، فمن الأمور التي لا تستغرب أن يقول أناس: طريق الخلاص من هنا، وأن يقول آخرون: لا بل طريق الخلاص من هنا، وأن يقول آخرون: لا من هنا ولا من هنا، بل من هناك!.. ولكن أن يستمر الخلاف طويلاً دون أن تتقارب وجهات النظر نتيجة للدراسة والتمحيص، فهذا أمر له دلالة سيئة.. ثم الذي له دلالة أسوأ أن تكون هذه الخلافات مصحوبة بالتشرذم والتعادي والتخاصم والتنابذ والفرقة، فهنا يكمن المرض وتكمن الخطورة...

إن من أكبر المخاطر التي يتعرّض لها العمل الإسلامي الخلط الذي يحدث في مرحلة من المراحل في نفس الداعية بوعي أو بغير وعي بين شخصه وبين الدعوة.. فهناك خيط رفيع بين الدعوة والداعية يجعله أحياناً يخلط بين نفسه وبين الدعوة، فيخلط بالتالي بين مصلحة الدعوة ومصلحته الخاصة، وبين ما يصيبه هو وما يصيب الدعوة، فيرى ـ بوعي منه أو بغير وعي ـ أن ما يكون في مصلحته يصب في مصلحة الدعوة، وأن ما يقع منه الضرر على شخصه يكون ضرراً للدعوة! وبعبارة أخرى: يحدث الخلط بين الدعوة وبين الأنا التي تقوم بالدعوة، والأنا لها صور شتى: أنا وجماعتي، وأفكاري، وأتباعي، وأعواني، وخصومي، ومنافسي، ومن يريد أن يكون أبرز مني، ومن يريد أن يأخذ مكاني!.. عندئذ يضطرب الميزان في نفس الداعية، وتبرز «الأنا» موهمة صاحبها أنه إنما يعمل لمصلحة الدعوة». اهـ.

❁ ❁ ❁



الفصل الرابع والثلاثون

عـام الوفـود

سمي العام التاسع بعام الوفود، حيث ابتدأت وفود القبائل العربية تقدم من أنحاء الجزيرة العربية معلنة دخولها في الإسلام، كوفد عبد القيس، ووفد بني حنيفة وفيهم مسيلمة الكذاب، الذي اشترط لإسلامه أن يكون له الأمر بعد رسول الله ﷺ.

ووفد نجران، وقد دعاهم ﷺ إلى الإسلام فأبوا، فدعاهم إلى المباهلة لمَّا نزلت آية المباهلة في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩ ـ ٦١].. ثم عدلوا عن ذلك خوفاً أن تصيبهم اللعنة، وطلبوا المصالحة على دفع الجزية.

ووفد الأشعريين، وأهل اليمن، ووفد دوس، وطيِّئ، وقدوم عدي بن حاتم الطائي، وتمَّ إرسال بني سعد بن بكر لضمام بن ثعلبة إلى المدينة وقصته مشهورة: إني سائلك يا محمد فمشدد عليك في المسألة...

إلى غير ذلك من الوفود التي قدمت على النبي ﷺ في ذلك الوقت، قَدِمت مذعنة بعد تطاول رأسها بالأمس، قدمت راغبة اليوم بعد جهاد طويل من الإقناع! قدمت اليوم منقادة راغبة مقبلة بعد أن ظلت أزماناً رافضة مستعلية مستكبرة!..

لقد شهد التاريخ ولا يزال أن النفوس لا تعطي الولاء لغيرها ما لم تجد فيمن يتزعّم ذلك أنموذجاً من الصبر والجهاد والتضحية!..

من كان يتخيّل أن هذه الجموع تأتي هي دون ضغط يجبرها أو سوط يلهبها؟!..

من كان يتخيّل أن الأعداء يأتون مسالمين؟! والقادة يأتون مذعنين؟! والرجال يأتون مقرِّين معترفين؟!..

لا أحد، إلا التجربة الفذة، والجهاد العريض، والتضحية المثالية، هذه يمكن أن تلوي أعناقاً مكابرة، ونفوساً مستعلية، أما غيرها فحبر على ورق، وكلام تنسفه الريح فلا تبقي له أثراً.. ومن تمعّن أدرك... والله المستعان.





الفصل الخامس والثلاثون

حج أبي بكر رضي الله عنه بالناس

لم يحج النبي ﷺ عام فتح مكة، بل اعتمر ورجع ﷺ إلى المدينة.

فلما كان العام التاسع أمّر ﷺ أبا بكر رضي الله عنه على الحج، فخرج في ذي الحجة إلى مكة، ولما خرج أبو بكر رضي الله عنه بالناس من المدينة نزلت سورة براءة، فأرسل النبي ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بصدر هذه السورة ليعلنها على الناس في موسم الحج يوم النحر، فمضيا أبو بكر أميراً، وعلي يبلغ صدر سورة براءة، ويساعده في البلاغ أبو هريرة والطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنهم.

وقد ذكر علي رضي الله عنه أنه بُعث بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفسٌ مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يحج بعد العام مشرك، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مُدَّته[1].

فأمهلت المعاهدين منهم إلى انتهاء مُدَّتهم، وأمهلت من له عهد إلى أجل محدود بأربعة أشهر تبتدئ في العاشر من شهر ذي الحجة وتنتهي في نهاية العاشر من ربيع الآخر، وأمهلت من لا عهد له من المشركين إلى انسلاخ الأشهر الحرم، فإذا انتهت مُدَدهم صاروا في حرب مع المسلمين.

وأرسل ﷺ أبا موسى الأشعري ومعاذاً رضي الله عنهما إلى اليمن، وقال لهما: **«يسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا، وتطاوعا ولا تختلفا»**[2].

---

(١) رواه الإمام أحمد، وجوّد إسناده ابن كثير.

(٢) رواه البخاري.

وقال ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: **«إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إلٰه إلا الله، وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أنّ الله قد افترض عليهم خمس صلوات، في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة، تؤخذ من أغنيائهم وتردُّ علىٰ فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك، فإيّاك وكرائِم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب»**[١]. . وأرسل خالد بن الوليد رضي الله عنه أيضاً إلى اليمن.

لقد آن أوان التطهير من آثار الوثنية. . .

لئن كان الإسلام بالأمس يقبل تلك النفوس على ما هي عليه من أدناس الوثنية وبقايا رجسها، فهو اليوم لا يقبل إلّا نفوساً طاهرة من أدناس الوثنية.

إن القادة يدركون تماماً أن أعظم سُنن التغيير على وجه الأرض سنَّة التدرُّج، وما تحريم الخمر، وتشريع الصلاة، وشرائع الدين إلا نماذج من ذلك التاريخ العريض، حتى النفوس وإن رأيتها في بدايات التجربة تحاول أن تخالف هذه السنَّة ظاهرياً، ترتكس فيها بغير قصد من الداخل، فكان لا مانع في الإسلام من أن تأخذ النفس قسطاً كافياً للوصول.

وحجُّ أبي بكر الصديق رضي الله عنه من هذا القبيل، ووفق هذه السنة، وهو نهاية مسح أوضار الجاهلية كلها، وطمس معالم الوثنية من أرض مكة، ومن تاريخ تلك النفوس الطويل. والله المستعان. .

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه البخاري.



الفصل السادس والثلاثون

حجَّة الوداع

أولاً ـ وقتها وأهميتها:

في العام العاشر أعلن ﷺ حجه إلى بيت الله الحرام، وخرج من المدينة لخمس بقين من ذي القعدة، وحجُّ ذلك العام سمي بحجة الوداع، وهي الحجة الأولى والأخيرة له ﷺ، ونزل عليه في عرفة قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. . حج ﷺ بالمسلمين، وعلَّمهم في ذلك مناسك الحج، وكان يقول: «**خذوا عني مناسككم**».

ثانياً ـ خطبة الوداع وغيرها:

وخطب ﷺ خطبة بليغة قرر فيها أموراً عظيمة من هذا الدين. . قال فيها: «**إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا إنَّ كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدميّ هاتين موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا: ربا العباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله، فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله تعالى، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، وإن لكم عليهن ألا يوطئن فرُشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرّح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإني قد تركت**

فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعد أن اعتصمتم به: كتاب الله، وأنتم تُسألون عني فما أنتم قائلون؟».

قالوا: نشهد أنك قد بلغت رسالات ربك، وأديت، ونصحت لأمتك، وقضيت الذي عليك..

فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «**اللهم اشهد، اللهم اشهد**»[١].

وألقى ﷺ خطبة كذلك في منى..

وفي طريق العودة من حجة الوداع خطب ﷺ الناس في غدير خم قريباً من الجحفة في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة، وأمسك بيد علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: «**من كنت مولاه فعلي مولاه**»، وكان علي قد أقبل من اليمن وشهد حجة الوداع[٢].

وإنما قال ذلك لأن بعض الجند اشتكى علياً إلى رسول الله ﷺ وأنه اشتد في معاملتهم، فأوضح لهم النبي ﷺ في غدير خم مكاناً قريباً من ذي الجحفة مكانة علي رضي الله عنه، ونبّه على فضله، فصلى الله على نبينا، ورضي الله عن علي بن أبي طالب.

ثالثاً ـ دروس حجة الوداع:

هذه حجة الوداع الحجة الأولى والأخيرة لرسول الله ﷺ، الحجة التي قرَّر فيها عبر المنبر رسالة الإسلام ومبادئه العظام، قرَّر فيها:

١ ـ **حرمة دماء المسلمين وأموالهم: «إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام»** فلا سبيل إليها البتة.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) جوّد إسناده ابن كثير.

إن النفوس التي شربت الإيمان منهجاً، وعاشت شرع الله ﷻ رسالة في حياتها يحرم إراقة دمائها، والعبث بأموالها، والتأويلات التي يستند إليها الغارقون اليوم في حرمة دماء المسلمين قد لا تشفع لهم عذراً بين يدي الله تعالى.

لقد قال الله تعالى: **﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾** [النساء: ٩٣].

وقال رسول الله ﷺ: «**لزوال الدنيا بأسرها أهون عند الله من قتل رجل مسلم**»(١).

ألا يكفي مثل تلك النصوص التي تقرع القلوب رادعاً وزاجراً عن اقتراف مثل هذه الكبائر العظام؟! نسأل الله العافية..

٢ ـ **جاء هذا الدين ليحرر الناس من ربق الجاهلية الظلماء، ويخرجهم إلى نور الله تعالى الذي أراد لعباده،** فهي اليوم ـ أعني الجاهلية ـ ظلمة لا نور فيها، وكل أمر يخالف أمر الله تعالى اليوم على وجه الأرض فهو جاهلية، وقد وضعها النبي ﷺ تحت قدمه؛ كناية عن هدمها وطمس معالمها، وكل من تعلّق اليوم بشيء من أمور الجاهلية فهو عاصٍ مخالف لأمر رسوله ﷺ، ضارب بتعاليمه وتقريره في حجة الوداع عرض الحائط.

لقد تطاولت أعناق بتراء اليوم لتعيد الأمة إلى عصر الظلمة، تلك التي تُطلق على حجاب المرأة قيود الحرية، أو تلك التي تتأفّف من

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني.

شرع الله تعالى في إقامة الحدود، أو تلك التي تحاول جاهدة في إعادة الأمة إلى جاهليتها باسم التجديد.

تف على كل يدٍ تحاول إركاس الناس في جاهليتها من جديد! وتف على كل يدٍ آثمة ظالمة تتنكّر لنعم الله تعالى فتكتب لتحرير المرأة من شرع الله تعالى، أو لإعاقة منهج الله تعالى في الأرض.. وتف على كل إنسان اختالت به نفسه على الأرض فأصبح عدوّاً لدوداً لشرع الله تعالى وهدي رسوله ﷺ.

٣ ـ في حجة الوداع **وضع النبي ﷺ الربا**، وأكد على طرحه من قيم المسلم، ونبذه من أعراف المؤمنين الصادقين.

إن حجة الوداع تكتب لنا نبذ الربا من حياة المسلمين، وأنه لا خير فيه، ولا رخاء، وأن مضرته وآثاره أسوأ دخيل على أموال المسلمين وحياتهم.

فهل نعي هذا التوجيه وندرك آثاره؟!..

إن ما أصاب المسلمين اليوم من تخلّف، ومحق بركات، وضياع أهداف لعل الربا بعض أسبابه، فما شتات الأفراد، وضياع بيوتهم وأُسرهم، وتفشِّي المنكرات، إلا جزءاً يسيراً من هذا الدخيل الذي أكّد رسولنا ﷺ على وضعه في حجة الوداع. والله المستعان..

٤ ـ في حجة الوداع **أكّد رسول الله ﷺ على حق النساء**، وذكّر المسلمين به فقال: «**فاتقوا الله في النساء...**».

المرأة ضعيفة، وهي أحوج ما تكون إلى من يعطيها ويأخذ منها على وفق شرع الله تعالى.

إنني أقرأ تفاصيل هذا الخطبة في هذا المساء وأعيش أسفاً روحيّاً ومعنويّاً كبيراً على واقع المسلمين، لكأنهم عنوا مخالفة كل ما أكّد عليه رسول الله ﷺ في مضامين تلك الخطبة الجامعة.

إن المرأة اليوم إن كانت بنتاً فهي أشبه شيء بالسلَع التي يزايد عليها في أيام الغلاء، فكم من فتاة ترغب في الزواج ووالدها يماكس الخُطّاب في تزويجها؟!.. وزاد الأمر سوءاً مع عملها الذي أصبح شؤماً عليها في تأخير الزواج رغبة في مالها، وخوفاً عليه من الضياع، وإن كانت زوجة فحدّث ولا حرج عن الأسى الذي تمر به وهي تئن تحت وطأة زوج ظالم لا يتقي الله تعالى في ضعفها وأنوثتها، وإن كانت أمّاً فقد انتشر العقوق وأصبح في المحاكم الشرعية جزءٌ ظاهرٌ منه. والله المستعان..

٥ ـ وفي حجة الوداع درس بليغ للغاية؛ هو أن **التربية كل شيء**، في أول الأمر حين يستقيم الإنسان على دين الله تعالى فهو أحوج شيء إلى مضامينها، وفي آخر شيء وقد وصلته كل المفاهيم ولم يبق منها شيء ناقص البتة.

إن هذه المفاهيم التي تلقَّاها الصحابة الكرام أول ما عانقتهم ريح هذا الدين هي نفسها تلك التي خُتم بها على مسامعهم في آخر رحلة لحامل هذا الدين..

إن الواقع يثبت لنا اليوم أننا لسنا بحاجة إلى مفاهيم جديدة بقدر ما نحن بحاجة إلى تعميق مفاهيم الأمس وتأكيدها والتربية عليها من جديد.. مما يدلُّك على أن التربية لا تنقطع بطول الزمان أو قصره..

فالعبرة في خطبة الوداع كما يقول محمد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ: «أنها جاءت بعد جهد متصل من جانب الرسول ﷺ ثلاث عشرة سنة في مكة، وعشر سنوات في المدينة؛ فلا الرسول ﷺ قال في نفسه ولا قال للمؤمنين: ربيت بما فيه الكفاية فلا حاجة إلى المزيد، ولا المؤمنون قالوا في أنفسهم: سمعنا ذلك من قبل فلا حاجة بنا إلى المزيد، إنما يعلم المربّي القدير ﷺ أن النفس البشرية لا تستغني عن التذكير، ويعلم المتلقون أنهم في حاجة دائماً إلى التذكير». اهـ.

٦ ـ وأخيراً في حجة الوداع **جاء التأكيد على حبل نجاة الأمة، ومصدر عزِّها وفخرها وسؤددها**، جاءت الوصية بالاعتصام بكتاب الله تعالى وسنَّة نبيه ﷺ: «**تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً: كتاب الله، وسنَّة نبيه ﷺ**».

هذا النور الذي من استضاء به أضاءت له الدنيا بأسرها؛ سواء كان المستضيء به فرداً أو مجتمعاً أو دولة أو أمة لا فرق.

ومن جرّب عرف، ومن ذاق استلذ، ومن أراد أن يدرك الحقيقة بنفسه فليس بينه وبين ذلك إلا أن يفوّض أمره لما أمره به رسوله ﷺ في ثنايا هذه الخطبة الجامعة، والله المستعان. .





الفصل السابع والثلاثون

تجهيز جيش أسامة بن زيد رضي الله عنهما

عاد النبي ﷺ من حجة الوداع، ومضت بقية ذي الحجة والمحرم وصفر من العام العاشر، فبدأ بتجهيز جيش إلى الشام، وأمّر عليه أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما، وأمره أن يتوجه نحو البلقاء وفلسطين، فتجهّز الناس، وفيهم المهاجرون والأنصار، وكان منهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وكان أسامة بن زيد ابن ثماني عشرة سنة.

وتأخرت هذه الحملة بسبب مرض النبي ﷺ بعد البدء بتجهيزها بيومين فقط، وكان أسامة قد أخذ اللواء الذي عقده الرسول ﷺ بيده.

وتكلّم في هذه الإمارة أقوام منهم عياش بن أبي ربيعة المخزومي، فردَّ عليه عمر رضي الله عنه، وأخبر النبي ﷺ، فقام رسول الله ﷺ فقال: «**إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وايم الله إن كان لخليقاً للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إليّ، وإن هذا لمن أحب الناس إليّ بعده**»(١).

ولا تعجب أيها القارئ الكريم من أثر التربية النبوية في مثل هذا المقام! أسامة بن زيد يقود جيشاً وهو في الثامنة عشرة من عمره، وأبو بكر وعمر وكبار المهاجرين أتباع بين يديه، **إنه التجرُّد الحقيقي من أوهام الذات، وانسلاخ من معالم الشخصية الفردية، واندماج كبير جدّاً في**

---

(١) متفق عليه.

الجماعة المسلمة... وما عظُم أولئك الأفراد حقيقة على أرض التاريخ إلا لما عظُمت نفوسهم، وسمت أخلاقهم..

متى كان تكليف الأفراد قادةً، أو جعْلهم أتباعاً علامة على الرقي والتحضر؟! لم يكن ذلك إلا حين برد الإخلاص، وجفت موارده، ونضب من قلوب المتطلبين لهذا الشأن. والله المستعان..

وإذا أردنا أن نبرهن على صدقنا الحقيقي فعلينا أن نؤمن أنه لا مكانة لنفوسنا حتى نكون أمثلة حقيقية على هذه المعالم.

ولا تعجب أيها القارئ الكريم من أبي بكر رضي الله عنه وهو يصر على إنفاذ جيش أسامة رغم رغبة كثيرين لعدم إنفاذه.. لقد برهن أبو بكر رضي الله عنه بالأمس على صدق متابعته في مواقف شتى مضيئة في سيرته العطرة، واليوم يكتب بعد رحيله ﷺ برهاناً آخر حين يصرّ على إنفاذ هذا الجيش؛ لأنه أمنية لرسول الله ﷺ.. فللّه درُّه في هذه المعاني وهو يخطُّها من فجر الرسالة إلى تاريخ رحيل سيد الأنبياء!.





الفصل الثامن والثلاثون

وفاة الرسول ﷺ

أولاً ـ مرض النبي ﷺ وآخر أقواله وأفعاله:

ألمَّ المرض بالرسول ﷺ، فاشتكى بعد عودته من حجة الوداع بحوالي ثلاثة أشهر، وكان بدء شكواه في بيت ميمونة أم المؤمنين رضي الله عنها، واستغرق مرضه ﷺ عشرة أيام[1].

وكانت قد بدأت شكواه في العام السابع عقب فتح خيبر في قصة الشاة المسمومة..

وقد طلب ﷺ أن يمرّض في بيت عائشة رضي الله عنها[2]، فكانت رضي الله عنها تمسح بيده عليه لبركتها، وتقرأ عليه المعوذتين[3].

ولما حضرته الوفاة واشتد عليه المرض قال للصحابة: «**هلموا أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده**»، وكان ذلك الطلب يوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام، فاختلفوا رحمهم الله تعالى ورضي عنهم؛ فمنهم من أراد إحضار أدوات الكتابة، ومنهم من خشي أن يشق ذلك على رسول الله ﷺ، فقال عمر رضي الله عنه: حسبنا كتاب الله تعالى..

ودعا ﷺ فاطمة فسارّها بشيء فبكت، ثم دعاها فسارّها بشيء

---

(١) رواه البيهقي بإسناد صحيح. انظر: السيرة النبوية الصحيحة، للعمري.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري.

فضحكت[١]، وقد أخبرت بعد وفاته أنه أخبرها في الأولى أنه يموت، وأخبرها في الثانية بأنها أول أهله لحوقاً به.

وقد أثقله ﷺ المرض حتى منعه من الخروج للصلاة بالناس، فقال: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**» وقد راجعته عائشة رضي الله عنها لئلا يتشاءم الناس بأبيها، فقالت: إن أبا بكر رجل ضعيف الصوت، كثير البكاء إذا قرأ القرآن، فأصر على ذلك، فمضى أبو بكر يصلي بهم.. وخرج النبي ﷺ يتوكأ على العباس وعلي رضي الله عنهما فصلى بالناس وخطبهم، وأثنى في خطابه على أبي بكر رضي الله عنه وبيّن فضله، وأشار إلى تخيير الله له بين الدنيا والآخرة واختياره الآخرة[٢].

وكانت آخر خطبة له ﷺ قبل موته بخمس ليال، وقال فيها ﷺ: «**إن عبداً عُرضت عليه الدنيا وزينتها فاختار الآخرة**»، ففطن أبو بكر إلى أنه يقصد نفسه، فبكى.. وتعجّب الناس منه إذ لم يدركوا ما فطن له.

وكشف ﷺ في صلاة الفجر يوم وفاته ستر حجرة عائشة رضي الله عنها ونظر إلى المسلمين وهم صفوف، ثم تبسّم وضحك وكأنه يودِّعهم...

ثانياً ـ ومضات من العمر المديد:

هكذا تطوي الحياة عُمُراً مديداً بدأ بدايته الحقيقية حين أنار جبريل عليه السلام على نبينا ﷺ غار حراء، حين دوّت كلمة ﴿ٱقْرَأْ﴾ في أذنيه، وخرج بها فزعاً مذعوراً من الغار، حين كانت مكة تغص بوثنياتها وشركياتها، وانتهت باليوم الذي يرى فيه محمد ﷺ الأمة التي جاهد من أجلها وهي تقف خلف إمام واحد، عبر تاريخ طويل من الجهاد والنضال..

---

(١) رواه البخاري. (٢) رواه البخاري.

فيا لله ما أعذب التاريخ لمن قرأه متأمِّلاً. . . لكأنّي والله وأنا أكتب هذه الأسطر أرى نبينا ﷺ في سوق عكاظ ومجنة، يطارد أولئك الناس وهو يردد: «**يا أيها الناس! قولوا: لا إلٰه إلا الله؛ تفلحوا!**».

والله لكأنّي به وسلى الجزور على رقبته. .

وابن عبد ياليل يقول له: أما وجد الله غيرك يرسله؟! . .

والله لكأني به يوم أُحد وقد كسرت رباعيته، وغارت حلقات المغفر في وجنته، وسالت الدماء على وجهه! . .

والله لكأني به بالأمس القريب وهو يصاول قريشاً في صلح الحديبية، ويوم حنين إذ يركض على بغلته.

فيا لله، ما أجمل التاريخ! ما أروع أيامه! هذه نهاياته! الرحلة الطويلة التي قال فيها النبي ﷺ من وطأة الجهاد، وشدة الجور عليه؛ قال فيها: «**لن يفلح قوم شجّوا وجه نبيهم!**» إلى الساعة التي تمتلئ عينه فرحاً وحبوراً برؤية أولئك المعارضين بالأمس وهم يقتدون بأمره، ويجهدون في إرضائه، ويسلكون طرائقه وسننه! .

يا أيها الدعاة! يا أيها السالكون طرق الأنبياء! هذه الصورة التي تملأ أعينكم اليوم وأنتم تقرؤون أخبارها هي صورة قريبة لآحادكم، صورة يمكن أن يراها الدعاة بشرط واحد؛ حين يكتبون بإخلاصهم وجهدهم ومشقتهم بعض آثار الأنبياء! . .

ولا يهولنّكم معاشر الدعاة حالة النفور التي تعيشها مجتمعاتكم، فليست والله تماثل أيام نبيكم، ولن تكون، لكنها الهمم، وآمال الرجال، وتاريخ يكتبه الأوفياء. .

اللهم يا حي يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام، يا مالك الملك شُدَّ

على عزائمنا، وألهمنا رشدنا، وارزقنا الصبر للوصول إلى غاياتنا.. إنك على كل شيء قدير.

ثالثاً ـ وفاته ﷺ:

لما رأى المسلمون ضحكه افتتنوا فرحاً بخروجه، وتأخّر أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فأشار إليهم ﷺ أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر، ودخلت عليه فاطمة رضي الله عنها فقالت: واكرب أبتاه، فقال ﷺ: «**لا كرب على أبيك بعد اليوم**»[١].

وكان في لحظات الموت وسكراته مستنداً إلى صدر زوجه الصدِّيقة عائشة رضي الله عنها، فلمّا دخل عليه عبد الرحمن بن أبي بكر كان بيده سواك، فجعل رسول الله ﷺ ينظر إليه، فقالت عائشة: آخذه لك، فأشار برأسه: أن نعم، فأخذته ثم قضمته، ثم طيَّبته، فاستنَّ به رسول الله ﷺ[٢].

وكان يدخل يده في إناء ويقول: «**لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات**»[٣]، ثم أخذته بحَّة وهو يقول: «**مع الذين أنعم الله عليهم**»[٤].. ويقول: «**اللهم في الرفيق الأعلى**»[٥].

وأخيراً قُبض ﷺ ورأسه في حجْر عائشة، حين اشتد الضحى، وقيل: عند زوال الشمس، مات ﷺ في يوم الإثنين الثالث عشر من ربيع الأول، وقيل: في الثاني من شهر ربيع الأول، وكان عمره ثلاثاً وستين سنة.

---

(١) رواه البخاري.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه البخاري.
(٤) رواه البخاري.
(٥) رواه البخاري.

رابعاً ـ موقف الصِّدِّيق رضي الله عنه:

كان أبو بكر رضي الله عنه غائباً في السنح، فدخل وقد ودَّع نبي الله تعالى ﷺ الدنيا، لقد رحل خليله، وخلّف أيام الدنيا إلى لقاء الجنان.

دخل رضي الله عنه فكشف عن وجهه وكان مسجّى بثوب، ثم أكبّ عليه، وقبَّله، وخرج إلى الناس وهم في حالة وجوم كبير، بين مصدّق ومكذّب.

خرج فإذا بالملهم الفاروق، النحرير، البطل، المقدام، يهتز لأول مرة في تاريخه، يهتز ويطيش في رأيه، خرج إليه وقد رآه يكلّم الناس منكراً موت النبي ﷺ... إنها لحظة تتوهّج فيها مشاعر الوجدان إلى درجة الجنون!... إنها لحظة تنتفض فيها مشاعر الحب! ولحظة يغيب فيها الوحي! ولحظة تختل فيها المعاني الكبار، إنها لحظة فراق أعظم نبي!..

وقف أبو بكر رضي الله عنه في المسجد أمام الناس، وعمر يهز سيفه، من يا ترى يخالف عمر فيعلن موت حبيبه؟! إن أمه لم تلده بعد، ولسان عمر يقول: أيوارى من أخرجنا من ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام؟! كلا!.. أيموت من أنار الله به لنا طريق العزة والكرامة؟! كلا!.. أيرحل من عاش الدهر كله يحارب عنَّا، ويجهد من أجلنا؟! كلا!.. آه يا دنيا ما أحقرك! آه يا دنيا ما أقلَّك في عيون المتدبرين! آه يا دنيا يكفي كمداً هذا الذي نراه اليوم...

اجتمع الناس.. وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه كلمة الفصل:

«أما بعد: فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت»، وتلا قول الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

آيات تتلى وكأنها أول مرة تلامس شغاف القلوب، سكن الناس، وجلس عمر ﷺ على الأرض عجزت قدماه أن تحمله حين سماع الحقيقة المرَّة.

قالت فاطمة ﷺ: «يا أبتاه أجاب ربّاً دعاه، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه».

خامساً ـ رحل الرسول ﷺ وبقي أعظم منهج:

رحل رسول الله محمد ﷺ بعد أن بقي على وجه الأرض ثلاثة وستين عاماً، رحل ﷺ بعد أن ظل ثلاثة وستين عاماً مثالاً في كل شيء، رحل نبي الله ﷺ بعد أن ترك جيلاً على الحق قائماً به إن شاء الله تعالى إلى قيام الساعة.

إن الرحلة قد تطول لكنها حتماً ستأتي إلى نهاية، وإذا أدركنا ذلك بذلنا أعظم الأسباب لتحقيق أروع الغايات! ألا ما أجبن الضعفاء الكسالى حين يصحون وأرواحهم ترحل من تاريخ الحياة الطويل!.. ألا ما أرذل حياة يجنيها القاعدون حين يتركون دنياهم للمستخلفين!.. ألا ما أروع الحياة حين نرحل ونحن بمثل هذه المعاني من العزة والكرامة والفوز والتوفيق. والله المستعان..

انطفأ الرجل الذي جاء بالنور، ولم ينطفئ النور بعد، رحل أعظم رسول في عالم الأرض وبقي أعظم منهج في تاريخ البشر!.

صحيح أن الدمع لا يكاد يتوقف حين سماع هذا الرحيل، لكنَّ إيمان الإنسان بقدر الله تعالى أثمن عنده من بكاء لا يجدي.

من عظمة هذا الدين أنه لم يُربط بأشخاص يرحل معهم أو يبقى

بمعيتهم، كلا! حتى ولو كان هؤلاء الأشخاص رسل الله تعالى في الأرض.

إن عظمته الحقيقية في أنه صالح لكل زمان ومكان، صالح لكل إنسان، ولا يشترط لصلاحه حياة الأشخاص أو موتهم.. كلا!.

سادساً ـ وأخيراً:

هذه آخر صفحة عملية في سيرة ذلك النبي الكريم ﷺ يخطُّها قلمي، وآخر أسطر يسوّدها حبري، هذه آخر صفحة في عالم القدوة، والمُثل، والمعاني، والقيم.. آخر صفحة في معاني حياة القادة العظماء...

إنني كتبت هذه السيرة وأنا أزعم أنني أنتزع أسطرها من قلبي، فأحلِّق فرحاً في مواضع الأفراح، وأجهش بالبكاء في ساعات الأتراح..

إنني أشبه ما يكون بالقزم الذي يطاول البنيان ليرى ما وراءه، وبينه وبين الجدار آمال لا تقطعها آمال الرجال، لقد تطاولت كثيراً، وحاولت أن أرى بعضاً من معالم تلك السيرة، وبقيت عاجزاً عن الكثير...

وعذري الوحيد أنني محب!..





الفصل التاسع والثلاثون

شمائله ﷺ

أعظم ما يميز الأنبياء أنهم قدوة مطلقة في كل شيء، قدوة للحياة الكريمة الفاضلة التي يعيشها الإنسان على ظهر الأرض.. ولا مجال لمخلوق اليوم أيّاً كان للوصول إلى المثل والقيم والمبادئ والحياة الكبيرة إلا من خلال هؤلاء، أمناء الله تعالى على وحيه..

وعلى رأس هؤلاء، وفي مقدِّمتهم، وكبيرهم في المثُل والقيم والمعالي: نبينا ﷺ، وكل مؤمن اليوم يريد أن يعيش حياته لا بد أن يقرأ سيرته ﷺ بإمعان، وعلى قدر التأسي تكون النهايات الكبيرة..

إن شمائل النبي ﷺ هي أخصب مواطن القدوة لكل إنسان، فقد تكون حياة الغزوات والجهاد له، وهي فئة بعينها ـ وهي التي تخوض روح الإصلاح والجهاد والتربية ـ أما حياته ﷺ الباقية فهي الأكثر، والمكان الأرحب للقدوة من عامة الناس..

وهي بحاجة إلى قراءة تأملية تبحث عن مواطن الاقتداء لتأتسي!..

وهذا الجزء من السيرة هو الجزء الذي يشترك فيه عامة الناس لا فرق!..

فإليك ما جادت به الذاكرة، ودوَّنه القلم..

❁ ❁ ❁

□ المبحث الأول

هدي النبي ﷺ في الطعام

أولاً ـ ما عاب طعاماً قط:

كان ﷺ: لا يرد موجوداً، ولا يتكلّف مفقوداً، فما قُرّب إليه شيء من الطيبات إلا أكله، إلا أن تعافه نفسه، وما عاب طعاماً قط؛ إن اشتهاه أكله وإلا تركه، ولو لم يُكتب في هديه في هذا المقام إلا هذه الجملة لكانت نوراً ساطعاً في سمائه المتلألئة ﷺ.. ويكفي قرّاء سيرته هذه الجملة من حياته ﷺ في طعامه.

قال ابن القيم رحمه الله: ولم يترك ﷺ من الأكل سوى الضب فإنه لم يأكله، وقال: «**أجدني أعافه**»، وكان يعجبه من اللحم الذراع(١)، وأكل الدّباء المطبوخة، وكان يحبها(٢)، وكان يُحب الحلواء والعسل(٣)، وأوصى ﷺ بأكل الزيت، فقال: «**كلوا الزيت، وادّهنوا به فإنه من شجرة مباركة**»(٤).

وكان ﷺ يأكل القثّاء بالرطب(٥)، وكان يأكل البطيخ بالرطب، وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: رأيت رسول الله ﷺ يجمع بين الخربز والرطب(٦).

---

(١) متفق عليه. (٢) رواه مسلم.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه الترمذي، وحسنه الألباني.

(٥) متفق عليه، و**القثاء**: يشبه الخيار، ولكنه أكبر منه.

(٦) رواه الإمام أحمد والنسائي، وصححه الألباني.

ثانياً ـ يأكل ما تيسَّر:

لم يكن ﷺ يردُّ طيباً ولا يتكلّفه، بل كان هديه أكل ما تيسر، فإن أعوزه صبر؛ حتى إنه ليربط على بطنه الحجر من الجوع، ويُرى الهلال، والهلال، والهلال، ولا يوقد في بيته نار لطعام..

ثالثاً ـ كيفية أكله ﷺ:

وكان معظم مطعمه ﷺ يوضع على الأرض في السُّفرة وهي كانت مائدته، وكان يأكل بأصابعه الثلاث، ويلعقها إذا فرغ[(١)].

كان ﷺ لا يأكل متَّكئاً، وكان يسمي الله تعالى عند أول طعامه، ويحمده في آخره، وكان إذا فرغ من طعامه لعق أصابعه، وكان أحب الشراب إلى رسول الله ﷺ الحلو البارد[(٢)]، وكان أكثر شربه قاعداً، وزجر عن الشرب قائماً، وشرب مرة قائماً..

قال ابن القيّم رحمه الله: «والصحيح أن الشرب قائماً منهي عنه، وما حصل دليل على جواز الشرب قائماً لعذر يمنع من القعود، وكان إذا شرب ناول من على يمينه وإن كان من على يساره أكبر منه، وكان إذا شرب تنفّس خارج الإناء ثلاثاً ويقول: **هو أمرأ وأروى**». اهـ.

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخلت مع رسول الله ﷺ أنا وخالد بن الوليد على ميمونة، فجاءتنا بإناء من لبن، فشرب رسول الله ﷺ وأنا على يمينه، وخالد عن شماله، فقال لي: «**الشربة لك، فإن شئت آثرت بها خالداً**» فقلت: ما كنت لأؤثر على سؤرك أحداً.. ثم قال ﷺ: «**من أطعمه الله طعاماً فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وأطعمنا خيراً منه**»..

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني.

ثم قال ﷺ: «**ليس شيء يجزئ مكان الطعام والشراب غير اللبن**»[١].

رابعاً ـ قلة طعامه ﷺ:

في حديث مالك بن دينار قال: «ما شبع ﷺ من خبز قط، ولا لحم إلا على ضَفَفٍ»[٢].

وقال النعمان بن بشير رضي الله عنه: «لقد رأيت نبيكم ﷺ وما يجد من الدَّقل ما يملأ بطنه»[٣].

وقالت عائشة رضي الله عنها: «إن كنّا آل محمد نمكث شهراً ما نستوقد بنار، إن هو إلا التمر والماء»[٤].

وفي حديث عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «**نعم الإدام الخل**»[٥].. هذه سيرته في أكله وشربه.

خامساً ـ الطعام والعظماء:

وقد قال القاضي عياض رحمه الله: «وما تدعو ضرورة الحياة إليه فعلى ثلاثة ضروب.. ضرب الفضل في قلَّته... فأما ما التمدّح والكمال بقلّته اتفاقاً، وعلى كل حال، عادة وشريعة؛ كالغذاء والنوم، ولم تزل العرب والحكماء تتمادح بقلَّتهما وتُذم بكثرتهما، لأن كثرة الأكل والشرب دليل على النهم والحرص والشرَه.. وغلبة الشهوة مسبب لمضار الدنيا

---

(١) رواه ابن ماجه والترمذي، وحسنه الألباني.

(٢) قال الألباني: إسناده مرسل صحيح، ومعنىٰ الحديث: أنه ما شبع في زمن من الأزمان إلا إذا نزل به الضيف، فيشبع حينئذ لضرورة الإيناس والمجابرة.

(٣) رواه مسلم. **والدقل**: رديء التمر.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه مسلم.

والآخرة، جالب لأدواء الجسد، وخثارة النفس، وامتلاء الدماغ. . وقلّته دليل على القناعة، وملك النفس، وقمع الشهوة، مسبب للصحة، وصفاء الخاطر، وحدَّة الذهن. . . والشاهد على هذا ما يُعرف ضرورة، ويوجد مشاهدة، وينقل متواتراً. . .

قال سفيان: بقلَّة الطعام يملك سهر الليل. .

وفي حكمة لقمان: يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة.

وقال سحنون: لا يصلح العلم لمن يأكل حتى يشبع». اهـ.

وأنت ترى أن العظماء بحق هم الذين لا يخرجون بأمزجتهم عن أحوال الناس العامة، ما دامت على الهدي ولم تبعد عنه، وإنما ورد التفكّه بمثل ما نراه اليوم لأن النفوس حملت غوائل كبيرة من الكبر في صدورها، وهي تحاول جاهدة أن تخفيها، لكن الأحوال تسيطر عليهم فتكشفها، وهي غير راضية عنها.

في أزماننا هذه تصدّعت كثير من البيوت، وتفرقت كثير من الأحوال بأسباب الطعام والكساء والشراب، وفي زمن نبينا ﷺ لم تكن علامة على وفاء، ولا دليلاً على أنس ورخاء. . . لذا لم يعرْها النبي ﷺ شيئاً من اهتمامه.

إن القادة الحقيقين يملكون زمام شهواتهم كثيراً، ولا يرضون أن تكون التوافه علامات فارقة في حياتهم البتة، وغيرهم يعيش لبطنه قد بات مثقلاً بلحمه ودمه.

كم من بيوت تصدَّعت لغداء لم يكن جاهزاً في وقته؟! أو عشاء تأخّر عن موعده وزمنه؟! ورسولنا ﷺ: كان لا يرد موجوداً، ولا يتكلّف

مفقوداً، فما قُرّب إليه شيء من الطيبات إلا أكله، إلا أن تعافه نفسه، وما عاب طعاماً قط، إن اشتهاه أكله وإلا تركه...

إن الإغراق في الملاذِّ من الأثقال التي تحول بالنفس حول الأرض، والتخفف منها يرحل بالنفس إلى ملكوت السماء.. وأنت أعلم أن التوسع في المباحات عقبة يرصدها الشيطان على طريق المصلحين إن فاتهم، أو فاتوه في طريق المعالي. والله المستعان..

❁ ❁ ❁

□ المبحث الثاني

هديه ﷺ في اللباس

أولاً ـ صفة لباسه ﷺ:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان ﷺ يلبس العمامة، وكان إذا اعتمَّ أرخى عمامته بين كتفيه، ولبس القميص وكان أحب الثياب له، ولبس الإزار والرداء، وكانت إزرته إلى أنصاف ساقيه، وأخذ بعضلة ساق حذيفة فقال: «**هذا موضع الإزار**»، وقيل: أخذ بعضلته، وقال: «**هذا موضع الإزار؛ فإن أبيت فأسفل، فإن أبيت فلا حق للإزار في الكعبين. .**».

ولبس ﷺ حُلَّة حمراء، وليس هذا من الأحمر الخالص، وإنما هو لباس مخطط بأحمر.

ولبس البيضة التي تسمى الخوذة، ولبس الدرع التي تسمى الزردية، وظاهر يوم أُحد بين درعين.

وكان قميصه من قطن، وكان قصير الطول، قصير الكمَّين، وكان أحب الثياب إليه القميص والحِبَرَة، وهي نوع من البرود ـ الثياب ـ فيه حمرة، وكان أحب الألوان إليه البياض.

ولبس خاتماً من ذهب ثم رمى به، ونهى عن التختّم بالذهب، ثم اتخذ خاتماً من فضة. وكان يجعل فُصَّ خاتمه مما يلي باطن كفه، وكان نقشه: **محمد** سطر، و**رسول** سطر، و**الله** سطر، وقد قيل له لما كتب إلى كسرى وقيصر والنجاشي: إنهم لا يقبلون كتاباً إلا بخاتم، فصاغ خاتماً

من فضة، وقد صحَّ أنه يختم به ولا يلبسه، وصحَّ كذلك: أنه كان يتختّم به في يمينه.

وكان غالب ما يلبس ما نسج من القطن، ويلبس كذلك ما نسج من الصوف والكتّان، وكان هديه في اللباس أن يلبس ما تيسر سواء كان من الصوف أو القطن أو الكتان، وهذا دأبه ﷺ في سائر حياته وليس في ثيابه فقط، ومن عاش هذا العيش صار إلى خير. والله المستعان..

وكان إذا استجدَّ ثوباً؛ سماه باسمه، وقال: «**اللهم أنت كسوتني هذا القميص أو الرداء أو العمامة: أسألك خيره، وخير ما صنع له، وأعوذ بك من شره ومن شر ما صنع له**».

وكان إذا لبس قميصه بدأ بميامنه، وكانت مخدَّته من أدم حشوها ليف». اهـ.

ثانياً ـ أسرار التواضع في اللباس:

أنت ترى من خلال هذه السيرة العذبة أنه لم يكن له لباسٌ مشهورٌ يُعرف به، وإنما يلبس عامة ما يلبسه أهل زمانه ﷺ، وفي ذلك من أسرار التواضع والرضا ما ينبئك عن حال العظماء في أزمانهم.

لم يكن الثوب ولن يكون في يوم من الأيام دليلاً على موروث ثقافي أو نسب ديني، وإنما الناس بما في قلوبها من الإيمان والاستقامة!..

ورأيت في أزماننا أقزاماً يحاولون أن يرتفعوا على الناس بنوع من الألبسة المخالفة، وما عرفوا أنهم يزدادون قصراً مع تطاول الأيام. والله المستعان..

❁ ❁ ❁

◻ المبحث الثالث

هديه وسيرته ﷺ في نومه وانتباهه

أولاً ـ صفة نومه ﷺ:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «كان ينام على الفراش تارة، وعلى الحصير تارة، وعلى السرير تارة، وكان فراشه ﷺ أدَماً حشوُه ليف.

وكان إذا أوى إلى فراشه للنوم قال: «**باسمك اللهم أموت وأحيا**»[١] وكان يجمع بين كفيه ثم ينفث فيهما، وكان يقرأ فيهما: قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه، ووجه، وما أقبل من جسده.. يفعل ذلك ثلاث مرات[٢].

وكان ينام على شقِّه الأيمن، ويضع يده اليمنى تحت خده الأيمن ثم يقول: «**اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك**»[٣].

وكان يقول إذا أوى إلى فراشه: «**الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي**»[٤].

وكان إذا انتبه من نومه قال: «**الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا**

---

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه الترمذي، وصححه الألباني.

(٤) رواه مسلم.

وإليه النشور»[١] ثم يتسوّك، وربما قرأ العشر الآيات من آخر آل عمران من قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ. . .﴾ [آل عمران: ١٩٠] إلى آخرها.

وكان ينام أول الليل، ويقوم آخره، وكان تنام عيناه ولا ينام قلبه، وكان إذا نام لم يوقظوه حتى يكون هو الذي يستيقظ». اهـ.

ثانياً ـ كان ﷺ أنموذجاً للذاكرين، والقدوة الحية:

وأنت ترى كذلك اليسر الذي كان عليه النبي ﷺ في نومه، فلا يتكلّف ﷺ سريراً معيّناً، ولا يتطلّب نوعاً معيناً، بل ما تهيأ له أخذه، وما لم يتهيأ تركه غير متأسّف عليه، وكان كذلك على صلة بربه تبارك وتعالى فلا ينام حتى يذكر ربه تبارك وتعالى، ويتحصّن بالأدعية، وكذلك إذا استيقظ من نومه، وحياته كلها كانت أنموذجاً للذاكرين.

وعلى القادة أن يدركوا أن الدعوة قبل أن تكون أحاديث منمّقة منسّقة هي عمل وقدوة حية، ومن لم يكن على صلة بربه تبارك وتعالى كنبيه ﷺ سقط في جنبات الطريق. والله المستعان. .

وقد قال القاضي عياض رحمه الله منبهاً على أن قلَّة النوم مما يتمادح العرب والحكماء بقلَّته، قال: «كما أن كثرة النوم دليل على الفُسُولة والضعف وعدم الذكاء والفطنة، فهو مسبب للكسل وعادة العجز وتضييع العمر في غير نفع، وقساوة القلب وغفلته وموته، والشاهد على هذا ما يُعلم ضرورة، ويوجد مشاهدة، وينقل متواتراً، وكان النبي ﷺ قد أخذ من هذا بالأقل، وكان نومه على جانبه الأيمن استظهاراً على قلَّة النوم،

(١) رواه البخاري، ومسلم.

لأنه على الجانب الأيسر أهنأ لهدوء القلب وما يتعلّق به من الأعضاء الباطنة حينئذ لميلها إلى الجانب الأيسر، فيستدعي ذلك الاستثقال فيه والطول. . وإذا نام النائم على الجانب الأيمن تعلّق القلب، وقلق فأسرع الإفاقة ولم يغمره الاستغراق». اهـ.

❁ ❁ ❁

□ المبحث الرابع

هديه ﷺ في معاملاته

أولاً ـ كان ﷺ أحسن الناس معاملة:

قال ابن القيم رحمه الله: (باع ﷺ واشترى، وكان شراؤه بعد أن أكرمه الله تعالى بالرسالة أكثر من بيعه، وكذلك بعد الهجرة لا يكاد يُحفظ عنه البيع إلا في قضايا يسيرة أكثرها لغيره، وأما شراؤه فكثير. .

وآجر، واستأجر، واستئجاره أكثر من إيجاره، وإنما يحفظ عنه ﷺ أنه أجّر نفسه قبل النبوة في رعاية الغنم، وأجّر نفسه من خديجة في سفره بمالها إلى الشام.

ووكّل ﷺ، وتوكّل، وكان توكيله أكثر من توكّله، وأهدى ﷺ، وقبل الهدية، وأثاب عليها، ووهب، واتهب، واستدان ﷺ برَهن، واستدان بغير رَهن، واستعار، واشترى بالثمن الحال، والثمن المؤجّل، وضمن ضماناً خاصّاً على ربّه على أعمال من عملها كان مضموناً له بالجنّة، وضماناً عامّاً لديون من تُوفّي من المسلمين، ولم يدع ﷺ وفاءً لمن هي عليه وهو يوفيها إلا وفَّاها، ووقف ﷺ أرضاً كانت له جعلها صدقة في سبيل الله تعالى.

وكان ﷺ أحسن الناس معاملة، وكان إذا استسلف سلفاً قضى خيراً منه، وكان إذا استسلف من رجل سلفاً قضاه إياه، ودعا له فقال: «**بارك الله لك في أهلك ومالك، إنما جزاء السلف الحمد والأداء**».



واقترض ﷺ بعيراً فجاء صاحبه يتقاضاه فأغلظ للنبي ﷺ، فهمَّ به أصحابه فقال: «**دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً**». اهـ.

ثانياً ـ سيد البشر:

وهل هو ﷺ إلا بشر من الناس! إن صاحب الرسالة بشر من الناس يعيش كما يعيشون، يبيع ويشتري كما يبيع غيره ويشتري! لكن كل ذلك معقود بالأصل العظيم في سير هؤلاء؛ من جعل الدنيا في أيديهم يفعلون كما يفعل الناس ثم لا يلوون عنقاً على فائت، أو يحزنون على مفقود! والله المستعان..



□ المبحث الخامس

هديه ﷺ في يمينه وشفاعته

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «حلف ﷺ في أكثر من ثمانين موضعاً، وأمره الله تعالى بالحلف في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم، وكان يستثني في يمينه تارة، ويكفّر تارة، ويمضي فيها تارة.

وتشفَّع ﷺ وشُفِّع إليه، وردَّت بريرة شفاعته في مراجعتها مغيثاً، فلم يغضب عليها، ولا عتب.. وهو الأسوة والقدوة ﷺ». اهـ.



□ المبحث السادس

هديه ﷺ في المزاح

أولاً ـ يمزح ولا يقول إلا حقّاً:

كان ﷺ يمازح، ولا يقول في مزاحه إلا الحق، مازح ﷺ خادمه أنس بن مالك رضي الله عنه فقال: **«يا ذا الأذنين»**[(١)].

وقد رأى أخاً لأنس بن مالك مات عصفور صغير كان معه، فقال له: **«يا أبا عمير! ما فعل النغير؟!»**[(٢)].

وسأله رجل أن يحمله على دابة، فقال ﷺ: **«إنّا حاملوك على ولد الناقة»**، فقال: يا رسول الله! ما أصنع بولد الناقة؟ فقال ﷺ: **«وهل تلد الإبل إلا النوق»**[(٣)].

وقد وجد ﷺ يوماً زاهراً ـ وهو رجل من أهل البادية يبيع متاعاً له ـ فاحتضنه النبي ﷺ من خلفه وهو لا يبصر، فقال: من هذا؟ أرسلني، فالتفت فعرف النبي ﷺ فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي ﷺ حين عرفه، فجعل النبي ﷺ يقول: **«من يشتري هذا العبد؟»** قال: يا رسول الله! إذاً والله تجدني كاسداً ـ وكان رضي الله عنه دميماً ـ فقال ﷺ: **«لكن عند الله لست بكاسد ـ أو قال: أنت عند الله غالٍ»**[(٤)].

---

(١) رواه الترمذي وأبو داود، وصححه الألباني.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه الترمذي، وصححه الألباني.

(٤) رواه الترمذي، وقال ابن كثير: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وصححه الحافظ ابن حجر، والألباني.

وجاءته ذات مرة عجوز فقالت: يا رسول الله! ادع الله أن يدخلني الجنة، فقال: «**يا أم فلان! إن الجنة لا تدخلها عجوز**» قال: فولّت تبكي، فقال: «**أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز؛ إن الله تعالى يقول:** ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٥ ـ ٣٧]»(١).

ثانياً ـ الجمع الرائع بين الجدية والمزاح:

وهل يمازح الأنبياء؟! أو يجدون في أوقاتهم فسحة لمداعبة الآخرين؟! إن نبينا ﷺ يضرب أروع الأمثلة في الجمع بين حياة الجدِّية التي كان يتمثلها في أروع معانيها، وبين الفسحة التي يجدها في نفسه فتفيض على الآخرين في أوقات كثيرة من المزاح والمداعبة في أسمى صورها.

إن الجمع بين هاتين الصورتين في نفس الوقت هو أكبر دليل على قدرة القادة والمصلحين على التوسّع لكل الناس في ظروف الرخاء والشدة على حدٍّ سواء.

وبات كثير من المؤتسين بسيرة هذا النبي الكريم ﷺ يقتبس من نبيِّه في جوانب على حساب جوانب أخرى، ويشطّر السيرة نصفين، فيخرج إلى الناس في صورة مؤتسٍ بنبيِّه ﷺ وهو يشوّه هذه الصورة، ويبعثر اتساقها، وتراه إما ذاك المتجهّم المكفهر، أو ذاك المازح المبتذل، وقمة الاقتداء حقّاً في الجمع بين الصورتين في آن واحد. والله المستعان..



(١) رواه الترمذي، وحسنه الألباني.

□ المبحث السابع

هديه ﷺ في كلامه، وضحكه وبكائه

أولاً ـ الكلام الفصل:

قالت عائشة رضي الله عنها: «ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسردكم، ولكنه كان يتكلم بكلام بيّن فصل، يحفظه من جلس إليه»[١].

وقال أنس رضي الله عنه: «كان ﷺ يعيد الكلمة ثلاثاً لتُعقل عنه»[٢].

ثانياً ـ كان ﷺ دائم البِشْر:

قال عبد الله بن الحارث رضي الله عنه: «ما رأيت أحداً أكثر تبسّماً من رسول الله ﷺ»، وفي طريق أخرى: «ما كان ضحك رسول الله ﷺ إلا تبسماً»[٣].

وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: «فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه»[٤].

وفي حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: «ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا ضحك»، وفي رواية: «إلا تبسّم»[٥].

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه الترمذي، وصححه الألباني.

(٤) رواه مسلم.

(٥) متفق عليه.

ثالثاً ـ حياته مع الشعر:

قيل لعائشة رضي الله عنها: هل كان رسول الله ﷺ يتمثّل بشيء من الشعر؟ قالت: كان يتمثّل بشعر ابن رواحة[١]:

وفينا رسول الله يتلو كتابَه إذا انشقَّ معروفٌ من الفجر ساطعُ
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبُنا به موقناتٌ أن ما قال واقعُ
يبيتُ يجافي جنبَه عن فراشه إذا استقلّتْ بالكافرين المضاجعُ

وكان يتمثّل كذلك بقول القائل: **ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد.**

وقال ﷺ: «**أصدق كلمة قالها شاعر: كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطلُ، وكاد أمية بن أبي الصلت أن يُسلم**»[٢].

وفي حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: «جالست النبي ﷺ أكثر من مئة مرة، وكان أصحابه يتناشدون الشعر، ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت وربما تبسّم معهم»[٣].

ودخل ﷺ مكة في عمرة القضاء وابن رواحة بين يديه وهو يقول:

خلُّوا بني الكفَّارِ عن سبيلِهِ اليومَ نضربُكم على تنزيلِهِ
ضرباً يُزيل الهامَ عن مقيلِهِ ويُذْهلُ الخليلَ عن خليلِهِ

فقال له عمر: يا بن رواحة! بين يدي رسول الله ﷺ، وفي حرم الله تقول الشعر؟!.

فقال ﷺ: «**خَلِّ عنه يا عمر! فلهي أسرعُ من نضح النبل**»[٤].

---

(١) رواه الترمذي، وحسنه الألباني.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه الترمذي، وصححه الألباني.
(٤) رواه الترمذي، وصححه الألباني.

وفي حديث عمرو بن الشريد، عن أبيه، قال: كنت ردف النبي ﷺ فأنشدته مئة قافية من قول أمية بن أبي الصلت الثقفي، كلما أنشدته بيتاً قال لي النبي ﷺ: «**هِيهِ**»، فقال ﷺ: «**إن كاد ليسلم**»(١).

وكان ﷺ يضع لحسان بن ثابت منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً، يفاخر عن رسول الله ﷺ ويقول: «**إن الله تعالى يؤيد حسّان بروح القدس ما ينافح أو يفاخر عن رسول الله ﷺ**»(٢).

رابعاً ـ بكاؤه ﷺ:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وأما بكاؤه فكان من جنس ضحكه لم يكن بشهيق ورفع صوت، كما لم يكن ضحكه بقهقهة ولكن كانت تدمع عيناه حتى تهملا، ويسمع لصدره أزيز، وكان بكاؤه تارة رحمة للميت، وتارة خوفاً على أمته وشفقة عليها، وتارة من خشية الله، وتارة عند سماع القرآن، وهو بكاء اشتياق ومحبة وإجلال مصاحب للخوف والخشية، ولما مات ابنه ابراهيم دمعت عيناه وبكى رحمة له، وبكى لمَّا شاهد إحدى بناته ونفسها تفيض، وبكى لمَّا قرأ عليه ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سورة النساء وانتهى فيها إلى قوله: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا**﴾ [النساء: ٤١]، وبكى لمّا مات عثمان بن مظعون، وبكى لمّا كسفت الشمس، وصلى صلاة الكسوف وجعل يبكي ويقول: «**رب ألم تعدني ألا تعذبهم وأنا فيهم وهم يستغفرون، ونحن نستغفرك**». وبكى لمّا جلس على قبر إحدى بناته، وكان يبكي أحياناً في صلاة الليل». اهـ.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الترمذي وأبو داود، وصححه الألباني.

ومن تأمل هذه السيرة أدرك فعلاً أن هذا النبي ﷺ لم يخرج بمزاجه عن الناس إلا أنه كان له الكمال في كل شيء، إنه بشر من الناس تخنقه العبرة فيبكي، ويؤثّر فيه الوعيد فيبكي!.. تنساب دمعته على وجنتيه كما تنساب على وجوه كثير من الناس من أمته! فهذه بعض مراسم القدوة في حياته، وكل يأخذ على قدر حبِّه ونهمه في سيرة نبيه ﷺ، والله المستعان..



□ المبحث الثامن

هديه ﷺ في النكاح ومعاشرة أهله

أولاً ـ حسن عشرته ﷺ لنسائه:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أفضل هذه الأمة أكثرها نساءً»[(١)]، يشير إليه ﷺ..

ونهى ﷺ عن التبتل مع ما فيه من قمع الشهوة وغض البصر.. قال سهل بن عبد الله: «قد حُبّبن إلى سيد المرسلين؛ فكيف يزهد فيهن؟!» .اهـ.

وقال القاضي عياض رحمه الله: «... والضرب الثاني: ما يتفق المدح بكثرته، والفخر بوفوره؛ كالنكاح، وهو متفق عليه شرعاً وعادة، فإنه دليل الكمال، وصحة الذكورية، ولم يزل التفاخر بكثرته عادة معروفة، والتمادح به سيرة ماضية، وأما في الشرع فسنَّة مأثورة». اهـ.

صح عنه من حديث أنس رضي الله عنه: أنه ﷺ قال: «**حُبّب إليّ من دنياكم الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة**»[(٢)].

وكان ﷺ حسن العشرة لنسائه؛ حتى إنه ﷺ كان يحب الطيب. وكان له ﷺ سُكّة يتطيّب منها[(٣)]، وكان لا يرد الطيب[(٤)].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه النسائي، وصححه شعيب وعبد القادر الأرناؤوط.

(٣) رواه أبو داود، وصححه الألباني.

(٤) رواه الترمذي وأحمد، وصححه الألباني.

قال ابن القيّم رَحِمَهُ اللهُ: «وكان ﷺ يطوف على نسائه في الليلة الواحدة، وكان قد أعطي قوة ثلاثين في الجماع وغيره، وأباح الله له من ذلك ما لم يبحه لأحد من أمته، وكان يقسم بينهن في المبيت، والإيواء، والنفقة.. وأما المحبة فكان يقول: «**اللهم هذا قَسْمي في ما أملك، فلا تلمني في ما لا أملك**».. وطلّق ﷺ وراجع، وآلى إيلاء مؤقتاً بشهر، ولم يظاهر ﷺ البتة». اهـ.

وكانت سيرته ﷺ مع نسائه أعظم سيرة رواها التاريخ، فكان يسرّب إلى عائشة بنات الأنصار يلعبن معها، وكان إذا هويت شيئاً لا محظور فيه تابعها عليه، وكان إذا شربت من الإناء أخذه فوضع فمه في موضع فمها وشرب، وكان إذا تعرّقت عِرقاً ـ وهو العظم الذي عليه لحم ـ أخذه فوضع فمه موضع فمها، وكان يتكئ في حجرها، ويقرأ القرآن ورأسه في حجرها، وربما كانت حائضاً، وكان يأمرها وهي حائض فتتزر ثم يباشرها، وكان يقبلها وهو صائم.

وقد سابق زوجه عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في سفر، قالت: فسابقته فسبقته على رجليَّ، فلما حملت اللحم سابقته فسبقني، فقال: «**هذه بتلك السبقة**»[(١)].

وقالت رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «دخل عليّ ﷺ وعندي جاريتان تغنيان بغناء بُعاث، فاضطجع على الفراش وحوّل وجهه، ودخل أبو بكر فانتهرني، وقال: مزمارة الشيطان عند النبي ﷺ؟!.. فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: «**دعهما**»، فلما غفل غمزتهما فخرجتا... وكان يوم عيد يلعب السودان بالدرق والحراب، فإما سألت النبي ﷺ، وإما قال: «**تشتهين تنظرين؟**»

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني.

فقلت: نعم، فأقامني وراءه، خدي على خده، وهو يقول: «**دونكم يا بني أرفدة**» حتى إذا مللت قال: «**حسبك؟**» قلت: نعم، قال: «**فاذهبي**»[١].

ثانياً ـ عدله ﷺ بين نسائه:

وأعظم قضية قررها النبي ﷺ في حياته: العدل بين نسائه، فكان ﷺ أنموذجاً لهذا الجانب؛ حتى إنه كان يقسم بين نسائه في المبيت، والإيواء، والنفقة، ولمّا لم يكن له سبيل لضبط قلبه وفق هذا الناموس العظيم قال: «**اللهم هذا قسمي في ما أملك، فلا تلمني في ما لا أملك**»[٢].. حتى قالت عائشة رضي الله عنها: «كان ﷺ لا يفضّل بعضنا على بعض في القسم من مكثه عندها، وكان قل يوماً إلا وهو يطوف علينا جميعاً فيدنو من كل امرأة من غير مسيس حتى يبلغ إلى التي هو يومها فيبيت عندها»[٣].

وكان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه[٤]، ولم يقض للبواقي شيئاً.

وكان ﷺ يقول: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**»[٥].

بل وصل حاله مع نسائه إلى شيء من العذوبة والجمال حين يحكي لنا أنسٌ رضي الله عنه فيقول: «كان للنبي ﷺ تسع نسوة، فكان إذا قسم بينهن لا ينتهي إلى المرأة الأولى إلا في تسع، فكن يجتمعن كل ليلة في بيت التي

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أهل السنن، وصححه شعيب وعبد القادر الأرناؤوط.

(٣) رواه أبو داود، وصححه الألباني.

(٤) متفق عليه.

(٥) رواه الترمذي، وصححه الألباني.

يأتيها، فكان في بيت عائشة، فجاءت زينب فمد يده إليها، فقالت: هذه زينب، فكف النبي ﷺ يده، فتقاولتا حتى استَخَبَتَا[١]. .

إنها درجة عالية من الأنس الاجتماعي، وهذه هي البيوت التي يملأ جدرانها الحب، وتعشعش في أرجائها المودة، وتسعد فيها الأسرة، وإذا كان التعدد بمثل هذه الصور الرائعة فلا تحسب لأيام الفرح والسعادة في طولها، فإنه قد لا يتمكّن عادٌّ من رصد تلك الأيام الكثيرة الرائعة! . .

لقد أصبح التعدد شؤماً في حياة الكثيرين يوم أن ارتبط بأهواء وأمزجة فاسدة فرضها العامة والدهماء، لتصبح أنموذجاً منفّراً في حياة الكثيرين، فأصبح مجرَّد مرور الإنسان على زوجته التي ليست ليلتها تلك الليلة مجلبة للخصام والنزاع، واتسعت رقعة الخلاف لتشمل أطفالاً في مستقبل أعمارهم يصارعون من أجل الحياة الجميلة، فلا يجدون في وجوههم إلا صوتاً ظاهراً، وشقاقاً مستمرّاً، وكلاماً نابياً، فتباعدت الأفئدة، وقلَّ الارتباط الاجتماعي الذي كان يعيشه نبي الله ﷺ مع نسائه . .

ثالثاً ـ دروس من بيت النبوة:

لقد كان النبي ﷺ زوجاً كبقية الأزواج، يحصل في بيته الخلاف، والنزاع، لكن سرعان ما تطفئه تلك الأخلاقيات التي كان يتعامل بها ﷺ مع أزواجه . .

فالحقيقة التي لا يختلف فيها اثنان أن البيوت لا تخلو من خلل ومشكلات، **والبيوت الناجحة ليست هي البيوت التي تخلو من المشكلات، وإنما تلك التي تتعامل مع هذه المشكلات بنجاح،** فهذه

---

(١) رواه مسلم. **استَخَبَتَا**: من السخب، وهو اختلاط الأصوات وارتفاعها.

امرأة عمر رضي الله عنه راجعت زوجها مراراً فغضب الخليفة الفاروق، تراجعه امرأة من النساء، فالتفتت إليه لما رأته مغضباً وقالت له: أتنكر أن أُراجعك؟! فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل.. ففزع عمر وخرج يجمع ثيابه يتثبّت الخبر، ودخل على ابنته حفصة ـ زوج النبي ﷺ ـ فكانت هي الحقيقة ليس إلا؟!(١)..

نعم تغاضبه إحدانا وتهجره إلى الليل؟!.. نعم وهل هو إلا أحد الرجال؟!..

بل كان ﷺ من لطافته، وروعته، وجمال خُلّته يعرف هجر نسائه له، وغضبهن عليه، فها هو ﷺ يقول لعائشة رضي الله عنها أحب نسائه إليه: «**إنّي لأعلم إذا كنت عنّي راضية، وإذا كنت عليّ غضبى**» قالت: قلت: من أين تعرف؟ قال: «**أمّا إذا كنت عنّي راضية فإنك تقولين: لا ورب محمّد، وإذا كنت غضبى قلت: لا ورب إبراهيم**»، قالت الحبيبة العفيفة: أجل والله يا رسول الله! ما أهجر إلا اسمك(٢).

الله أكبر!.. كأن الغضب يتكرر، وكأن الهجر يمر أياماً في ساحات النبوة، وكأن أعظم من خطت قدمه على وجه الأرض يتعرّض لشيء من النفرة والهجران!.. نعم حتى إنه سبر الحال فعرف متى يكون! فهل تفقه هذه الأجيال تلك الرسالة؟! أم أنهم يريدون كائناً جامداً لا تحركه العواطف، ولا تستميله الأحداث!.. إذا كانت المرأة إنساناً له مشاعره الوجدانية فلنعترف أننا نخطئ في حقها كثيراً، حين ندلف عليها في أوقات كثيرة من النوافذ المغلقة!..

مع كل أسف كثيرون في هذه الأزمنة باتت المرأة عندهم جسداً لا

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

مشاعر له، وعلى هذا الجسد أن يتحمّل نزوات الشهوة الطارئة في أي وقت، وحين يمانع أو يحاول مجرَّد محاولة يتحمّل مشاعر الغضب والسخب، والطلاق، والفرقة، والشتات، بكل ما تحمل هذه المعاني! . . .

أمّا رسول الله ﷺ فلا . . الواحدة من أزواجه تُخاصم، تَغْضَب، تَهجر، هي إنسان خُلق وفيه كل مشاعر الإنسانية، ومن حقِّه أن يمارس بعضاً من تلك المعاني . . .

إنني أعجب كثيراً من أولئك الأزواج الذين يريدون من المرأة أن تكون مثالاً لكل هذه المشاعر عند نزوات الشهوة، وبعد زمن قليل يريدونها مجرَّدة من تلك المعاني البتة، فلا تغضب، ولا تخاصم، ولا تجادل . . . ليعذرني قرّاء هذا الكتاب فإنني أكتب وأنا أعيش مشاعر الحب لهذا النبي العظيم، وأعيش في نفس الوقت في حالي وأحوال الناس بُعداً عظيماً عن منهجه وسيرته . .

رابعاً ـ أنا خيركم لأهلي:

تحتاج صفية رضي الله عنها إلى ركوب الراحلة، لكنها لا تجد أقرب من زوجها نبي الله ﷺ يأخذ بها ليركبها، فيضع ركبته لها فتضع صفية رجلها على ركبته ثم تصعد وتركب الدابة، وركب معها . . وفي أثناء الطريق وقع ﷺ عن راحلته، ووقعت زوجه معه على الطريق، فإذا بأبي طلحة أقرب الصحابة إليه، فقال: يا نبي الله ـ جعلني الله فداك ـ هل أصابك من شيء؟ قال: لا، ولكن عليك بالمرأة، فألقى أبو طلحة ثوبه على وجهه فألقى ثوبه عليها، فقامت المرأة[(١)] . . .

---

(١) رواه البخاري.

إن مشاعر الحب تتأجّج لتخلق لنا رحمة في زحمة الأحداث!.. يسقط عن بعيره، ثم لا يسترعيه إلا مشاعر الزوجة الحبيبة وهي ملقاة على الأرض...

وهذه المرأة صاحبة الجمل تتبعه ليلة من ليالي اعتكافه في رمضان، حين غاب عنها إنسان المشاعر في مسجده، تخطَّت ظلمة الليل لتكتب لقاء شاعريّاً ولو بالعين، فيحتفي بها ﷺ، ثم لمّا قامت لترجع إلى بيتها ما تركها تسير في ظلام الليل وحدها، كلا! وإنما قام معها، وسار برفقتها حتى أوصلها إلى بيتها عزيزة مكرّمة.

بل حتى في مشاعر الضعف والمرض الذي يحلُّ بالمرأة من نسائه ما كان ﷺ جافياً غليظاً متغافلاً كما يفعله بعض الأزواج في مثل هذه الأزمان، كلا! وإنما كان يشارك في هذه المشاعر، ويتلطّف، ويرعى شؤونها، أبرزت ذلك عائشة وهي تعتب في حديث الإفك فتقول: «ويريبني في وجعي أنّي لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي»[(١)].. لقد كانت تلقى دلالاً كبيراً حين يغشاها المرض، تلقى ذلك النبي الأسوة ﷺ وهو يرعى شؤونها، ويهتف بمشاعرها، ويحمل عنها بعض أثقال المرض التي أوهنت جسدها..

فيا لله ما أروعه من نبي! وما أعظمه من قدوة! بل والله الذي لا إلٰه إلا هو إن الإنسان وهو يكتب يتقاصر قلمه، وينضب حبره وهو يتحدث عن هذا النبي العظيم.. حين يتحدث عن قدوة أراد الله تعالى أن تكون منهجاً عمليّاً على وجه الأرض ثم لا تجد المقبلين عليه، المسارعين إلى النهل من معينه!..

---

(١) متفق عليه.

لقد حجَّت عائشة برفقته ﷺ، وفي زحمة الحج، وآثار السفر ترغب هذه المرأة في عمرة بعد حجِّها، فيطاوعها ﷺ، ويلبي رغبتها في ظل تلك الأجواء التي تحمل بعض آثار التعب، وينتظرها ﷺ، حتى قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما كلمة تُكتب بمداد الذهب، حين قال: «**وكان رسول الله ﷺ رجلاً سهلاً؛ إذا هويت شيئاً تابعها عليه**»[1]... فتأمّل أيها القارئ الكريم، تأمل في هذه الكلمة! تمعّن في حجمها التربوي، والمعنوي، والنفسي، والاجتماعي، لتدرك أننا أمام قامة سامقة لا يمكن أن تطاول البتة!..

ولا زالت الحبيبة الصدّيقة بنت الصديق تطوف بنا في مآثر هذا النبي الكريم ﷺ فتقول: «ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده، ولا امرأة، ولا خادماً؛ إلا أن يجاهد في سبيل الله..» الله أكبر، لله درُّ قلب يكتظ بمشاعر الأحزان ثم لا ينتصر ولو بكلمة! ولله درُّ يدٍ لا تعرف من القسوة إلا اسمها!..

هل أنا هنا في رحاب هذه السيرة في حُلُم تكتبه مشاعر الحب! أم في وسط حقيقة لحجمها الكبير أخذت بمجامع قلبي فألبستها من حنان هؤلاء الكبار في تاريخ الأمة!..

أُفٍّ ليدٍ ظالمة تجاوزت محيطها لتكتب تاريخاً مشوهاً في حياة أسرة، ففرّقت جمعاً، وأورثت ذُلًّا، وكتبت في حياة من ذاق حرارتها قسوة في المشاعر، وقسوة في الأخلاق، وقسوة في الحياة كلها..

كم عشت يا رسول الله هنا على هذه الأرض؟! أما قابلت جفاءً قاسياً؟! أما واجهت أذًى معلناً؟! أما نال قلبك ومشاعرك حروف تجرح

---

(١) رواه البخاري.

المشاعر؟!.. بلى والله لقيت شيئاً لم نعلم به إلا عبر سطور سيرتك التاريخية، ومع ذلك علَّمتنا اليوم أن بعض القادة تستحوذ على قلوبهم مشاعر وجدانية، فتمسح كل صور الانتقام، وتكتب كل معاني الحب والرحمة والشفقة، **علّمتنا اليوم أن القائد بحق هو من يحمل قلبه مشاعر الحب فتفيض سيلاً دافقاً على جوارحه، فلا ترى منه إلا أعذب صور الود...**

متى كان القادة قُساة؟! متى كان القادة حفنة من مشاعر حقد أو غيظ؟! متى كان القادة أنانيين يشربون حبهم إلى الثمالة فلا يجدون باقياً يتفضّلون به على الآخرين؟! والله إنه لمن العار في حق الواحد منّا أن يلبس جلباب القادة ثم لا يحسن السير في أرجائه الفسيحة!.. ولتعذرني أخي القارئ أن أقول: إمّا قادة على مآثر هذا النبي الكريم! وإلا تبعٌ يموت يوم يموت ولا يعرف بموته بشر من الناس.

ما زالت عائشة رضي الله عنها تفيض علينا بعض تلك الأخلاق التي كان النبي ﷺ يتعامل بها في بيوته مع نسائه؛ فتقول وهي تُسأل عن ما كان يصنع النبي ﷺ في بيته: «كان يكون في مهنة أهله»[(١)] ـ أي: خدمتهم ـ.

هذه صورة مختصرة لما يحدث داخل الجدران! تلك الأمكنة التي يبحث كل الناس على اختلاف مشاربهم عن ما يصنع القادة داخل أسوار بيوتهم! لا شيء.. إنهم في مهنة أهلهم.. يطبخون؟! نعم.. يكنسون؟! نعم.. يغسلون؟! نعم، ليس هذا فحسب.. بل كل شيء.. أين المقتدون؟ أين السائلون عن الهدي؟ أين المتحمسون للاقتداء؟.. هذه سيرة نبيكم ﷺ في بيته.. أما الصياح على طعام تأخّر، أو كساء لم

(١) رواه البخاري.

يُغسل، أو شيء يخالف أمزجة العجالى.. فإنها أخلاق السفهاء، العامة، الدهماء، الرعاع...

عذراً ليس هذا فحسب؛ ما زالت عائشة رضي الله عنها تقول: «كان ﷺ يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه»(١)، هل بقي شيء مما تفعله الخادمات في بلادنا اليوم لم يفعله هذا النبي الكريم؟!.. قد لا تحتملني أيها القارئ الكريم وكأنني أنسج لك خيالاً، وأجدني أجد لك عذراً، لأنني وأنا أكتب هذا الحبر النازف من قلمي على هذه الأوراق، الذي تراه أحوج به وجهي وفكري عساه أن يغيّر معالم فيها ريح الكبر، ووهج العظمة.. لن آتي على آخر سطر في حياة هذا النبي الكريم ﷺ، لا لشيء إلا لأن علمي أقل من أن يعبّر عن نبي بهذه العظمة، ولأنني مثلك أيها القارئ الكريم أُراني قَزمٌ في ساحات هذه السيرة العطرة، ويكفيني أن أختم بقوله ﷺ: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**». صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وأزواجه أجمعين.

❁ ❁ ❁

(١) رواه الإمام أحمد، وصححه الألباني.

□ المبحث التاسع

نماذج من أخلاقه ﷺ

أولاً ـ التواضع:

لقد ضرب النبي ﷺ أروع الأمثلة في الأخلاق، وأروع مثال يمكن أن يجمع شتات ذلك كله قوله ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[١]، وقول عائشة رضي الله عنها: «كان خلقه القرآن»[٢].

وقال خادمه في رسالة لأتباع الأنبياء من تاريخ أنس رضي الله عنه إلى أن تنتهي معالم الكون كله؛ قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلقاً»[٣].. وهذه الشهادة لم يخطُّها لقاء عابر، أو اجتماع قصير، كلا، وإنما سبرها عبر عشر سنوات وهو في بيته، يخدمه... وثمَّة نماذج يمكن عرضها للاستضاءة بها في مثل هذه المواقف، وإليك بعضاً منها:

كان رسول الله ﷺ أنموذجاً للمتواضعين، حتى قال عليه الصلاة والسلام: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم؛ فإنما أنا عبد الله ورسوله**»[٤].

وكانت تأتيه ﷺ المرأة فتقول: إن لي إليك حاجة، فيقول: «**اجلسي في أي طرق المدينة شئت أجلس إليك**»[٥].

---

(١) رواه الإمام أحمد، وصححه الألباني.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) متفق عليه.

(٥) رواه مسلم.

وكان ﷺ يُدعى إلى خبز الشعير والإهالة السنخة ـ الدهن المتغيّر لطول المكث ـ فيجيب[١].

وكانت له درع عند يهودي فما وجد ما يفكها حتى مات ﷺ[٢].

وحج ﷺ على رحل رثّ وعليه قطيفة لا تساوي أربعة دراهم، فقال: «**اللهم اجعله حجّاً لا رياء فيه ولا سمعة**»[٣].

وكان يكره قيام الناس له، وكانوا يتركون القيام له لما يعلمون من كراهته لذلك.

وكان ﷺ يقول: «**لو أُهدي إليّ كُراع لقبلت، ولو دُعيت عليه لأجبت**»[٤].

وقد مرَّ معك في سيرته في بيته: أنه كان يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه.

إن السيل مهما كان هادراً يظل يتبع المنخفضات، ويسلك سبلها، ويعمها بالخيرات حتى يجعلها ربيعاً رائعاً، وفي نفس الوقت مع شدة هديره لا يلوي عنقاً على المرتفعات لأنها أماكن صعبة، وأراضٍ قاحلة، وعالية لا تطولها الخيرات.. **والقادة حينما يتجللون بثياب التواضع تغمرهم الخيرات، وينالهم التوفيق، وتركض إليهم المغانم.. وحين يغفلون أو يتناسون أو لا ينتبهون لهذا المعنى العظيم يرسبون في حياتهم أعظم رسوب**. والله المستعان..

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه الترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني.

(٤) رواه الترمذي وأحمد، وصححه الألباني.

بلغ اهتمامه ﷺ بمن معه اهتماماً عظيماً؛ تحدّث عن ذلك عمرو بن العاص رضي الله عنه فقال: «كان ﷺ يُقبل بوجهه وحديثه على أشر القوم يتألفهم بذلك، فكان يُقبل بوجهه وحديثه عليّ، حتى ظننت أنّي خير القوم، فقلت: يا رسول الله! أنا خير أو أبو بكر؟ قال: **أبو بكر**، فقلت: يا رسول الله! أنا خيرٌ أو عمر؟ فقال: **عمر**، فقلت: يا رسول الله! أنا خيرٌ أو عثمان؟ قال: **عثمان**، فلما سألت رسول الله ﷺ فَصَدَقَني، فلوددت أنّي لم أكن سألته»(١).

ولك أن تتأمّل الإقبال على عمرو، والتحبّب إليه، والإقبال بوجهه إليه كان مغرياً له بالسؤال؛ ظانّاً أنه هو الوحيد الذي يحتل هذه المساحة الشاسعة من قلبه، فلمّا سأل وسمع أدرك أن تلك الأخلاق متأصّلة عظيمة في نفس هذا النبي الكريم ﷺ.

وفي حديث أنس رضي الله عنه قال: «ما رأيت رجلاً التقم أذن النبي ﷺ فيُنحّي رأسه، وما رأيت رجلاً أخذ بيده فترك يده حتى يكون الرجل هو الذي يدع يده».

وفي رواية: «كان النبي ﷺ إذا استقبله الرجل فصافحه لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل ينزع يده، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون الرجل هو يصرفه، ولم يُر مقدماً ركبتيه بين يدي جليس له»(٢).

فللَّه درُّ التواضع ماذا يصنع بأصحابه؟! وماذا يكتب لهم في قلوب من يلقون؟! هكذا هم القادة على وجه الأرض لا تزيدهم المسؤوليات إلا عرفاناً بفضل ربهم، وإدراكاً لواجبهم، ومتى كانت المسؤولية سبيلاً

---

(١) رواه الترمذي، وحسنه الألباني.

(٢) رواه أبو داود والترمذي، وحسنه عبد القادر الأرناؤوط.

لرفعة، إلا في أعراف الغارقين في هتافها، الساعين لهديرها على الأرض؟! وإلا فهي من الأمانات التي تؤخذ بحقها؛ وإلا تترك لأمثال هؤلاء العَجِلين. والله المستعان..

ثانياً ـ الصدق:

لقد كان ﷺ أنموذجاً عالياً في كل جانب، وقد لخّصت لنا السيدة خديجة رضي الله عنها ذلك الأنموذج في كلمات يسيرة؛ حين أقبل إليها خائفاً بعد أن فجأه جبريل في غار حراء، أقبل وهو يقول: «**لقد خشيت على نفسي**».. فقالت: «**كلا، والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق**».. رحمها الله تعالى؛ لقد استقرأت شخصيته من خلال هذه المعالم الكريمة، وهي تقرر بذلك أن من كانت هذه حاله لا يمكن أن يخاف غوائل الناس أو يخشى شرورهم، فهاهي تشرف رضي الله عنها إلى كلمة عظيمة حين تقول: **وتصدق في الحديث**، وكان ذلك المَعلم واضحاً في أذهان قريش كلها، لا يحتاج إلى استبيان.

أرأيت لما نزل قول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]؛ خرج ﷺ على الصفا وجعل ينادي: «**يا بني فهر، يا بني عدي**»، حتى اجتمع بطون قريش، حتى إن الرجل من قريش إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً مكانه، ثم قال ﷺ: «**أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم؛ أكنتم مصدقي؟**» قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً[(١)].

ويوم أن اختصم سعد بن معاذ رضي الله عنه حين طاف بالكعبة معتمراً فنهره

---

(١) متفق عليه.

أمية بن خلف، ودار بينهما خصام طويل، فقال سعد: دعنا عنك، فإني سمعت محمداً ﷺ يزعم أنه قاتلك، قال أمية: إياي؟ قال: نعم، قال أمية وهو على كفره: والله ما يكذب محمد إذا حدّث.. فرجع إلى امرأته وقص عليها القصة، فقالت: والله ما يكذب محمد[1].

إنني أقف هذه المواقف متعجباً لهذه القدوة العظيمة التي دوَّنها النبي الكريم ﷺ من خلال سيرته مع هؤلاء الكفار، إن هناك قيماً ومبادئ يظل المساس بها في حياة الدعاة بمثابة السكين الحادة التي لو غفل عنها الإنسان وهي في يديه هتّكت مواطن من جسده.

إن محمداً ﷺ عاش في بيئة حرب، وخاض مواقف جدل، وسلك طرقاً ذات شعاب، ومع ذلك كله ظل هذا المبدأ قائماً لا يمكن المساس به مهما كانت الظروف، أفيكون أيها الدعاة طريق الأمن والطمأنينة مرتعاً خصباً للكذب والالتواء، إن هذه القيم يمكن أن يتشدّق بها أي زعيم على وجه الأرض؛ وما لم تكن معلماً واضحاً، ومنهجاً مرسوماً في حياته؛ فلن تؤتي ثمارها في نفوس السامعين له، والله المستعان.

الصدق أبرز سمة يتحلَّى بها المصلحون في حياتهم، ولعظيم أثرها وعد النبي ﷺ ببيت في الجنة لمن ترك الكذب ولو مازحاً.. ونحن اليوم في زمن اختلطت فيه كثير من الأوراق في أمسِّ الحاجة إلى تحري الحق، وتبني هذه القيمة منهجاً في حياة الواحد منَّا، مهما كانت الدواعي إلى اقتراف الأعذار التي تخالف منهج الصدق في حياة الإنسان! وقد قال رسولك ﷺ: «**إن الله كره لكم قيل وقال...**» الحديث، وما ذلك إلا أنها بيئة خصبة للكذب وطريق إلى الوقوع في أمثال هذه الرذائل.

---

(١) رواه البخاري.

إن خُلق الصدق لا يؤتي ثماره في نفوس الناس حتى يكون معلَماً واضحاً، ومنهجاً قيّماً في حياة أصحابه.. وحين نكون كذلك نكون معالم واضحة على آثار الأنبياء والمرسلين. والله المستعان..

ثالثاً ـ الشجاعة:

أبرز سمة في القادة أنهم شجعان، والضعفاء الجبناء أحق بالتبع في كل أمة، ولا معوّل عليهم في الأتباع؛ فكيف برؤوس القوم، ومقدمات الأحداث؟!..

قال البراء بن عازب رضي الله عنه: «كنّا والله إذا احمرَّ البأس نتقي به، وإن الشجاع منّا للذي يحاذي به»[١].

وقال أنس رضي الله عنه: «كان ﷺ أشجع الناس»[٢].

وقال علي رضي الله عنه: «كنّا إذا حمي البأس، ولقي القومُ القومَ؛ اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحدٌ أقرب إلى العدو منه».

هذه شهادة الأتباع، وتلك هي حياة القادة النجباء.. لا أتصوّر والله أن أرى قائداً جباناً في حياتي، وإن حصل ذلك فهو خطأ ارتكبه من أوصله إلى مناصب القادة الأفذاذ... إنني أرى في حياتي نماذج كثيرة ممن لبس لباس القادة؛ يتفنّنون في عبارات التقريع والتوبيخ، ويجهدون في فرض سلطة رقابية، ويحسبون أنهم على شيء... وما عرفوا أنهم يثبتون على كراسيهم زمناً وفي نفس الوقت يسقطون من أعين أتباعهم ومرؤوسيهم أزماناً.. ومن تتبّع عرف!..

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

في يوم حنين فرّت الجموع الكبيرة الغفيرة من أرض المعركة، فرّ الأتباع، لأن وخز النبل كان أشد من قوة اليقين في القلب، وبقي القائد يجول على بغلته، ولم يكن ﷺ مدسوساً بين القوم، يتوارى عن السهام، كلا!.. وإنما كان يردد في وسط المعركة: «**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**»[١]، فلتشهد الجموع الغفيرة من الأعداء أنني ما زلت على ساحتهم، ولا يقرّب الآجال إلا ربها تبارك وتعالى..

بل ليس هذا فحسب، لقد نزل عن بغلته وقابل الأعداء على قدميه وهو يركض بسيفه في يده، ألا فلا نامت أعين الجبناء!.. عاد الأتباع يبحثون عن القدوة في أرض المعركة، فالفجاج الواسعة تصلح مهرباً للأتباع، وأكبر خطيئة في تاريخ الأمة أن يجول فيها قائد مولياً ظهره، تاركاً آثار الغنائم خلفه..

القادة هم الأوائل عند صوت الفزع والحروب والمواقف الجريئة، لقد فزع أهل المدينة ليلة من الليالي، سمعوا صوتاً، فهرعوا إليه فإذا هم بالقائد ﷺ يتلقاهم مقبلاً من مكان ذلك الصوت على فرس عري لأبي طلحة وهو متقلّد سيفه، ويقول: «**لم تراعوا.. لم تراعوا**»[٢]! لقد كان المنظر يدعو للدهشة، الفرس عري لم يتمكّن ﷺ من إسراجه، لأن المبادرات بعض منح الأزمات... السرج يصلح أن يُتعب عليه في أوقات الراحة والطمأنينة، أمّا في أوقات الأزمات فلا!..

لله در القدوات ماذا يصنعون في تاريخ أمتهم؟!..

لله درهم ماذا يكتبون في سطور التاريخ من مآثر؟!..

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

إنني أكتب هذه الأسطر، وأنا على يقين أن هذه الصفة وسام شرف في حياة أصحابها، وحين نرى من لا يتصف بها أو لا يتمثلها وهو يتقدّم جماعة أو مجتمع، فذلك أوضح دليل على فشلهم، وضعف همتهم، وسفول رأيهم. والله المستعان!..

رابعاً ـ الجود والكرم:

القادة لا مكان عندهم البتة للشح أو البخل.. كلا، وإنما هم أنفس لا تنضب كرماً وجوداً، ولا أعرف إلى اليوم في حياتي قائداً ناجحاً وهو بخيل البتة.

استقبل يوماً نبي الله ﷺ أُحداً، وكان معه أبو ذر رضي الله عنه، فقال: «**يا أبا ذر! ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهباً، تمضي عليه ثالثة وعندي منه دينار إلا شيئاً أرصده لدين، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا، عن يمينه، وشماله، وخلفه**»[(١)].

وهنا يكاد اللسان يعجز عن تصوير شغف النبي ﷺ بالإنفاق، وحبِّه للجود، وإقباله على الخيرات، إن الصورة بحاجة إلى تأمّل عميق جدّاً، المال كجبل أحد كثرة، ويد النبي ﷺ تنزع من ذلك المال وتسدُّ حاجة الناس، غير آبهة بمقدار ما تأخذ وتهَب، فيا لله أي نبي هذا؟! وأي صورة من الجود يحكيها الحديث في لحظة من لحظات حياته؟! ألا خسئت يدٌ شحيحة تكتب بقلم على كرسي المسؤولية تزعم أنها من القادة وما شمّت رائحتهم!.

البخلاء لا أجد لهم مكاناً أوسع من كتاب الجاحظ، يكفيهم

(١) متفق عليه.

وضاعة أنهم بين دفتيه يذكّر بشُحِّهم وبخلهم، وينفّر الأجيال من صنيعهم وفعالهم.

آه يا رسول الله ليتني كنت بجانبك أقبل يديك، وجسدك، ووجهك الباسم، ليتني كنت عندك حين قلت ذلك لأوفيك بعض حقك علينا... عيب على كل مثقّف اليوم على وجه الأرض ألا تكون سيرتك عنده هي الأصل في ارتواء معاني القدوة الحقيقية...

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير»(١).

وخرج ذات يوم بعد سلامه من صلاة العصر مسرعاً ودخل على بعض نسائه، ثم خرج فقال ﷺ مجيباً على تساؤل صحابته: «**ذكرت وأنا في الصلاة تِبراً عندنا، فكرهت أن يمسي عندنا، فأمرت بقسمته**»(٢).

وكان ﷺ لا يدّخر شيئاً لغد، وقد تحدّث خادمه أنس رضي الله عنه بكلمة الفصل في هذا فقال: «ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً إلا أعطاه»(٣).

وقال صفوان: «والله لقد أعطاني رسول الله ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ»(٤).

وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «ما سئل ﷺ عن شيء قط، فقال: لا».

وفي حديث أنس رضي الله عنه: «أن رجلاً سأل النبي ﷺ فأعطاه غنماً بين

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه الحاكم، وصححه الألباني.
(٤) رواه مسلم.

جبلين، فرجع إلى بلده فقال: أسلموا؛ فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى فاقة»[(١)].

وأعطى غير واحد مئة من الإبل، وأعطى صفوان بن أمية مئة، ثم مئة، ثم مئة[(٢)]، ورد على هوازن سباياها وكانوا ستة آلاف[(٣)]، وأعطى العباس من الذهب ما لم يطق حمله[(٤)].

بل بلغ به الكرم إلى أنه يشتري الحاجة من صاحبها ثم يهديها إياه، فهذا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما وهو عائد من غزوة أعيا جَمَلَه في الطريق، فأدركه ﷺ في الطريق، فاشتراه منه ﷺ على أن يسلّم الجمل بعد وصوله إلى المدينة[(٥)]، فلما وصل أقبل جابر بالجمل إليه، فقال له ﷺ: «**خذ جملك، ودراهمك هي لك**».

هذه وتلك التي نفث مضامينها القلم في هذه الأسطر بعضٌ من آثار الكرم والجود عند القائد العظيم محمد بن عبد الله ﷺ، سيقت هنا ليقف عليها الآباء والمربُّون والدعاة؛ يعبّوا من معينها، فإن استطاعوا أن يرووا منها فهي لهم، وإن لم يكن لهم إلى ذلك سبيل فلا أقل من أن يتركوا الساحة لغيرهم، والله المستعان.

وهل تتصوّر في حياتك لقدوة أن يكون جباناً؟! وهل يمكن أن تعيش في كنف قائد بخيل؟! الرجال يصنعون التاريخ في أوقات الرخاء والشدة، ويكتبون بجميل صفاتهم أنهم قلّة في زمن الشح والبخل

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه البخاري معلقاً.

(٥) متفق عليه.

والأثرة، ولله درُّك يا نبي الله في كل ذلك!.. وصدق شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ حين قال: «يُساس الناس بشيئين: الجود والكرم، والشجاعة». اهـ. ومن لبس لباس القادة وتجرّد من هذه الخصال، فلينزعه عنه قبل أن ينزعه الأتباع رغم أنفه.

خامساً ـ الرحمة والرفق:

لقد كان النبي ﷺ مثالاً للرحمة والعطف والرفق، وهذا الخلق استوعب كل الشخصيات التي عايشها ﷺ صغاراً وكباراً، نساءً ورجالاً.

صلّى رسول الله ﷺ ذات يوم، فسمع بكاء صبي وهو في الصلاة، فخفّف صلاته، وعجل فيها ثم قال: «**إنّي لأدخل في الصلاة وأنا أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي فأتجوّز في صلاتي مما أعلم من شدّة وجد أمه من بكائه**»(١).

وقبّل أحد الصبيان ذات مرة، فرآه أعرابي وهو يفعل ذلك، فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبَّلتُ منهم أحداً، فقال ﷺ: «**أو أملك أن نزع الله من قلبك الرحمة**»(٢).

وصلّى رسول الله ﷺ ذات يوم فأبطأ على المصلين معه في السجود، فلما قضى الصلاة سأله الصحابة: أحدث شيء في الصلاة؟ فقال ﷺ: «**إن ابني هذا** ـ وأشار إلى أحد الأطفال بجانبه ـ **ارتحلني، فكرهت أن أنزله قبل أن يقضي حاجته**»(٣).

ويأتي يوم الجمعة خطيباً ويمضي في خطبته؛ فإذا بالحسن والحسين

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) أخرجه ابن خزيمة، وصححه الألباني.

يتعثّران على بوابة المسجد، فكان من نبي الهدى ﷺ أن أوقف خطبته ثم نزل وتخطَّى الناس، وذهب إليهما ثم أخذهما وركب بهما على المنبر، ثم قبَّلهما على مرأى من الناس وقال: «**هٰذان ريحانتاي من الجنة!**».

وخرج في يوم من المسجد في صلاة الظهر أو العصر، وبينما هو مع صحابته إذ أقبل الحسن أو الحسين فأخذ يفرُّ هاهنا وهاهنا ورسول الله ﷺ مادٌّ يديه يحجز عليه المكان، ثم أخذه بيديه وقبّله بين عينيه.

وذات يوم وجد بنيَّة صغيرة تلبس لباساً جديداً، فأخذ يقول: «**سنا يا أم خالد، سنا يا أم خالد**»(١)، أي: جميل بلغة أهل الحبشة.

وكان ﷺ إذا قدم من سفر استقبله ولدان المدينة فيركبهم على دابته فيدخل المدينة وبعضهم أمامه وبعضهم خلفه..

وإنني والله أقف متعجباً أمام هذه الوقفات الرائعة في حياة القائد العظيم ﷺ..

إن أوقات القادة ثمينة جدّاً، وتكاد تكون ضيقة بهموم الأمة، لكن قلوبهم كبيرة جدّاً مع همومها وأزماتها تستوعب براءة الأطفال، وتكسوهم بحلمها ورعايتها واهتمامها، وهؤلاء هم الكبار حقّاً...

إن صغير اليوم هو كبير الغد! والناظر في مجهول الأيام اليوم هو الناقد البصير في أيام المستقبل، والقادة على مستوى الأمة هم من يجدون في أوقاتهم فسحة كبيرة للحديث إلى هؤلاء الناشئة، وإدخال السرور عليهم.

---

(١) رواه البخاري.

ولم تكن أيام القائد الحقيقية هي قصراً على الأبناء والزوجات، كلا! وإنما استوعبت حتى الخدم، ووصلت إلى صور نادرة جدّاً، ويكفينا في ذلك ما قصَّه خادمه أنس رضي الله عنه خلال عشر سنين قضاها في رحاب بيته؛ حين قال: «خدمت النبي ﷺ عشر سنين؛ فما قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: لمَ لا تفعله؟»[1]!.

هذه صورة القائد مع خدمه، مع الضعفاء.. عشر سنوات من عمره بأفراحها وأحزانها لم تغيّر خُلقاً أو سلوكاً في حياته ﷺ حتى مع الخدم.

إن القادة الذين لا تستوعب قلوبهم الخدم، ليس لهم أن يتربعوا على عروش المجد، ذلك لأنهم لا يحسنون طريق الأنبياء، ولا يستطيعون السير على مآثر القادة العظماء! وكيف لا يكون كذلك والله تعالى زكّاه بقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ...﴾ [آل عمران: ١٥٩].

سادساً ـ الحلم والعفو:

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورىٰ: ٤٣].

وكان ﷺ لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبراً، وعلى إسراف الجاهل إلا حلماً.. بلغ هذا الجانب أروعه عند رسول الله محمد ﷺ.

في يوم من الأيام وزّع نبي الله ﷺ بين الناس مالاً، وقد انتهى المال، وانفض الناس، وخرج ﷺ يقضي بعض شؤونه، فيعترضه أعرابي سمع بالأموال، فتناول ثوب النبي ﷺ وجذبه جذبة شديدة مؤلمة طالباً

(١) متفق عليه.

مالاً كبقية الناس؛ حتى أثّر الرداء في عنق النبي عليه الصلاة والسلام؛ فلم يزد النبي ﷺ على أن تبسّم وأمر له بمال(١).

وسألته زوجه عائشة رضي الله عنها: هل أتى عليك يوم أشد من أُحد؟ قال: «**نعم، لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلّم عليّ ثم قال: يا محمد: إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين**. فقال ﷺ: **بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً**»(٢).

وفي قصة عبد الله بن أُبي ابن سلول المنافق الكبير والذي بلغ في إيذاء رسول الله ﷺ ما لا يتصور، فهو الرجل الذي خرج مع رسول الله ﷺ في يوم أُحد، ولما أقبل على قريش عاد بثلث الجيش إلى المدينة تاركاً رسول الله ﷺ وصحبه الكرام.. ولما تصاول المهاجرون والأنصار في إحدى الغزوات قال: «ما مثلنا ومثلهم ـ يعني رسول الله ﷺ وصحابته ـ إلا كما يقول الأول: سمّن كلبك يأكلك، لئن عدنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل».

وقصة الإفك أشهر من علَم؛ فقد أذاع عبد الله بن أُبي ابن سلول في

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

المدينة مقالة سوء ببيت النبوة، وحكم عليها: أن صفوان بن المعطّل وقع بها ـ عائشة رضي الله عنها ـ حتى جاء خبر السماء بكذبه..

ومع كل ذلك حين جاء رحيله من الدنيا وقف ابنه الصحابي الجليل عبد الله بن عبد الله بن أُبي طالباً ثوب رسول الله ﷺ ليكفّن المنافق فيه، فما كان من النبي ﷺ إلا أن خلع ثوبه وأعطاه إياه، ثم سأله الصلاة عليه فقام ﷺ ليصلي عليه، فوقف عمر في وجهه ﷺ وقال: «أتصلي على ابن أبيّ؟!» فتبسّم رسول الله ﷺ وقال: «**أخّر عني يا عمر**»، فلمّا أكثر عليه قال: «**إنّي خُيّرت فاخترت، لو أعلم أنّي إن زدت على السبعين يغفر له، لزدت عليها**».. فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف، فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزل قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٤](١).

وقد كسرت رباعيته ﷺ، وشجَّ وجهه في يوم أُحد، فشق ذلك على أصحابه كثيراً، وقالوا: لو دعوت عليهم! فقال: «**إني لم أُبعث لعاناً، ولكني بعثت داعياً ورحمة، اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون**»(٢).

قال القاضي أبو الفضل رحمه الله: «انظر ما في هذا القول من جماع الفضل، ودرجات الإحسان، وحسن الخلق، وكرم النفس، وغاية الصبر والحلم، إذ لم يقتصر على السكوت عنهم حتى عفا عنهم، ثم أشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم، فقال: **اللهم اغفر أو اهدِ**، ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله: **لقومي**، ثم اعتذر عنهم بجهلهم فقال: **إنهم لا يعلمون**». اهـ. وبمثله قال ابن القيم رحمه الله.

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم بدون ذكر القصة والدعاء.

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولم يؤاخذ لبيد بن الأعصم إذ سحره، وقد أُعلم به وأوحي إليه بشرح أمره، ولا عتب عليه بدلاً عن معاقبته، وكذلك لم يؤاخد عبد الله بن أبيّ وأشباهه من المنافقين بعظيم ما نُقل عنهم في جهته قولاً وفعلاً، بل قال لمن أشار بقتل بعضهم: **لا يتحدَّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**». اهـ.

وهكذا هي أخلاق العظماء! لقد كان في إمكان رسول الله ﷺ أن يقتلهم أو يعذبهم أو حتى يشهّر بهم، ومع كل الدواعي لم يفعل من ذلك شيئاً البتة..

إن النفوس العظيمة تحمل في طياتها قلوباً رحيمة، ولن يسع الأمة سوى هذه القلوب التي تُعطي دون أن تنتظر مقابلاً!.

إن كثيراً من الناس يعطون وهم ينتظرون الجزاء العاجل، فإن تأخّر ذلك الجزاء حملت قلوبهم غوائل تجاه من منحوه بعض فضائلهم، أما القادة فشيء آخر، يدفعون، ويقدمون، ويعطون دون أن ينتظر الواحد منهم كلمة على ما قدَّم، هُمْ يتمثلون قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩]. والله المستعان..

❁ ❁ ❁

الفصل الأربعون

خصائصه ﷺ

أولاً ـ علم الخصائص النبوية:

من كمال علم الإنسان، وشرف مطلوبه أن يُعنى بكل ما جاء عن نبيه ﷺ، بل كل ما اختصَّ به، فإن شرف العلم من شرف المعلوم، وطالب العلم أحوج إلى كل ما يتعلّق بنبيه ﷺ.

وباب الخصائص من العلم الذي ينشد الإنسان معرفته في رسوله ﷺ، وقد قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في معرفة هذا الباب: «وقال سائر أصحابنا: لا بأس به، وهو الصحيح لما فيه من زيادة العلم، والصواب الجزم بجواز ذلك، بل استحبابه، بل لو قيل بوجوبه لم يكن بعيداً، لأنه ربما رأى جاهل بعض الخصائص ثابتة في الحديث الصحيح، فعمل به أخذاً بأصل التأسّي، فوجب بيانها لتُعرف فلا يعمل بها، وأي فائدة أهم من هذه؟!». اهـ.

والخصائص في هذا الباب هي مجموع ما اختص به نبينا ﷺ دون غيره.

ثانياً ـ خصائص الأحكام:

١ ـ خصائص له ﷺ دون سائر الأنبياء:

أ ـ **أنه ﷺ تحرم عليه الصدقات**: ويشاركه في هذا التحريم آله من بني هاشم، وبني المطلب، وزوجاته، ومواليه.

فالزكوات الواجبة، والصدقات النافلة، والنذور والكفارات كل ذلك يحرم عليه، لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ الحسن بن علي رضي الله عنهما تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه، فقال ﷺ: «**كخ، كخ.. أما علمت أنّا لا نأكل الصدقة؟!**»(١).

وفي حديث أنس رضي الله عنه قال: مرَّ النبي ﷺ بتمرة في الطريق، فقال: «**لولا أنّي أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها**»(٢). وذلك لأنها أوساخ الناس.

ب ـ **إباحة النكاح له ﷺ بالهبة**: فإذا وهبت المرأة نفسها للنبي ﷺ جاز زواجها منه بدون شيء، لقول الله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

وقد قالت عائشة رضي الله عنها: كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ، وأقول: أتهب المرأة نفسها؟!(٣)..

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «أخرج الطبري: عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها للنبي ﷺ. قال: وإسناده حسن... والمراد أنه لم يدخل بواحدة ممن وهبت نفسها للنبي ﷺ، وإن كان مباحاً له، لأنه رجع عن إرادته لقوله تعالى: ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾». اهـ.

ج ـ **إباحة النكاح بغير ولي**: لحديث أنس رضي الله عنه في زواجه بصفيَّة بنت

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

حيي؛ فإنه ﷺ دعا المسلمين إلى وليمة زواجه بها، ولم يعرف المسلمون أنها زوجته حتى حجبها[١].

د ـ **أن الله تعالى أباح له ﷺ القتال في الحرم ساعة من نهار**: لحديث ابن عباس رضي الله عنهما؛ وفيه: «**وإنه لم يُحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار**»[٢].

هـ ـ **إباحة وصال الصوم**: وهو ترك الفطر في الليل والمواصلة على صيام النهار، وفي حديث أنس رضي الله عنه؛ قال: قال ﷺ: «**لا تواصلوا**» قالوا: إنك تواصل؟ قال: «**لست كأحد منكم؛ إنّي أطعم وأسقى**»[٣].

و ـ **صلاة ركعتين بعد العصر**: لحديث عائشة رضي الله عنها قالت: «ركعتان لم يكن رسول الله ﷺ يدعهما سرّاً ولا علانية، ركعتان قبل الصبح، وركعتان بعد العصر»[٤].

وقد بُيِّن سبب تلك الصلاة في حديث أبي سلمة: أنه سأل عائشة رضي الله عنها عن السجدتين اللتين كان ﷺ يصليهما بعد العصر؟ فقالت: «كان يصليهما قبل العصر، ثم إنه شُغل عنهما أو نسيهما فصلاهما بعد العصر ثم أثبتهما، وكان إذا صلى صلاة أثبتها»[٥].

ز ـ **إباحة ترك القَسْم بين زوجاته ﷺ**: لقول الله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ﴾

---

(١) رواه البخاري.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه البخاري.
(٤) متفق عليه.
(٥) رواه مسلم.

[الأحزاب: ٥١] أي: تبعد من تشاء فلا تُقسم لها، وتقرّب من تشاء فتقسم لها.

ح ـ **أن له ﷺ أن يأمر بالقتل**: لقول عمر رضي الله عنه في أكثر من قصة: «دعني أضرب عنقه يا رسول الله».

ومع كون هذا الأمر من خصائصه إلا أنه لم يفعله البتة، وكل الذين أمر بقتلهم ﷺ كانت بحقهم جرائم استحقوا القتل عليها. والله تعالى أعلم.

وهذه الخصائص كلها خاصة به لم يشاركه فيها غيره من الأنبياء.

٢ ـ خصائص شاركه فيها الأنبياء:

وهناك خصائص شاركه فيها الأنبياء من قبله؛ وهي:

أ ـ **إباحة الجمع بين أكثر من أربع نسوة.**

ب ـ **أنه ﷺ لا يورث**: قال ﷺ: «**نحن الأنبياء لا نورث، ما تركنا صدقة**»[١].

ج ـ **أنه ﷺ لا تكون له خائنة الأعين**: لحديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في قصة فتح مكة، لما جاء ابن أبي السرح وقد أهدر النبي ﷺ دمَه، وتأخّر في مبايعته، قال بعد أن بايعه: «**أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله؟**» قالوا: ما ندري يا رسول الله ما في نفسك؛ لو أومأت إلينا بعينك! فقال ﷺ: «**إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين**»[٢].

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أبو داود والنسائي، وصححه الألباني.

د ـ **أنه ﷺ تنام عينه ولا ينام قلبه**: لقوله ﷺ: «**يا عائشة: إن عيني تنام ولا ينام قلبي**»[١].

هـ ـ **أنه ﷺ لا يحل له إذا لبس لأمَته أن ينزعها حتى يقاتل**: قال ﷺ: «**إنه ليس لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل**»[٢].

وكل هذه الخصائص سواء التي لم يشاركه فيها أحد أو شاركه فيها الأنبياء قبله هي مما يخص خصائص الأحكام.

ثالثاً ـ خصائص الفضائل:

هناك خصائص اختص بها ﷺ في الفضائل؛ وهي على نوعين: نوع خاص بالدنيا، ونوع آخر خاص بالآخرة.

١ ـ ما يختص بالدنيا:

أ ـ **أنه خاتم النبيين**: كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال ﷺ: «**وأنا خاتم النبيين**»[٣].

ب ـ **أن رسالته ﷺ للناس كافة**: قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وفي حديث جابر رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «**وبعثت إلى الناس عامة**»[٤].

ج ـ **النصرة بالرعب**: لقوله ﷺ: «**نصرت بالرعب مسيرة شهر**»[٥].

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الإمام أحمد، وصححه الألباني.

(٣) متفق عليه.

(٤) متفق عليه.

(٥) متفق عليه.

د ـ **أن الأرض كلها له ﷺ مسجد**: لقوله ﷺ: «**وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً**»(١).

هـ ـ **حلّ الغنائم له ﷺ**: لقوله ﷺ: «**وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد من قبلي**»(٢).

و ـ **أنه ﷺ أوتي جوامع الكلم**: لقوله ﷺ: «**وأعطيت جوامع الكلم**»(٣).

ز ـ **أنه ﷺ أعطي مفاتيح خزائن الأرض**: لقوله ﷺ: «**فبينا أنا نائم أُتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي**»(٤).

ومعنى ذلك: ما يفتح لأمَّته من بعده من فتوح وغنائم، ونحو ذلك.

ح ـ **إسلام شيطانه**: لقوله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا قد وكِّل به قرينه من الجن**»، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «**وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير**»(٥).

ط ـ **أن الشيطان لا يتمثّل به ﷺ**: فمن رآه في المنام فقد رآه حقّاً؛ لقوله ﷺ: «**من رآني في المنام، فسيراني في اليقظة، ولا يتمثّل الشيطان بي**»(٦).

ي ـ **مغفرة ذنوبه ﷺ**: لقول الله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، وفي حديث عائشة رضي الله عنها لما رأت كثرة قيامه

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

(٤) متفق عليه.

(٥) رواه مسلم.

(٦) متفق عليه.

قالت: «لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟!»[١]

ك - **رؤيته ﷺ لمن خلفه في الصلاة**: لقوله ﷺ: «**أقيموا الصفوف فإنّي أراكم خلف ظهري**»[٢].

ولقوله ﷺ: «**هل ترون قبلتي هاهنا؟ فوالله ما يخفى عليّ خشوعكم ولا ركوعكم، إنّي لأراكم من وراء ظهري**»[٣].

ل - **أن تطوعه ﷺ بالصلاة قاعداً كتطوعه قائماً**: لقوله ﷺ لما وجده الصحابي جالساً في صلاة التطوّع، قال: «**ولكني لست كأحد منكم**»[٤].

م - **أنه ﷺ يخاطَب، ويُلبّى دعاؤه في الصلاة**: فخطابه قول المصلي: السلام عليك أيها النبي، وكذلك إذا دعا أحداً وهو في صلاته وجب إجابته، ففي حديث أبي سعيد بن المعلّى قال: «كنت أصلي في المسجد، فدعاني ﷺ فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله إني كنت أصلي، فقال ﷺ: «**ألم يقل الله**: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]»[٥].

ن - **رفع ذكره ﷺ**: لقول الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤].

س - **وجوب محبته ﷺ على الأمة**: لقوله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى**

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه البخاري.

أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»[١].

ع ـ **أنه ﷺ أُخذ الميثاق على الأنبياء من قبله على أن يؤمنوا به وينصروه:** قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١].

ف ـ **أنه ﷺ يبلغه سلام الناس عليه بعد موته:** لقوله ﷺ: «**ما من أحدٍ يسلّم عليّ؛ إلا رد الله عليّ روحي حتى أردَّ عليه السلام»**[٢].

ص ـ **أن زوجاته ﷺ أمهات المؤمنين:** لقول الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾ [الأحزاب: ٦].

ق ـ **أن زوجاته ﷺ محرمات بعده على غيره:** لقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

هذه بعض خصائص الفضائل التي كانت له عليه الصلاة والسلام في الدنيا.

٢ ـ ما يختص بالآخرة:

أما خصائص الفضائل في الآخرة، فهي:

أ ـ **أنه ﷺ سيّد ولد آدم:** لقوله ﷺ: «**أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة»**[٣].

ب ـ **أنه ﷺ أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة:** لقوله ﷺ: «**أنا سيّد**

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أبو داود، وحسنه الألباني.

(٣) رواه مسلم.

ولد آدم يوم القيامة، وأوّل من ينشق عنه القبر»(١).

ج ـ **أنه ﷺ أعطي الشفاعة في يوم القيامة**: لقوله ﷺ: **«وأول شافع وأول مشفّع»**(٢).

د ـ **أنه ﷺ أول من يقرع باب الجنة يوم القيامة**: لقوله ﷺ: **«أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة، وأنا أول من يقرع باب الجنّة»**(٣).

هـ ـ **أنه ﷺ صاحب لواء الحمد، وجميع الأنبياء تحت هذا اللواء**: لقوله ﷺ: **«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ، آدم فمن سواه إلا تحت لوائي»**(٤).

و ـ **أنه ﷺ صاحب المقام المحمود**: لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، والمقام المحمود هو الشفاعة العظمى.

ز ـ **أنه ﷺ صاحب الوسيلة**: لقوله ﷺ في حديث الأذان: **«ثم سلوا الله لي الوسيلة؛ فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو»**(٥).

ح ـ **أنه ﷺ صاحب الكوثر**: لقوله ﷺ: **«أتدرون ما الكوثر؟»** قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: **«فإنه نهر وعدنيه ربي ﷻ»**(٦).

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه الترمذي، وصححه الألباني.

(٥) رواه مسلم.

(٦) رواه مسلم.

ط ـ **أنه ﷺ أول من يمر على الصراط**: لقوله ﷺ: «**فيضرب الصراط بين ظهراني جهنّم، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمَّته**»[(١)].

ي ـ **أن الأرض لا تأكل لحمه ﷺ وكذلك الأنبياء**: لقوله ﷺ: «**إن الله ﷻ حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**»[(٢)].

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الإمام أحمد، وصححه الألباني.



الفصل الحادي والأربعون

معجزاته ﷺ

أولاً ـ تعريف المعجزة:

المعجزة هي الأمر الخارق للعادة الذي يجريه الله تعالى على يد نبي مرسل على سبيل التحدي؛ ليقيم به الدليل والبرهان على صدق نبوته.

وإنما سمّيت معجزة لعجز البشر عن الإتيان بمثلها، وبعض أهل العلم رحمهم الله تعالى يعبّر عن هذا الباب بالآيات؛ لأن لفظ المعجزة لفظ مشترك بين الأنبياء وبين غيرهم.

ثانياً ـ القرآن العظيم أعظم معجزة لسيدنا محمد ﷺ:

أعظم آية بيّنة لنبينا ﷺ منذ خلقه الله تعالى إلى أن تقوم الساعة هذا القرآن العظيم؛ كما قال ﷺ: **«ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»**[1].

ثالثاً ـ من تلك الآيات أو المعجزات:

١ ـ معجزة الإسراء والمعراج:

فهو آية عظيمة طوى الله فيها الزمان والمكان في لحظات يسيرة، ووصل فيها رسول الله ﷺ إلى أعظم مكان يصله البشر، قال تعالى:

---

(١) متفق عليه.

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ (١٥) إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [الإسراء: ١٣ ـ ١٨].

وفي حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه: أن نبي الله ﷺ حدَّثهم عن ليلة أسري به، فقال: «**بينما أنا في الحطيم** ـ وربما قال: **في الحِجر** ـ **مضطجعاً إذ أتاني آتٍ، فقدّ ما بين هذه إلى هذه** ـ فقلت للجارود وهو جنبي: ما يعني به؟ فقال: من ثغرة نحره إلى شعرته، وسمعته يقول: من قصّه إلى شعره ـ **فاستخرج قلبي، ثم أُتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً فغسل قلبي، ثم حُشي، ثم أُعيد، ثم أُتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض** ـ وهو البراق ـ **يضع خطوه عند أقصى طرفه، فحُملت عليه، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: من معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت فإذا فيها آدم فقال: هذا أبوك فسلّم عليه، فسلمت عليه فردَّ السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح.**

ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: من معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت إذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلّم عليهما، فسلَّمت فردّا، ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: من معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت إذا يوسف، قال: هذا يوسف فسلّم عليه، فسلمت عليه فردّ، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي إلى السماء الرابعة، فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: من معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت إذا إدريس، قال: هذا إدريس فسلم عليه، فسلمت عليه، فردَّ ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة، فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: من معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا هارون، قال: هذا هارون فسلّم عليه، فسلمت عليه، فردّ، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة، فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: من معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت، فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلّم عليه، فسلمت عليه، فردَّ ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، فلما تجاوزت بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بُعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي.

ثم صعد بي إلى السماء السابعة، فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال:

جبريل، قيل: من معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا بإبراهيم، قال: هذا أبوك فسلّم عليه، فسلمت عليه، فردّ السلام قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح.

ثم رُفِعَت لي سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار، نهران باطنان، ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات.

ثم رفع لي البيت المعمور، ثم أُتيت بإناء من خمر، وإناء من لبن، وإناء من عسل، فأخذت اللبن، فقال: هي الفطرة، أنت عليها وأُمَّتك.

ثم فُرضت عليّ الصلوات خمسين صلاة كل يوم، فرجعت فمررت بموسى فقال: بم أمرت؟ قلت: بخمسين صلاة كل يوم، قال: أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإنّي والله جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعت فوضع عني عشراً... وفيه إلى خمس صلوات فقال له: ارجع، فقال: سألت ربي حتى استحييت ولكن أرضى وأسلّم، قال: فلما جاوزت نادى منادٍ: أمضيت فريضتي وخففت عن عبدي»[1].

٢ ـ معجزة تكثير الطعام:

ففي حديث عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما، قال: «كنَّا مع النبي ﷺ ثلاثين ومئة، فقال النبي ﷺ: «**هل مع أحد منكم طعام؟**» وفيه: فاشترى شاة فصنعت، وأمر النبي ﷺ بسواد البطن أن يُشوى، وايم الله ما في

(١) متفق عليه.

الثلاثين والمئة إلا قد حزّ له النبي ﷺ من سواد بطنها؛ إن كان شاهداً أعطاه إياه، وإن كان غائباً خبّأ له»[١].

وفي حديث جابر رضي الله عنهما، قال: «لمّا حفر الخندق رأيت بالنبي ﷺ خمصاً شديداً، فانكفأت على امرأتي فقلت: هل عندك شيء فإني رأيت برسول الله ﷺ خمصاً شديداً؟ فأخرجت إليّ جراباً فيه صاع من شعير، ولنا بُهَيمة داجن فذبحتها، وطحنت الشعير، ثم وليت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: لا تفضحني برسول الله ﷺ وبمن معه، فجئته فساررته، فقلت: يا رسول الله! ذبحنا بهيمة لنا، وطحنّا صاعاً من شعير كان عندنا، فتعال أنت ونفر معك، فصاح النبي ﷺ: «**يا أهل الخندق، إن جابراً قد صنع لكم سوراً، فحيَّ هلاً بكم**» ثم قال ﷺ: «**لا تنزلنّ برمتكم، ولا تخبزنّ عجينتكم حتى أجيء**». . فجئت وجاء رسول الله ﷺ يقدم الناس، حتى جئت امرأتي فقالت: بك وبك، فقلت: قد فعلت الذي قلتِ. . فأخرجت له عجيناً فبصق فيه وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبصق وبارك، ثم قال: «**ادعي خابزة فلتخبز معك، واقدحي من برمتكم ولا تنزلوها**» وهم ألف، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو»[٢].

٣ ـ معجزة تكثير ماء الوضوء:

لحديث أنس رضي الله عنه، قال: «رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر، فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه، فأتي رسول الله ﷺ بوضوء، فوضع رسول الله ﷺ في ذلك الإناء يده، وأمر الناس أن يتوضؤوا منه، فرأيت الماء نبع من تحت أصابعه حتى توضؤوا من عند آخرهم»[٣].

---

(١) متفق عليه. (٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

٤ ـ معجزة تسبيح الطعام:

لحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «ولقد كنّا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل»(١).

٥ ـ ومن تلك الآيات الإخبار عن أمور في المستقبل:

أ ـ ففي حديث حذيفة رضي الله عنه، قال: «لقد خطبنا النبي ﷺ خطبة ما ترك فيها شيئاً إلى قيام الساعة إلا ذكره، علمه من علمه وجهله من جهله، إن كنت لأرى الشيء قد نسيت، فأعرفه كما يعرف الرجلُ الرجلَ إذ غاب عنه فرآه فعرفه»(٢).

ب ـ **الإخبار بمقتل كبار مشركي قريش ببدر**: لحديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان ﷺ يرينا مصارع أهل بدر بالأمس، يقول: «**هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله**» قال عمر رضي الله عنه: فوالذي بعثه الله بالحق ما أخطؤوا الحدود التي حدّ رسول الله ﷺ(٣).

ج ـ **إخباره عن مقاتل في صفوف المسلمين أنه من أهل النار**(٤).

د ـ **الإخبار بريح شديدة في غزوة تبوك**: قال أبو حميد الساعدي: فلما أتينا تبوك قال: «**أما إنها ستهب الليلة ريح شديدة فلا يقومنّ أحد، ومن كان معه بعير فليعقله**» فعقلناها، فهبت ريح شديدة فقام رجل فألقته بجبل طيئ(٥).

---

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم.

(٤) متفق عليه.

(٥) متفق عليه.

هـ - **الإخبار بموت النجاشي في اليوم الذي مات فيه**: لحديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، خرج إلى المصلى فصفّ بهم وكبّر أربعاً»[(١)].

و - **الإخبار عن موت أمراء مؤتة**: وهم زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم، وهو بالمدينة وهم بالشام[(٢)].

ز - **إخباره ﷺ بموت ابنته فاطمة**: وذلك حين سارّها في مرض موته؛ قال لها: «**أنت أول أهل بيتي تتبعيني**»[(٣)].

ح - **الإخبار بموت زينب** رضي الله عنها: لحديث عائشة رضي الله عنها: أن بعض أزواج النبي ﷺ قلن للنبي ﷺ: أيّنا أسرع بك لحوقاً؟ فقال: «**أطولكن يداً**».. فأخذوا قصبة يذرعونها، فكانت سودة أطولهن يداً، فعلمنا بعد أنما كان طول يدها الصدقة، وكانت أسرعنا لحوقاً به، وكانت تحبُّ الصدقة. وفي لفظ: فكانت أطولنا يداً زينب[(٤)].

ط - **إخباره عن أويس القرني**: فإن النبي ﷺ قال لعمر رضي الله عنه: «**يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد، ثم من قرن، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها بارّ، لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل**»[(٥)].

ي - **إخباره بفتح مصر**: لحديث أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال ﷺ: «**إنكم ستفتحون مصر؛ وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها**

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه البخاري.
(٣) متفق عليه.
(٤) رواه البخاري.
(٥) رواه مسلم.

فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحماً ـ أو قال: **ذمة وصهراً، فإذا رأيت رجلين يختصمان فيها في موضع لبنة فاخرج منها**».. فرأيت عبد الرحمن بن شرحبيل بن حسنة وأخاه ربيعة يختصمان في موضع لبنة، فخرجت[(١)].

ك ـ **الإخبار بهلاك كسرى وقيصر**: لحديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال ﷺ: «**إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفس محمد بيده لتنفقنّ كنوزهما في سبيل الله**»[(٢)].

وغير ذلك مما وقع الإخبار عنه في المستقبل وحصل كما أخبر النبي ﷺ.

٦ ـ ومن المعجزات إخباره عن أمور كانت في الماضي:

أ ـ **ذكر آدم**: ففي حديث أنس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**لما صوّر الله آدم في الجنة؛ تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو، فلما رآه أجوف، عرف أنه خلق خلقاً لا يتمالك**».

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً، ثم قال: اذهب فسلّم على أولئك من الملائكة فاستمع ما يحيونك به، تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله. فزاده: ورحمة الله**»[(٣)].

ب ـ وفي حديث عبد الله بن زمعة رضي الله عنه: أنه سمع النبي ﷺ يخطب، وذكر

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

الناقة والذي عقر، فقال ﷺ: «﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ [الشمس: ١٢] **انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في رهطه مثل أبي زمعة**»[١].

ج - وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال ﷺ: «**لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر**»[٢].

د - **ما ورد من ذكره لأخبار الأنبياء، وذكر المسخ في بني إسرائيل، وقصة الأقرع والأبرص والأعمى، وخبر الثلاثة أصحاب الغار، وقصة أصحاب الأخدود**... ونحو ذلك.

٧ - معجزة حنين الجذع:

ففي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن امرأة من الأنصار قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله! ألا أجعل لك شيئاً تقعد عليه، فإن لي غلاماً نجاراً؟ قال: «**إن شئت**» قال: فعملت له المنبر، فلما كان يوم الجمعة قعد النبي ﷺ على المنبر الذي صنع، فصاحت النخلة التي كان يخطب عندها حتى كادت أن تنشق، فنزل النبي ﷺ حتى أخذها فضمها إليه، فجعلت تئن أنين الصبي الذي يسكّت حتى استقرت، قال: «**بكت على ما كانت تسمع من الذكر**»[٣].

٨ - معجزة انشقاق القمر:

ففي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر»[٤].

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه البخاري.

(٤) متفق عليه.

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين؛ فقال ﷺ: «**اشهدوا**»[١].

٩ ـ معجزة سلام الحجر:

لحديث جابر بن سمرة رضي الله عنه، قال: قال ﷺ: «**إنّي لأعرف حجراً بمكة كان يسلّم عليّ قبل أن أبعث، إنّي أعرفه الآن**»[٢].

١٠ ـ معجزة انقياد الشجر:

لحديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «سرنا مع رسول الله ﷺ حتى نزلنا وادياً أفيح ـ أي: واسع ـ فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته، فاتّبعته بإداوة من ماء، فنظر رسول الله ﷺ فلم ير شيئاً يستتر به، وإذا شجرتان بشاطئ الوادي، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما، فأخذ بغصن من أغصانها، فقال: «**انقادي عليّ بإذن الله**» فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده، حتى أتى الشجرة الأخرى، فأخذ بغصن من أغصانها، فقال: «**انقادي عليّ بإذن الله**» فانقادت معه كذلك. حتى إذا كان بالمنتصف مما بينهما لأم بينهما ـ يعني: جمعهما ـ فقال: «**التئما عليّ بإذن الله**» فالتأمتا[٣].

١١ ـ معجزة طائر الحمرة:

لحديث أبي مسعود رضي الله عنه، قال: كنّا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حمرة معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تفرش، فجاء النبي ﷺ فقال: «**من فجع هذه بولديها؟.. ردوا ولديها إليها**»[٤].

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه أبو داود، وصححه الألباني.

١٢ ـ معجزة سجود الجمل بين يديه:

لحديث أنس بن مالك ﵁: كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يسنون عليه، وإنه استصعب عليهم فمنعهم ظهره، وإن الأنصار جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إنه كان لنا جمل نسني عليه، وإنه استصعب علينا ومنعنا ظهره وقد عطش الزرع والنخل، فقال ﷺ لأصحابه: «**قوموا**» فقام فدخل الحائط والجمل في ناحيته، فمشى النبي ﷺ نحوه فقالت الأنصار: يا رسول الله قد صار مثل الكلب نخاف عليك صولته، قال: «**ليس عليّ منه بأس**» فلما نظر الجمل إلى رسول الله ﷺ أقبل نحوه حتى خرّ ساجداً بين يديه، فأخذ رسول الله ﷺ بناصيته أذل ما كانت قط حتى أدخله في العمل[١].

١٣ ـ معجزة الإخبار بالشاة المسمومة:

لحديث أبي هريرة ﵁ قال: لما فُتحت خيبر أهديت للنبي ﷺ شاة فيها سم، فقال ﷺ: «**اجمعوا إليّ من كان هاهنا من يهود**»، فجمعوا له، ثم قال: «**هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟**» فقالوا: نعم يا أبا القاسم، قال: «**هل جعلتم في هذه الشاة سمّاً؟**» قالوا: نعم، قال: «**ما حملكم على ذلك؟**» قالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح، وإن كنت نبيّاً لم يضرك[٢].

١٤ ـ معجزة كف الأذى عنه:

لحديث أبي هريرة ﵁ قال: قال أبو جهل: هل يعفّر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم، قال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل

---

(١) رواه الإمام أحمد والنسائي، وصححه الألباني.

(٢) رواه البخاري.

ذلك لأطأن رقبته أو لأعفرن وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه! قال: فقيل له: ما لك؟ قال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة، فقال ﷺ: «**لو دنا منّي لاختطفته الملائكة عضواً عضواً**»[(١)].

١٥ ـ معجزة إجابة دعائه ﷺ:

لحديث: أن أبا هريرة رضي الله عنه قال للنبي ﷺ: ادع الله أن يهدي أمي، فدعا لها ﷺ فأسلمت[(٢)].

١٦ ـ معجزة قصة جمل جابر رضي الله عنه:

لحديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: غزونا مع رسول الله ﷺ، فتلاحق بي النبي ﷺ وأنا على ناضح لنا قد أعيا فلا يكاد يسير، فقال لي: «**ما لبعيرك؟**» قال: قلت: عيي، قال: فتخلّف رسول الله ﷺ فزجره ودعا له، فما زال بين يدي الإبل قدّامها يسير، قال لي: «**كيف ترى بعيرك؟**» قال: قلت: بخير؛ قد أصابته بركتك[(٣)].

هذه بعض آيات نبينا ﷺ التي أيّده الله تعالى بها، لتبليغ رسالته، وبيان صحّة دينه، وإنما حرصت على إيرادها في هذا المقام لأنها من كمال المعرفه بأحواله ﷺ.

❃ ❃ ❃

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) متفق عليه.

الخاتمة

ها أنا ذا أدوّن آخر قطرة من حِبر في سيرة هذا النبي الكريم ﷺ في كتابي، الذي أسميته «**في ظلال السيرة النبوية**»؛ تتبعت فيه مواطن القدوة على حسب ما سنح به الخاطر، وجادت به الذاكرة ليس إلا!.

وهي لا تعدو أن تكون محاولة لنفسي أولاً، ثم لمن أراد أن يرى بعض أنوار نبيه التي بثها عبر رسالته التي جاء لتحقيقها.

سائلاً الله تعالى أن تكون ذخراً لكاتبها في يوم أحوج ما يكون إليه. وهو المؤمل وعليه التكلان. والله المستعان..



ثبت بعض المصادر والمراجع

١ ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد** — ابن القيم

٢ ـ **السيرة النبوية الصحيحة** — د/ أكرم ضياء العمري

٣ ـ **السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية** — د/ مهدي رزق الله

٤ ـ **فقه السيرة النبوية** — محمد الغزالي

٥ ـ **مختصر الشمائل المحمدية** — محمد ناصر الدين الألباني

٦ ـ **من معين الشمائل المحمدية** — صالح أحمد الشامي

٧ ـ **من معين الخصائص النبوية** — صالح أحمد الشامي

* * *

الفهـرس

* * *